الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم الفلسفة

العصبية الدينية
دورها في قيام وأفول الدول الإسلامية
المرابطية نموذجاً

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في إطار المدرسة الدكتورالية
– الدين والمجتمع–

إعداد الطالب:
الشيخ عدة

إشراف: الأستاذ الدكتور
فغرور دحو

– لجنة المناقشة–

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ. د عمار يزلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	رئيساً
أ. د فغرور دحو	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	مقرراً
د. زاوي عمر	أستاذ محاضر	جامعة وهران	مناقشاً
د. داده محمد	أستاذ محاضر	جامعة وهران	مناقشاً

السنة الجامعية:1432–1433هـ/2011–2012م

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

سورة النور، الآية: 54.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

إهـــداء

إلى من أوصاني الرحمن بالدعاء لهما "ربي أرحمهما كما ربياني صغيرا"

أمي رحمها الله، أبي حفظه الله.

-إلي إخوتي، زوجتي وأبنائي.

- إلى أستاذي المشرف د.فغرور دحو، وأساتذتي في المدرسة الدكتورالية.

- إلى أصدقائي وكل من حفزني في مهمتي. وجميع المشتغلين بمهمة الأنبياء في زمن الركود من أجل نشر المعرفة والعلوم، وإنارة الأفئدة والعقول.

وإلى كل من أعانني في إنجاز عملي هذا. أهدي ثمرة جهدي.

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

سورة البقرة، جزء من الآية:127.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مقـــدمـــة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يتناول موضوع البحث دراسة العصبية الدينية ودورها في قيام وأفول الدول الإسلامية، مع الاعتماد على دولة المرابطين كنموذج للتوضيح والتعليل، والتحقق من ذلك حتم علينا العودة إلى تتبع أحداث التاريخ الإسلامي المتواكبة، السياسية منها على وجه الخصوص المتعلقة بالتطور الذي عرفته الدول الإسلامية عبر مسارها التاريخي، منذ ظهور أول دولة في الإسلام وهي دولة الرسول (ﷺ) إلى سقوط آخر خلافة إسلامية وهي الدولة العثمانية، وهو الشيء الذي أوصلنا إلى بلورة مجموعةً من الأفكار والاعتقادات منها أن جل دول العالم الإسلامي وكغيرها من الدول، قد مرت في عملية بنائها بمجموعة المراحل التي يسميها المهتمون بدراسة نشأة الدول وتطورها بـــ:-قانون الدولة-. وهذه المراحل هي: مرحلة التأسيس ثم النمو والقوة وأخيراً السقوط. وهو ما قال به ابن خلدون عندما قرر بأن للدول أعماراً مثل الأشخاص،

ولكل مرحلة يجب أن تتوفر مجموعة من العوامل والأسباب من بينها حسب ما ذكره ابن خلدون في المقدمة – الدعوة الدينية، والعصبية القبلية-. وسواءٌ تعلق الأمر بالدول التي قامت في المشرق أو التي كان قيامها في المغرب الإسلامي وبالتحديد في الفترة الوسيطة، فإن الملاحظ لها يرى أن العديد منها قد قام على أساس العصبية القبلية والدعوة الدينية مثل الدولة الأموية والدولة العباسية، أو الدول المنفصلة عنهما كالدولة الإدريسية والدولة الفاطمية والدولة الزيانية والموحدية، أو الدولة المرابطية التي هي محل دراستنا هذه.

والتي كانت قد اعتمدت في تكوينها على الدعوة الدينية السنية المالكية التي قام الشيخ عبد الله بن ياسين، وعلى عصبية قبيلة لمتونة البربرية وفروعها الأخرى كجدالة ولمطة ومسوفة وغيرها، فتمكنت من أن تتحول من مجرد دعوة دينية على يد زعيمها الروحي عبد الله بن ياسين إلى ملك ودولة قائمة بذاتها بيد زعيمها السياسي يحي بن إبراهيم، وقائدها الكبير يوسف ابن تاشفين وأبنائه من بعده، ومن أن تؤسس ملكاً واسعاً شمل بلاد المغرب والأندلس ودول إفريقيا جنوب الصحراء، وأن تعمر ما يقارب القرن من الزمن، قدمت خلاله خدمات جليلة للإسلام ولأهله، معيدةً بذلك صورة الفتوحات الإسلامية أيام الخلافة الراشدة والأموية والعباسية إلى الأذهان.

وعلى هذا الأساس وقع اختيارنا على هذه الدولة التي كان أمرائها أقرب إلى الزهاد، والمتبتلين منهم إلى الملوك والسلاطين كنموذج ناصع، للتأكيد على دور العصبية والدعوة الدينية في تأسيس الدول الإسلامية ودورها بعد ذلك أيضاً في أفولها، وبالتالي المساهمة ولو بشكل

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بسيط في إظهار بسالة هذه الدولة، ودورها في خدمة الإسلام والمسلمين، والذي لا ينكره إلا جاحد أو متعصب من فصيلة الباحثين المستشرقين أعداء الأمة والدين، الذين حاولوا من خلال كتابتهم وأرائهم تشويه فترة من أهم مراحل التاريخ الإسلامي في المغرب والأندلس، بإطلاقهم للكثير من الأكاذيب والافتراءات على هذه الدولة المجاهدة وأمرائها الورعين، ونعتهم أيام حكمهم بالهمجية والبربرية من أمثال درزي[1]. ويوسف أشباخ[2]، وتأثيرهم للأسف مع ذلك حتى على البعض من الكتاب والأدباء العرب المحدثين خاصة أولئك الذين أنجزوا درجاتهم العلمية هناك بإسبانيا[3].

أولاً: الإشكالية:

من خلال ما تمَّ التلميح إليه في المقدمة يمكننا أن نطرح الإشكالية الآتية:

- إذا كانت العصبية القبلية والدعوة الدينية من بين السمات الرئيسية التي طبعت تأسيس الدول الإسلامية في التاريخ، على الأقل في المغرب الإسلامي في العصر الوسيط الذي عاش فيه ابن خلدون واستخلص منه أفكاره أو بالأحرى نظريته، فكيف يكون للعصبية الدينية دور في قيام الدولة الإسلامية وتكون هي نفسها سبباً في أفولها وزوالها؟!.
- على هذا الأساس كيف ساهمت العصبية الدينية في تأسيس الدولة المرابطية وتعاظم قوتها، ثم كانت هي السبب في ضعفها وسقوطها من بعد ذلك؟.

كما أن هناك بعض الأسئلة الأخرى الفرعية التي يجب طرحها والتي منها مثلاً:

- إذا كانت العصبية الدينية حقاً من أهم شروط قيام الدولة الإسلامية؛ فكيف تحولت دعوة المرابطين من مجرد دعوة دينية إصلاحية إلى دولة وكيان سياسي قائم بحد ذاته؟.
- هل أن حاجة المرابطين إلى القوة والسلاح لنشر دعوتهم هو الذي دفعهم إلى التفكير في تكوين الدولة، أم أن هناك أسباباً أخرى هي التي دفعتهم لذلك؟.
- إلى أي مدى قد استمرت هذه الدولة في ترسيخ هذا المنهج الديني؟. أو أنها عادت من جديد

---

(1) في كتابه histoire des musulmanes d'Espagne.

(2) في كتابه تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين.

(3) منهم حازم عبد الله خضر صاحب كتاب النثر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين، ومحمد مجيب السعيد صاحب كتاب الشعر في عهد المرابطين والموحدين، وحكمت علي الأوسي وكتابه الأدب الأندلسي في عهد الموحدين. أنظر: عصمت عبد اللطيف دندش، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 ، سنة1988. ص10.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

إلى ممارسة شؤون الحكم من دون الاعتماد على الدعوة الدينية؟. وهو ما كان سبباً في أفولها وسقوطها على يد دعوة دينية وعصبية أخرى، وهي الدعوة الموحدية القائمة على الفكرة المهدوية بقيادة عبد الله بن تومرت؟.

- هل أن تخلي المرابطين عن العصبية الدينية كان سبباً كافياً لسقوط دولتهم أم أن هناك أسباب وعوامل أخرى قد ساهمت في ذلك؟. وسنحاول قدر الإمكان الإجابة على هذه الأسئلة من خلال الفرضيات المقترحة الآتية.

ثانياً: الفرضيات:

من خلال الإشكالية المطروحة والأسئلة التي رافقتها يمكننا صياغة الفرضيات التالية:

1- إن تتبعنا لنشأة العديد من الدول عبر التاريخ الإسلامي سواءً أ كان ذلك في المشرق أم في المغرب، نجدها قد اعتمدت في تأسيسها الأول على العصبية القبلية والدعوة الدينية، حتى يتحقق لمؤسسيها الحصول على الأتباع والنفوذ بين الناس، فيظهرون بأنهم الأحق بالحكم أو الملك مثل الأمويين والعباسيين، أو أنهم جاؤوا من أجل إصلاح أحوال للناس والعودة بهم إلى مبادئ الدين الصحيحة، وهو الذي حدث بطبيعة الحال مع المرابطين ثم الموحدين من بعدهم.

2- إن معظم الدول عبر التاريخ الإسلامي المعتمدة على العصبية الدينية في تأسيسها كانت دولاً قوية ومتينة، لأن الدعوة الدينية تزيد من قوة وصلابة الدولة، وهو ما قاله ابن خلدون في المقدمة:« في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها»[4].

3- ما دام أن العصبية الدينية تزيد من قوة الدولة ومن لحمة الائتلاف بين الحاكم والرعية، وبين أبنائها بعضهم البعض، فيجب إذن الحفاظ على بقائها لبقاء قوة الدولة؛ لأن ذهابها والتخلي عنها يعني حتماً ذهاب الدولة وضياع هيبتها.

4- إن القوة والتوسع الذي بلغه المرابطين في المغرب والأندلس؛ إنما كان في شدة تدينهم وقوة اعتمادهم على عصبيتهم، وأن بداية تخليهم عن تعاليم الدين وانشغالهم بأمور الدنيا، قد تسبب في ضعف دولتهم، وساهم في ظهور دعوة دينية مضادة لهم وهي الدعوة المهدوية الموحدية، بقيادة عبد الله بن تومرت التي نجحت في تأسيس دولة جديدة على حساب أملاك المرابطين.

5- لم يكن تحلل العصبية الدينية هو السبب الوحيد الذي أدى إلى سقوط دولة المرابطين؛ بل

(4) ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدمـــة**، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2007. د(ط). ص170.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

هناك أسباب أخرى مختلفة سياسية واقتصادية، داخلية وخارجية كان لها التأثير البالغ في هذا السقوط والانهيار سنتطرق لها من خلال هذه الدراسة.

ثالثاً:أسباب اختيار الموضوع:

أ-الأسباب الذاتية:

إن الوقوع على اختيار موضوع دور العصبية الدينية في قيام الدولة الإسلامية وزوالها، والتركيز على دولة المرابطين كنموذجاً للدراسة تعود إلى عدة عوامل أهمها:

1-كوني من الشغوفين والمهتمين بدراسة أحداث التاريخ الإسلامي عامةً وتاريخ المغرب الإسلامي خاصةً، ولرغبتي الجامحة في التخصص والبحث في هذا المجال، الذي يمثل حقبة جد منيرة في تاريخنا المجيد، والوقوف على ما حققه أجدادنا عبره من قوة ومجد وتوسع، وقهرهم لأعتى الأمم آنذاك.

2- الوقوف على حقيقة المقولة أو بالأحرى النظرية المعروفة التي تنسب إلى عبد الرحمن بن خلدون، والتي مفادها أن الدعوة الدينية والعصبية القبلية هما أساس تكون الملك والسلطان عند العرب والمسلمين؛ أي نشأة الدول الإسلامية بالتعبير الحالي.

3- من ناحية أخرى فإني أرى في نموذج دولة المرابطين المثال الأبرز الذي يبين بوضوح تأثير العصبية الدينية، ودورها في تأسيس الملك والسلطان في المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ودورها في انهياره وسقوطه بعد تحلل هذا العامل.

4- ميلي الكبير لدولة المرابطين السنية المالكية التي استطاعت بفضل شيوخها وأمرائها الميامين وعلى رأسهم الشيخ عبد الله بن ياسين، والأمير يوسف بن تاشفين بطل معركة الزلاقة الشهيرة، وقاهر الأسبان فيها، وأبنائه الأمراء المجاهدين، من أن تثبت أقدام الإسلام في بلاد المغرب والأندلس، وأن تعيد إلى الأذهان سيرة خالد بن الوليد، وموسى بن نصير، والمنصور بن أبي عامر، وصلاح الدين الأيوبي، وغيرهم من أبطال الإسلام والعروبة كثير.

ب- الأسباب الموضوعية:

إنّ دراسة موضوع العصبية الدينية ودورها في تأسيس وأفول الدول الإسلامية يعتبر من المواضيع الهامة الجديرة بالاهتمام والبحث، وذلك لاعتبار محدودية الدراسات والأبحاث في هذا المجال على حسب إطلاعنا، وأنَّ جلَّ ما تم تناوله من قبل الدراسات الموجودة؛ فقد كان حول العصبية القبلية والدعوة الدينية ودورهما في بناء السلطان والملك؛ أي قيام الدول وتأسيسها،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

واعتماد الحكام عليها لتمتين سلطانهم وحكمهم ولتقوية الروابط بينهم وبين رعيتهم، دون التركيز على دورهما في عملية ضعف الملك وبالتالي سقوط الدولة.

رابعاً:الدراسات السابقة:

لعل من أهم الدراسات على الإطلاق التي تطرقت لمسألة العصبية، هي دراسة العلامة عبد الرحمن بن خلدون في كتابه:(المقدمة) الذي ألّفه سنة(776هـ/1377م)، وتطرق فيه لدور العصبية والدعوة الدينية في تأسيس الملك والسلطان أو الدول في التاريخ الإسلامي عامةً، وفي المغرب الإسلامي الذي عايش أحداثه بشكل خاص، لما لها من أثر في توحيد الكلمة وجمع قلوب الناس، وبين فيه حالة الضعف والتفكك التي تصيب الدولة في غياب العصبية الدينية أو زوالها، ودراسة المفكر المغربي المعاصر محمد عابد الجابري التي عنوانها: فكر بن خلدون- العصبية والدولة-(معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي). وهي عبارة عن رسالة دكتوراه تطرق فيها الباحث إلى تقديم آراء ابن خلدون في العصبية والملك كما هي في نظره انطلاقا من مكانه وزمانه وظروفه.

كما أن هناك دراسات كثيرة عن العصبية منها دراسة عبد العزيز قباني التي عنوانها: -العصبية بنية المجتمع العربي-، التي أراد من خلالها أن يبين دور العصبية وأثرها في بناء المجتمع العربي منذ العصر الجاهلي وحتى ظهور الإسلام، وكذا دراسة: خالد بن عبد الرحمن الجريسي التي تطرق فيها إلى العصبية من المنظور الإسلامي، ودراسة: هشام بن حسن العطار، وهي عبارة عن رسالة ماجستير من جامعة محمد بن سعود بالرياض السعودية، وعنوانها -أثر الإسلام في نظرة ابن خلدون للإنسان والأديان-، والتي تطرق فيها بإسهاب إلى فكرة العصبية وأنواعها.

وعليه نقول بأننا لم نجد دراسات معمقة عن موضوع العصبية الدينية، وتوضيح دورها في عملية تأسيس الدول وسقوطها، وهو ما خلق لنا عدة صعوبات في إنجاز هذا البحث.

أما الدراسات التي تطرقت إلى قضية قيام وسقوط الدول الإسلامية عبر التاريخ فهي متعددة ومنها مثلاً: دراسة عبد الحليم عويس- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية-، ودراسات أخرى عن الدولة الأموية والعباسية والفاطمية، المرابطية والموحدية...الخ، لكنها لم تركز على دور العصبية الدينية في عملية قيام وسقوط الدول، وأنها أشارت وبدون تحديد إلى دورها في عملية القيام عادةً، وهو ما حفزنا على البحث في هذه المجال، وجعلنا نركز على توضيح تأثير العصبية الدينية في عملية قيام الدول الإسلامية وفي سقوطها معاً.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

خامساً: أهداف البحث:

- الوقوف على مدى صحة نظرية ابن خلدون فيما تعلق بدور العصبية القبلية، والدعوة الدينية في تأسيس الملك والسلطان عند البدو من العرب، ومنه الإطلاع على الحجج التي برر بها رأيه هذا، والأسباب التي دفعته إلى الجزم بهذا الفكرة.
- التأكيد من خلال نموذج الدراسة وهو الدولة المرابطية، على دور العصبية والدعوة الدينية في تأسيس هذه الدولة ودورهما في انهيارها بعد ذلك، وبالتالي ملاحظة مدى قابلية رأي ابن خلدون هذا للقياس والمطابقة على الأقل في فترة العصر الوسيط الذي عايشه وخبر أحداثه.
- التعرف على الدور الذي أداه داعية المرابطين عبد الله بن ياسين في زرع النواة الأولى الممكنة لدولة المرابطين في بلاد الصحراء والمغرب قبل استشهاده، واستكمال خلفائه وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين لرسالته من بعده، ونجاحهم في تكوين هذا الكيان السني المالكي القويم، وسط بيئة عفنة بالشركيات والبدع والشعوذة.
- إثبات الطابع الديني للدولة المرابطية وما حققته من القوة والتوسع في بلاد الصحراء والمغرب والأندلس؛ حينما ظلت متمسكة بعصبيتها الدينية، والضعف الذي أصابها بعد أن دأب أمرائها المتأخرون منذ عهد علي بن يوسف بن تاشفين على التخلي عن المنهج العصبي الديني الأول الممكن للدولة، مما أدى إلى تحلل عصبيتهم الدينية.
- الإطلاع على الخطط التي وظَّفها المهدي بن تومرت لإنجاح دعوته، والتخلص من حكم المرابطين باعتماده على دعوة دينية مضادة، ونجاحه وأتباعه في مهمته بتكوين دولة الموحدين على حساب دولة المرابطين، وحرمان الإسلام بالتالي من جهودهم الجهادية خاصةً في الأندلس.

سادساً:منهجية البحث:

باعتبار أن المنهجية هي العلم الذي يبحث في الطرق التي يستخدمها الباحثون لدراسة المشكلة للوصول إلى الحقيقة، وعلى أن الفصل بين المناهج العلمية غير ممكن في البحث العلمي، وبما أن جميع المناهج خطوات مختلفة في منهج واحد[5]، ارتأينا الاعتماد على مجموعة منها للوصول إلى درجة ما من الدقة والحياد العلمي، وهي كالآتي:

أ- **المنهج التاريخي**: يأتي تركيزنا على هذا المنهج، كونه لا يقتصر على مجرد سرد الأحداث؛ بل أنه يحللها ويفسرها في واقعها التاريخي، بهدف الوصول لمعرفة الماضي وإسقاطه على الحاضر،

(5) سامر حريفج وآخرون، **في مناهج البحث العلمي وأساليبه**، منشورات عبد اللاوي، الأردن: ط2، سنة1999.ص33.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وعلى هذا الأساس نقول إن دراسة موضوع العصبية الدينية قد قادنا إلى دراسة نشأة الدولة وتطورها وسقوطها، وذلك عبر التاريخ الإسلامي عامةً والمغاربي خاصةً.

ب–المنهج الوصفي:وهو الذي يهتم بدراسة الأوضاع السائدة، من حيث أشكالها وخصائصها، ويمكننا في غالب الأحيان من تخمين مستقبل الأحداث، مما ساعدنا في الوقوف على ظاهرة العصبية الدينية في التاريخ الإسلامي والمغاربي بالخصوص، وقياسها على الوقت الراهن.

ج– المنهج التحليلي: الذي يقوم على وصف منظم ودقيق لمحتوى النصوص المكتوبة والنظريات التي تكلمت عن العصبية الدينية، ودورها في تأسيس الدول الإسلامية عبر التاريخ ومنها العصبية المرابطية ودورها في قيام وسقوط هذه الدولة.

د–المنهج المقارن: الذي يقوم على معرفة كيف ولماذا تحدث الظواهر ومقارنتها مع بعضها البعض، من حيث أوجه التشابه والاختلاف بغرض الوصول إلى معرف العوامل والشروط والظروف، وقد اعتمدنا عليه في دراستنا لظهور العصبية الدينية في التاريخ الإسلامي، ودورها في عملية تأسيس الدول وفي عملية أفولها، وقياس ذلك على دولة المرابطين.

سابعاً:دراسة لأهم مصادر ومراجع البحث:

1–المصـــادر:

– **مقدمة ابن خلدون:** للعلامة ابن خلدون أبي زيد عبد الرحمن بن محمد. وهو كتاب ألفه سنة (776هـ/1377م)كمقدمة لمؤلفه الضخم كتاب العبر، فقد ولد ابن خلدون في تونس سنة (732هـ/1332م)، وتجول في أقطار المغرب، وارتحل إلى مصر التي مكث بها حتى وفاته سنة (808هـ/1406م). وهو ما أكسبه معرفة كبيرة بأحوال الشعوب والدول ونظم الحكم، وقد اعتمدنا في بحثنا هذا بشكل كبير على كتابه هذا، كقاعدة لموضوعنا وخاصة الفصول التي تكلم فيها عن العصبية والدعوة الدينية، والعصبية والملك، ونشوء الدول وأسباب انهيارها، والعصبية والنسب القريشي، واعتمدنا كذلك على كتابه تاريخ ابن خلدون المعروف بـــ:

–العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: والذي اشتمل على تاريخ دولتي المرابطين والموحدين وتحديداً جزئه السادس، وكانت الإفادة منه كبيرة خاصةً فيما تعلق بأصل الملثمين ونسبهم والفروع المكونة لقبيلة صنهاجة، وديانتهم التي كانوا عليها قبل ظهور دعوة ابن ياسين، والمراحل التي مرَّ بها هذا الأخير في سبيل إنجاح دعوته، وجهاده في الصحراء وضد قبائل المغرب قبل وفاته، ومواصلة أتبـــاعه رسالته من بعده إلى غاية

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ظهور دولة الموحدين وصدامها مع الدولة المرابطية وانتصارها عليها في الأخير.

-**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:** لمؤلفه ابن عذاري المراكشي(أبو العباس أحمد بن محمد). كان حياً سنة(712هـ/1312م)، مما جعل كتابه هذا من أهم المصادر في تاريخ المغرب والأندلس، وبالرغم من أن مؤلفه من المؤرخين المتأخرين؛ إلا أن مصنفه قد حفل بالكثير من الأخبار عن المغرب والأندلس في عهد المرابطين وخاصةً الجزء الرابع منه، فغطى بذلك جوانب مهمة في البحث فيما يتعلق بأصل المرابطين وسياستهم وفتوحاتهم، وإحراقهم لكتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، وأحداث الصراع بينهم وبين الموحدين.

-**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس:** لمؤلفه ابن أبي زرع. أبي الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي.ت(726هـ/1328م). وقد استفدت منه في الحديث عن أصل المرابطين ونشأتهم، ومراحل دعوة ابن ياسين، وجهود الأمراء الأوائل في السيطرة على قبائل المغرب الأقصى، وفي الحديث عن صراع الأمير علي بن يوسف مع المماليك المسيحية بالأندلس ومع الموحدين بالمغرب.

-**أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين:** لصاحبه أبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيذق.ت(594هـ/1159م)، والذي كان صديقاً ومرافقاً للمهدي بن تومرت. فكانت روايته عن الأحداث كشاهد عيان للحوادث التي كان يعاصرها، ولذا اتسم بالوضوح والواقعية وإن كان يتعصب في الكثير من الأحيان للموحدين ويدافع عن المهدي وأتباعه، وقد استفدت منه كثيراً في الحديث عن ظهور الدعوة الموحدية، والأسس التي ارتكزت عليها، والصراع الحربي بين المرابطين والموحدين .

- **نظم الجمان في أخبار الزمان:** لمؤلفه ابن القطان(أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي).ت (628هـ/1231م). يعاب عليه هو الآخر تعصبه للموحدين وتحامله على المرابطين؛ إلا أنه قد اضطر مراراً إلى تمجيد المرابطين وتعظيم دورهم الجهادي في الأندلس، وأفدت من مؤلفه في الحديث عن ظهور ابن تومرت، وصراعه مع المرابطين وتهمه الموجهة إليهم، ووصف مظاهر الانحلال الأخلاقي في دولة المرابطين وتأثرهم بالأندلسيين وانغماسهم في حياة الترف والنعيم.

-**كتب ابن الخطيب:** لسان الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد.ت(776هـ/1364م) ومنها:

-**الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية:**والذي ضَّم حقائق تاريخية هامة عن دولة المرابطين، وقد اعتمدنا عليه في عدة مواضع منها:ظهـــور دعوة عبد الله بن ياسين وقيـــام دولة المرابطين،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وجهود أمرائها من أجل نشر الإسلام بين القبائل الصحراوية، وتوحيد قبائل المغرب الأقصى.

- **الإحاطة في أخبار غرناطة:** فيه أخبار مهمة وتراجم لملوك وأمراء وعلماء غرناطة، وجميع من وفد إليها، وقد استفدت منه في الحديث عن انتعاش العلوم الدينية في عهد المرابطين، والترجمة لبعض الأعلام والشخصيات في ذات العصر.

- **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام:** يعد من المصادر الهامة التي تناولت دراسة تاريخ الدول الإسلامية، وهو في ثلاثة أقسام كان اعتمادي على الثاني والثالث منه، اللذين يسلطان الضوء على الأحداث السياسية في المغرب والأندلس، وأحداث الصراع بين المرابطين والمماليك المسيحية في الأندلس، والصراع المرابطي الموحدي.

- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب:** المراكشي أبي محمد عبد الواحد بن علي.ت(647هـ/ 1249م). والذي عايش الدولة الموحدية، ويعتبر كتابه هذا من أهم مصادر التاريخ الإسلامي في المغرب أيام الموحدين، وإن أعيب على صاحبه تعصبه للموحدين وتحامله على المرابطين كذلك، إلا أنه مدَّنا بمعلومات مهمة عن سير الأمراء المرابطين خاصةً علي بن يوسف بن تاشفين، الذي وصفه بشِّدة التدين، وأخبار عن تحكم الفقهاء في الدولة المرابطية.

2- كتب التراجم:

استفدنا من بعضها في الترجمة لأسماء العلماء والفقهاء والملوك والقضاة الأندلسيين، وفي توضيح نشاط الحركة الدينية في عهد المرابطين، ومن بينها:كتاب الصِّلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم لابن بشكوال، وكتاب التكملة لكتاب الصِّلة لابن الآبار اللذان يحتويان على ترجمة لأسماء الملوك والعلماء الأندلسيين زمن المرابطين، والمعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، الذي يحتوي هو الآخر على العديد من التراجم للعلماء الذين درسوا على يد علي الصدفي.

2- كتب الأدب ودواوين الشعر:

اعتمدنا أيضاً على البعض منها للاستفادة من المعلومات التي تضمنها عن المرابطين مثل -كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي- للمؤلف عبد الله كنون، الذي أفادنا في الحديث عن الدعوة المرابطية، وإبراز طابعها الديني المالكي، وفي الترجمة لبعض الفقهاء والعلماء في العصر المرابطي، وكتب الفتح ابن خاقان ومنها:-كتاب قلائد العقيان في محاسن الأعيان-، وكتاب -مطمح الأنفس ومسرح الأنس في ملح أهل الأندلس-، وهذا لتوضيح مظاهر الفساد

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الأخلاقي عند المرابطين، وبعض دواوين الشعر كديوان ابن خفاجة، والتي قدمت لنا قصائد في مدح بعض الأمراء المرابطين، ووصف ميادين الانحلال في المجتمع المرابطي.

3- المصادر الجغرافية:

اعتمدنا على بعضها في التعريف بالأماكن الواردة في الدراسة التي وصلتها دعوة عبد الله بن ياسين، ومما تضمنته من أخبار تاريخية، انتفعنا بها في مواضع متفرقة من البحث وفي مقدمتها: -كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب-لمؤلفه البكري، وكتاب- وصف المغرب وأرض السودان ومصر-. لمؤلفه الشريف الإدريسي، والذي أفادنا في نقل ما شاهده صاحبه من بنايات وقصور التي كان يملكها بعض الحكام المرابطين كدلالة عن الترف والنعيم، مما أضعف عصبيتهم ، وكتاب —البلدان- لليعقوبي-، والأخذ أيضاً من بعض كتب الحسبة، عند الإشارة إلى فساد الحكم وتحلل الحياة الاجتماعية في دولة المرابطين، ومنها -رسالة ابن عبدون التجيبي- الذي عاصر استيلاء المرابطين على اشبيلية، وبعض كتب الفتاوى التي تضمنت قضايا وفتاوى ذات صلة بموضوعنا أبرزها:-المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب- للونشريسي، وكتب الحديث والسيرة، ومنها صحيحي البخاري ومسلم، وسنن الترميذي والبيهقي وأبي داود، وسيرة ابن هشام، ومختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

5- المراجع الحديثة:

أما المراجع الحديثة فكانت الاستفادة منها كبيرة حسب مقتضيات البحث، ومنها على سبيل الذكر:-كتاب العصبية والملك- لمحمد عابد الجابري، وكتاب -العصبية القبلية من المنظور الإسلامي- لخالد بن عبد الرحمن الجريسي، وكتاب -العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء الفكر الخلدوني- لبوزياني الدراجي، وهي مراجع تتكلم بإسهاب عن العصبية وأنواعها ودورها والعوامل المؤثرة فيها وعلاقتها بالدعوة الدينية، وكتب النظم الإسلامية و منها كتاب- الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته-لمصطفى الشكعة، و-كتاب النظريات السياسية الإسلامية- لمحمد ضياء الدين الريس، التي استفدنا منها في الفصل الأول في تحديد المفاهيم الخاصة بالدولة، وتاريخيتها في الإسلام.

والكتب التي تتكلم عن دولة المرابطين أهمها كتابا إبراهيم القادري بوتشيش، وهما —المغرب والأندلس في عصر المرابطين-، وكتاب -دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين-، وكتاب -قيام دولة المرابطين- لصاحبه حسن أحمد محمود، وأيضا كتابا عصمت عبد اللطيف

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

دندش، وهما- دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا-، وكتاب- الأندلس والمغرب في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين-،وكتاب- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين- لمؤلفه حسن علي حسن، وغيرها من المؤلفات الموظفة في البحث، والتي تحدثت عن تاريخ دولة المرابطين وتوسعاتها وانجازاتها في بلاد المغرب والصحراء وبلاد الأندلس، كما رجعت إلى ما تيسر لي من مراجع أجنبية تمس الموضوع بصلة.

وبفضل هذه المادة المتنوعة واستناداً إلى الإشكالية والفرضيات تمَّ تقسيم موضوع البحث إلى مدخل، مقدمة، وثلاث فصول، فخاتمة، وكل فصل بمجموعة من المباحث على النحو الأتي:

الفصل الأول:تناولنا فيه الجانب النظري المتعلق بتعريف المصطلحات الرئيسية الواردة في موضوع البحث، كالدولة والعصبية، وهو يحتوي على ثلاثة مباحث.

المبحث الأول:المفهوم العام للدولة وتاريخيتها في الإسلام.

المبحث الثاني:العصبية بين المفهوم والوظيفة.

المبحث الثالث:الدين والعصبية.

الفصل الثاني:تناولنا فيه العصبية الدينية ودورها في نشأة الدول بالارتكاز على نظرية عبد الرحمن ابن خلدون، وفيه أربعة مباحث.

المبحث الأول:العصبية الدينية ودورها في قيام الدول الإسلامية، المرابطية نموذجاً.

المبحث الثاني: دور عبد الله بن ياسين في تكوين العصبية الدينية المرابطية.

المبحث الثالث:العصبية الدينية عند المرابطين(المظاهر والآثار).

الفصل الثالث:تناولنا فيه انحلال العصبية الدينية ودورها في أفول الدول الإسلامية، بالعودة إلى نظرية عبد الرحمن بن خلدون وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: انحلال عصبية المرابطين(الأسباب والعوامل، الجوانب والمظاهر).

المبحث الثاني: الصراع بين العصبية المرابطية والعصبية الموحدية.

المبحث الثالث:نظرية العصبية عند ابن خلدون (الأحكام، القيم، والانتقادات).

والخاتمة التي تتضمن النتائج المستخلصة من الدراسة قياساً بالفرضيات والإشكالية المطروحة، وهي عبارة عن استنتاجات عامة حول العصبية، ومسيرة عبد لله بن ياسين والمرابطين الدعوية.

والله ولي التوفيق والسداد.

الطالب: الشيخ عدة. جامعة وهران في: 11 ماي 2012م الموافق لـ 18 جمادى الثانية 1433هـ.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من بين الحقائق المستقاة من التاريخ الإسلامي المتعلقة أساساً بنشأة الدول وبسقوطها، وتحديداً في المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، هو أن العديد من الدول القائمة آنذاك عرفت بدايةً توظيف مؤسسيها الأوائل مجموعةً من الوسائل والأدوات لبلوغ الحكم وإقامة الدولة لهم. من بينها العصبية القبلية والدعوة الدينية التي اعتبرت في نظر الكثير من المفكرين وأولهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون، من الشروط الضرورية في عملية البناء السياسي لأي كيان حينها، وذلك بانطلاقه من الواقع المغاربي الذي عايش أحداثه، ومما لاحظه من تجواله في المشرق، وأطلع عليه من أخبار عن دولتي الأمويين والعباسيين، قبل أن تتحول تلك الوسائل ذاتها بمرور الزمن إلى سبب رئيسي في تهاوي أعمدة ذلك الكيان وزواله، عند إهمالها أو الاستغناء عنها.

فالحديث إذن عن حضور أو غياب العصبية والدعوة الدينية في قيام الدول الإسلامية وأفولها في المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، يجرنا حتماً إلى مناقشة النظرية الخلدونية التي تؤكد على أن قيام الدول في هذا العصر كان رهين أسس ثلاثة هي:العصبية والدعوة الدينية إضافة إلى المال، مع التركيز على عامل الدعوة الدينية،كما يرى ابن خلدون أن الدعوة الدينية تعتبر مكملة للعصبية القبلية من أجل البلوغ إلى السلطة والثبات فيها، وهي الوسيلة الوحيدة التي تُمكِّن العرب البدو من تأسيس الملك والسلطان، ويؤكد على أنها تحتاج ضرورة إلى عصبية تدافع عنها وتظهرها، وعند الوصول إلى الملك تظَّل مساعدة على قوة الدولة بعد قيامها.

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته عديد الفصول التي تتكلم عن هذه المسألة ومنها قوله: « في أن الدُّول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق»[5]. وقوله كذلك: « في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها»[6]. وقوله:« في أن الدعوة الدينيِّة من غير عصبية لا تتم»[7]. وعلَّل ذلك بكـــون أن: «الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق»[8]، مستدلاً على مكانة الدعوة في قيام الدولة بالانتصار الذي حقَّقه العرب في القادسية على الفرس بيد أن عددهم كان أقل منهم بكثير. وقدم أمثلة ونماذج من المجال المغربي قائلاً: « واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين، فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ص169.170.

(6) نفس المصدر، ص169.

(7) نفس المصدر، ص170.

(8) نفس المصدر، ص169.170.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف عليهم؛ إلاَّ أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة–كما قلناه– فلم يقف لهم شيء»[9]. وعليه فإن العصبية والدعوة الدينية قد شكلتا عناصر أساسية عند ابن خلدون في تكوين الدول؛ بل تشكل قانوناً أو نظرية مستقلة طبقاً لما ذهب إليه الكثير من المهتمين بالفكر الخلدوني.

فقد أولى ابن خلدون العصبية اهتماماً كبيراً وخصص لها فصولاً عديدة في المقدمة، وتفنَّن في وضع عناوين لها تدخل في القارئ بأنها حقائق ثابتة وقوانين راسخة، ومنها قوله:« أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية»، و« العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب»، و « الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية»، و« الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم»، و« البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية، ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه، البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع؛ إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم»، و « الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك»، و« الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمةٍ فلا بد من عودة إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية»، و« الملك والدولة العامة؛ إنما يحصلان بالقبيل والعصبية»، و« قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية»، و« إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوةً على قوة العصبية»، و« إن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم»، و« الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تستحكم فيها دولة»[10].

فهي ثلاثة عشر عنواناً في المقدمة تحدث فيها ابن خلدون عن العصبية ودورها، وغايتها، وعلاقتها بالدعوة الدينية[11]. وكما قال عبد الغني مغربي:« ونظراً لأهمية العصبية عند ابن خلدون فقد ذكرها في كتابه المقدمة أكثر من500مرة، واعتبرها مفتاح الديناميكا الاجتماعية، فبدونها لا تتبوأ القبيلة السلطة، وبدونها لا تتمدن»[12]. ووصفها عالم الاجتماع الفرنسي–ايف لاكوست– على أنها:« مصطلح متميز جداً بجدليته، إذ يعتبر من جهة المحرك الأساسي لقيام الدولة، لكنه من جهة أخرى يزول وينذثر بمجرد القيام الفعلي للدولة وظهور الحاكم» [13].

(9) نفس المصدر، ص170.

(10) «...» نفس المصدر، ص 667.665.

(11)الشكعة مصطفى، **الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته**، الدار اللبنانية المصرية، القاهرة، ط3، سنة1992. ص143.

(12) أنظر:1983 ,enal ,**La pensée sociologique d'Ibn Khaldoun**, abdelghani Megherbi- 3eme edition, Alger, p157.

(13) أنظر : Yves lacoste, **ibnkhaldoun. Naissance de l'histoire passè de tiers monde**, – edition, la découverte, Paris, 1998. p133

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الفصـــل الأول

الدولـــة والعصبيـــة: المفهوم والتاريخية.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:

المفهوم العام للدولة وتاريخيتها في الإسلام.

المبحث الثاني:

العصبية بين المفهوم والوظيفة والأهمية.

المبحث الثالث:

الديـــن والعصبيـــة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الأول

المفهوم العام للدولة وتاريخيتها في الإسلام

1- المفهوم العام للدولة:

بالرغم من اختلاف العلماء في تعريف الدولة إلى أن هناك تعريفات متداولة بينهم من بينها أن الدولة هي مجموعة من الأفراد تقطن على وجه الاستقرار أرضاً معينة، وتخضع لحكومة ما، كما عرفت على أنها تنظيم سياسي معين في مجتمع من المجتمعات على شرط أن يتوفر في ذلك التنظيم هيئة حاكمة تطبق أوامرها على جميع أفراد الجماعة المحكومة ضمن مساحة معلومة من الأرض.وبناءً على هذه التعاريف يجب أن تتوفر عناصر ثلاثة لاعتبار هذا الكيان دولة وهي: الشعب، الإقليم، والسلطة السياسية.

ويتضح من هذه التعاريف أن الأركان الأساسية لقيام دولة ما هي الجماعة البشرية أو الشعب؛ بمعنى أن وجود عدد معقول من الأفراد يكفي لنشأة الدولة، والإقليم الذي هو تلك الرقعة من الأرض التي تستقر عليها الجماعة البشرية، فلا يمكن وجود دولة بدون إقليم تستقر عليه الجماعة، ولذلك لم تعتبر قبائل البدو الرحل دولاً لتخلف هذا الركن[10]، ولا بد كذلك من وجود سلطة سياسية لتسيير تلك الجماعة وتنظيم شؤونها.

أ- المفهوم الإسلامي:

تعتبر النظرية الإسلامية أن الدولة هي حاجة ثابتة ومطلقة،كانت منذ أن دخل المجتمع الإنساني مرحلة الاختلاف والصراع السياسي، وتعقد الحياة الاجتماعية، وستبقى كذلك طالما أن المجتمع الإنساني ماضٍ في تطور العلاقات وتعقدها، وتضخم حاجاته الإدارية والتنسيقية، وطالما أن الإنسان سوف يبقى ذا طموحات ونزعات ومصالح تتزاحم وتتضارب، الأمر الذي يدعو إلى اختلاف وصراع عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿...**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾[11]. فالدولة إذن هي ضرورة اجتماعية وظاهرة صحية في الأمة وليست ظاهرة مرضية، ولا يمكن أن يقوم مجتمع بلا دولة دون أن تعمه الفوضى والاضطراب والتحلل[12].

---

(10) شريف عمر، **نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية**، مركز الدراسات الإسلامية، القاهرة، 1991. د(ط). ص9.8.

(11) سورة هود، جزء من الآية:118.

(12) القبانجي صدر الدين، **المذاهب السياسية في الإسلام**، دار الأضواء ، بيروت، ط2. سنة1985 .ص73.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وعليه فمنذ لحظات اللقاء الأول بين النبي(ﷺ) مع جبريل(عليه السلام)، وحتى لحظات توديعه لحياة الدنيا، كان النبي(ﷺ) يخطط ويتحرك بأصحابه نحو بناء المجتمع المسلم بالعقيدة الصحيحة خلال المرحلة المكية كلها، وانتهاءً ببناء الدولة الإسلامية بالتشريع عبر المرحلة المدنية من أجل حماية الدعوة الإسلامية من الضياع، وتمكينها من مجابهة التحديات بمنحها مقومات البقاء والاستمرار، وكانت البداية الأولى لظهور نواة الدولة الإسلامية في المدينة عقب الهجرة النبوية سنة622م إليها؛ إذ أخذت المبادئ الأساسية لها في الظهور بعد إصدار ما سمي بعقد المدينة(الصحيفة) الذي وضع أسس التعايش بين أفراد المجتمع الجديد، وأسس العلاقات الخارجية وشؤون الحرب(13).

وبعد بيعتي العقبة الأولى والثانية أخذت المعالم الأساسية للدولة الإسلامية في الظهور، وتوفرت كل مقوماتها من أرض وشعب وحاكم الذي هو رسول الله(ﷺ)، واكتمل في عهده تشريعها من القرآن والسنة، فتبين من ذلك أن الإسلام دين ودولة(14).واستكملت دولة الإسلام كل مستلزمات البناء القانوني القائم على الأركان الثلاثة وهي الأمة، الإقليم، السيادة، ولكنها ما أخذت مكانها ودورها في التاريخ لواحد من هذه الأركان؛ بل أنها قامت على أمة أساسها الفكر والعقيدة وتقديس الحرية الإنسانية، أمةٌ لا يمكن حصرها وضبطها لأنها لا تحدها لغة أو جنس أو وطن(15).

والنتيجة هي أن الإسلام قد رتب جميع العلاقات الاجتماعية والفردية في الدولة الإسلامية منذ بداية دولة الرسول(ﷺ) والخلافة الراشدة، حتى أوج توسعها مع الأمويين والعباسين، قبل أن تبدأ في الضعف والانحدار شيئًا فشيئًا لتصل إلى أقصى منحنيات الهبوط بضعف الدولة العثمانية التي سقط معها نظام الخلافة نهائياً سنة1924م(16).

ب- المفهوم الخلدوني:

نظر ابن خلدون إلى الدولة على أنها كائن حي يولد وينمو ثم يهرم ليفنى، وأن للدولة عمراً مثل الكائن الحي تماماً، وهو يشبهها بدورة حياة الإنسان التي ذكرها رب العزة في قوله تبارك

---

(13) بيضون إبراهيم، **تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول**، دار إقرا، بيروت، ط2، سنة1986.ص84./ عبد القادر بوعرفة ، **مقدمات في السياسة المدنية**، رياض العلوم للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط1، سنة2005. ص104.

(14) عمر شريف، المرجع السابق، ص16.

(15) خليل عماد الدين، **مدخل إلى التاريخ الإسلامي**، الدار العربية للعلوم، بيروت. ط1، سنة2005. ص ص49.45.

(16) سلطان جاسم محمد، **فلسفة التاريخ، الفكر الاستراتجي في فهم التاريخ**، مؤسسة أم القرى، ط1، سنة2005، ص116.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وتعالى:﴿ **اَللّهُ اَلذِي خَلَقَكُم مِّنْ ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثَمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ اَلْعَلِيْمُ اَلْقَدِيْرُ**﴾(17).(18).

فهو يري بأن للدولة أعماراً مثل الأشخاص، وهي تمر بثلاثة أجيال، وأن الجيل يصل إلى أربعين سنة بناءً على قوله تعالى:﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً**﴾(19). ففي الجيل الأول وهو –جيل البداوة– تكون الدولة على عهدها الأول تتسم بسمات الخشونة في الطباع وأسلوب العيش وقوة العصبية، وفي الجيل الثاني وهو–جيل الحضارة– يحدث تحول اجتماعي بسبب تبوئهم الحكم، وانتقالهم من البداوة إلى الحضارة، ومن التقشف المفروض إلى البذخ والترف، ومن عزِّ الاستطالة إلى ذل الاستكانة، وبحلول الجيل الثالث وهو– جيل الترف والانغماس في اللَّهو– يكون أفراد الدولة قد فقدوا حلاوة العزِّ والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ الترف فيهم غايته، فيصبحون عالة على الدولة غير قادرين على الدفاع عنها، فتسقط الدولة صريعة الضعف والهرم في جيلها الرابع على الأكثر(20).

وهذه الدورة عنده تمر بخمسة أطوار متميزة، فالطور الأول هو طور الاستيلاء على السلطة، والثاني هو طور الاستبداد بالسلطة، والثالث والرابع هما طورا ذروة الدولة، والخامس هو طور زوال الدولة(21). وتؤكد النظرية الخلدونية على أن قيام الدول في العصر الوسيط هو قائم على ترابط ثلاثة عناصر هي:العصبية القبلية، والقوة المالية، والإشعاع الديني، ويظهر هذا الترابط بينها بشكل واضح في المغرب الإسلامي خاصةً في زمن تكوين الدويلات المرابطية والموحدية إذ يقول:« في المغرب كانت من القبائل كثيرٌ ممن يقاومهم في العدد والعصبية؛ إلا أن الإجماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة فلم يقف لهم شيء»(22) (23).

وقد كانت الروح الإسلامية واضحة في نظرة ابن خلدون حول تأسيس الدول وسقوطها، فهو كما يؤكد على دور العصبية و الدعوة الدينية في تأسيس الدول، يرى أيضاً في مسألة

(17) سورة الروم، جزء من الآية:54.

(18) سلطان جاسم، المرجع السابق، ص33 .

(19) سورة الأحقاف، جزء من الآية15.

(20) طحطح خاليد فؤاد، **في فلسفة التاريخ**، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، سنة2009. ص ص89.86.

(21) جغلول عبد القادر، **الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون**، تر: فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط2، سنة1981، ص133.

(22) ابن خلدون، المصدر السابق، ص170.

(23) عبد القادر جغلول، المرجع السابق، ص131.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

سقوطها أن الخلل الأعظم الذي يتطرق إلى الدولة يعود إلى عوامل تحلل هذين العاملين، إضافة إلى عوامل مساعدة أخرى منها الانغماس في النعيم، والظلم والاستبداد من الحاكم، وجباية الأموال، والسخرة التي تفرض على الرعايا بغير حق حيث يقول:« فإن الله إذا تأذن بخراب أمة».ويضيف:« من أشد المظالم وأعظمها في فساد العمران، تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق» [24]. وانقراضها حملها على المذمومات وانتحال الرذائل، فينصرفون عن مؤازرة الملك ودعم سلطان الدولة إلى الانغماس في النعيم الطارئ، فيضعفوا وتذهب ريحهم ».ويقول كذلك:« الظلم مؤذن بخراب العمران فجباية الأموال بغير حق ظلمة...وكل هذا يسرع في هرم الدولة وزوالها.

ج –المفهوم الغربي:

يرتبط مفهوم الدولة عند الغرب في الأصل بالفكر اليوناني القديم، الذي كان يدور حول فكرة المدينة والسياسة، والدور الذي كانت تلعبه هذه الأخيرة في السياسة كدور الدول الحديثة حاليا، وهو جل ما نجده متداول لدى فلاسفتهم آنذاك مثل المدينة الإلهية عند هوميروس، والمدينة الفاضلة عند أفلاطون، والمدينة العالمية التي مركزها أثينا عند أرسطو، وفي الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة نجد أن أغلب التعاريف للدولة لا تختلف عمَّا أبدعه اليونانيون، فالدولة عند لالاند(lalande) هي وحدة سياسية منظمة مستقلة تناظر الدول الأخرى التي لها معها علاقات، أمَّا المدينة عند بول فولكي(poul foulaué) فتعني أولاً الشرط الذي يحدد المواطنة ،وبالتالي فهي مجموع المواطنين الذين يشكلون وحدة سياسية داخل رقعة جغرافية [25]. وتميل النظريات الغربية إلى اعتبار أن الدولة حاجة إنسانية أصيلة لا يمكن الاستغناء عنها[26].

ومن أهم النظريات الغربية التي تحدثت عن نشأة الدولة نذكر:

أ–النظرية الدينية الثيوقراطية(الحق الإلهي المباشر): والتي مفادها أن الله هو الذي خلق الدولة وهو من يختار الملوك مباشرةً لحكم الشعوب وعلى الأفراد طاعتهم وعدم سؤالهم عن أعمالهم؛ إنما الله هو الذي يحاسبهم عليها، وقد سادت هذه النظرية قديماً خاصةً في فرنسا وإنجلترا حتى القرن السابع عشر ميلادي، وكان من نتائجها أن استبد الملوك بشعوبهم، لكنه ونتيجة تطور الأفكار

(24) عويس عبد الحليم، **التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون**، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008، د(ط). ص60.

(25) عبد القادر بوعرفة، المرجع السابق، ص ص41.38.

(26) صدر الدين القبانجي، المرجع السابق، ص74.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

و الثقافات تطورت هذه النظرية نحو فكرة الحق الإلهي غير المباشر، التي مفادها أن الله لا يختار الحكام مباشرة؛ بل الشعب يقوم بذلك، والعناية الإلهية هي التي توجههم لهذا الاختيار[27].

ب- نظرية التطور العائلي: التي تعود إلى أصول فلسفية يونانية وقد قال بها أرسطو، وهي تعرف الدولة على أنها عبارة عن نظام طبيعي وكائن عضوي خاضع للتطور من الشكل البسيط إلى الشكل المركب[28].

ج- نظرية العقد الاجتماعي:يقول أصحابها ومنهم هوبز، جون لوك، وروسو إن الأصل في وجود الدولة يعود إلى الإرادة المشتركة لأفراد الجماعة، واتفاقهم على انشاء مجتمع سياسي يخضع لسلطة عليا، فاتفقوا على اختيار أحدهم لتولي أمورهم ورعاية مصالحهم وحمايتهم، فالدولة على هذا الأساس قد وجدت نتيجة لعقد أبرمته الجماعة.

وأما الاختلاف بين المفكرين الثلاثة فهو حول مشاركة الحاكم في العقد، إذ يرى هوبز أن الجماعة يتنازلون للحاكم عن كل حقوقهم وهو لا يكون طرفاً في العقد وسلطته مطلقة عليهم وعليهم طاعته، بينما يرى لوك عكس ذلك ومتى أخل بالعقد يعزل. وقد انتشرت هذه النظرية في أوروبا عقب نجاح الثورة الفرنسية وما أصدرته من دساتير وتشريعات[29].

د- النظرية الماركسية:نسبةً لكارل ماركس وهي تفسر نشأة الدولة بمنظور اجتماعي واقتصادي فتعتبر أن الدولة جاءت كحتمية لتطور المجتمع كي تكون حكماً بين الطبقات المتصارعة، ومن أجل المحافظة على النظام العام[30].

2- تاريخية الدولة في الإسلام:

أ) – دولة النبي صلى الله عليه وسلم:

إن لظهور الدولة في الإسلام علاقة وطيدة بدولة المدينة التي أسسها الرسول(ﷺ)، والتي تمثل محطة هامة في تحول المجتمع العربي من نظام القبيلة إلى نظام المدينة والجماعة، فقد كانت الهجرة النبوية في اليوم12 من ربيع الأول الموافق لـــ24 أيلول622م من السنة الثالثة عشر للبعثة من مكة إلى المدينة، هي النواة الأولى لمنح المسلمين دولةٌ خاصةٌ بهم على غرار دولتي الروم

(27) عمر شريف، المرجع السابق، ص24.

(28) الدراجي بوزياني، **العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء الفكر الخلدوني**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، سنة2003، ص52.

(29) عمر شريف، المرجع السابق، ص25.

(30) بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص73.72.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والفرس آنذاك، وهي التي ستتولى قيادة حركة الإسلام والفتوح في العالم.

وقد بدأ الرسول(ﷺ) بإنشاء الدولة الإسلامية في المدينة على أسس راسخة وتهيئة كافة الشروط لها، فكان بناء المسجد كمركز للعبادة والقيادة الخطوة الأولى لها، ثم أعقبه إصدار الصحيفة لتنظيم العلاقات السياسية داخل المدينة والتخطيط لمهام القيادة، ثم عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لتنظيم العلاقات الاجتماعية وحل مشاكل الهجرة من مكة، ثم تشكيل جيش إسلامي يتولى حماية الدولة الناشئة وينشر الإسلام، فمكنت هذه الإجراءات الأربعة الدولة الجديدة من مواصلة طريقها الصحيح، ووضع القرآن الكريم ورسوله الأمين(ﷺ) بتلك الإجراءات وغيرها القواعد الأولى لدولة الإسلام، وأخذت التشريعات المنبثقة عن هذين المصدرين تنمو وتتسع يوماً بعد يوم.

وقد تميزت هذه الدولة الجديدة في التاريخ بإقرارها لمبدأين لا وجود لهما إلا في دولة مدنية هما حرية الأديان؛ بل وتتعهد برعايتها، ومبدأ المساواة والعدل بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وقد قامت دولة الرسول(ﷺ) في أساسها على فكرة حكم الله لجماعة المؤمنين بواسطة نبيه الكريم والأخذ بنظام الشورى كمبدأ عام.

فدولة الرسول(ﷺ) لم تكن إلا ديناً ممارساً وقرآناً يمشي على الأرض، وجدت قوتها في شخصية النبي عليه الصلاة والسلام ثم الخلفاء الراشدين من بعده، وعلى هذا الأساس قامت الحكومات الإسلامية من بعد رغم تعطيل بعض الأسس الأولى كمبدأ الشورى في العهد الأموي واتخاذ الألقاب الملكية(31)، إلى أن جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أعاد بناء الدولة على القواعد الأولى من عقائد وأخلاق وعبادات ونظم ودواوين...الخ(32).وقد وصفها برهان غليون بقوله:« إن دولة المسلمين بما تشمل الدولة من مبادئ التنظيم المدني وطرائقه ووسائله، وتكوين السلطة وتنظيمها وتوجيهها، أي الدولة كإطار للتنظيم والانتظام الأخلاقي العام لم تكن شيئاً آخر في الإسلام سوى الدين نفسه»(33).

---

(31)أقام الأمويون نظاماً ملكياً هو الأول من نوعه في الإسلام، وسارت الحكومات التي جاءت من بعدهم على هذا المنهج، وساير الفكر الإسلامي هذا الوضع وبنا نظرية الدولة الإسلامية على أساسه.أنظر: **السيف والسياسة في الإسلام (صراع بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي)**، صالح الورداني، دار الرأي ، بيروت، ط1، سنة1999. ص176.

(32) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص118.

(33) غليون برهان، **نقد السياسة: الدولة والدين**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط7، سنة2007. ص56./ عبد القادر بوعرفة، المرجع السابق، ص106.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ب)– دولة الخلفاء:

عندما مستحيلاً أن يتفق الناس جميعاً على إقامة العدل وتنفيذ الأحكام الشرعية من تلقاء أنفسهم وبدون سلطة حاكمة، كان لابد من وجود نظام أو سلطة أي–دولة–تقوم بذلك، وهذه السلطة هي الخلافة أو الإمامة الشرعية التي تكون مهمتها تنفيذ الأحكام الشرعية وحماية الإسلام وأهله وأوطانه، والقيام بكل الواجبات التي أمر بها الشرع، ولما كان مذهب أغلبية الأمة الإسلامية هو إقامة الإمامة أو الخلافة الشرعية الصحيحة التي تعد فرض أساسي من فروض الدين، والذي يتوقف عليه تنفيذ سائر الفروض، بادر الصحابة رضوان الله عليهم إلى وجوب اختيار من يخلف رسول الله (ﷺ) عند وفاته مباشرةً عندما دعاه الرفيق الأعلى إليه.

فرغم هول الواقعة التي هزت كبار الصحابة أنفسهم اجتمع المسلمون أنصاراً ومهاجرين في سقيفة بني ساعده يمارسون لأول مرة في تاريخهم حوراً يقوم على الإقناع، ويتشاورون لاختيار خليفة رسول الله علية الصلاة والسلام في قيادة الأمة وسياسة دولتها الناشئة دون سل سيف أو إراقة قطرة دم[34]. ولهذا كان اجتماعهم في السقيفة[35] تاريخياً له الأثر البالغ في تاريخ الأمة الإسلامية، ففيه تقرر الإجماع على وجوب إقامة الخلافة، وإقرار مبدأ الانتخاب في اختيار الخليفة من الأمة من أهل الثقة والدين، مثل الصحابة الذين اجتمعوا ذلك اليوم وأجمعوا على اختيار أبي بكرالصديق(رضي الله عنه)خليفةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فأوجدوا بذلك نظام الخلافة بالإجماع، وكانت البداية بخلافة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)بين سنة(13.11هـــ/632. 634م). ثم تك، ثم إجماعهم على عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) بين (23.13هـــ/644.634م، ثم عثمان بن عفان(رضي الله عنه)بين سنة(35.23هـــ/656.644م)، وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه بين سنة(40.35هـــ/661.656م).

(34) عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص50.

(35) بيعة السقيفة: لم يوص الرسول(ﷺ) بزعامة المسلمين لأحد من أصحابه، بل ترك مسألة الخلافة شورى بينهم، فلما تطاير نعيه اجتمعت الأنصار في سقيفة بن ساعده في المدينة وأرادوا أن يبايعوا بالخلافة سعد بن عبادة سيد الخزرج، فحضر إليهم نفر من المهاجرين وكاد يقوم بينهما خلافٌ شديد لولا أن قام بينهم أبو بكر خطيب وأدلى لهم بالحجة على أن هذا الأمر لقريش، وحذر الأنصار أن وليته الأوس تنفس عليها الخزرج، وإن وليته الخزرج فتنفس عليها الأوس، فلما ذكر الأنصار ما كان بينهم في الجاهلية وأن الحال توشك أن تعود إلى مثل ما كانوا عليه من عداوة، اطمأنوا إلى رأي أبي بكر الذي اقترح عليهم مبايعة عمر أو أبي عبيدة بن الجراح، فقام عمر إلى بكر وبايعه بالخلافة وقال له (ألم يأمر النبي بأن تصل أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفة، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا).أنظر: **تاريخ الإسلام السياسي الديني والثقافي والاجتماعي**، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط14، سنة1996، ج1، ص168.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والثابت هو أن الخلافة التاريخية قد مرت بأدوار، فأمَّا بالنسبة للخلافة الراشدة فإن أهل السنة جميعاً وهم الغالبية من المسلمين يرون أن هذه الخلافة هي الصحيحة الشرعية وينظرون إليها على أنها المثال أو النموذج الذي يستنبط منه الأسس والمبادئ التي يجب أن يبنى عليها نظام الحكم الإسلامي؛ ذلك لأن هذا هو عهد الصحابة الذين عاصروا الرسول(ﷺ)وصاحبوه وشاركوه في بناء هذا النظام الذي أقامه.

ومما لا شك فيه هو أن النبي عليه الصلاة والسلام أقام نظاماً(دولة)، وظَّلَّ هذا النظام منفذاً طوال حياته، ولما كان النبي(ﷺ)مبعوثاً للأمة كافةً، والإسلام رسالةً خالدةً أبد الدهر، وهو الذي عناه أبو بكر(رضي الله عنه) بقوله:« من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ولابد لهذا الدين من قائم يقوم به». ولما كان الأمر كذلك فإنه كان لابد من بقاء واستمرار النظام الذي أقامه رسول الله(ﷺ) والصحابة، فأجمع الصحابة بذلك على وجوب استمرار نظام الحكم الإسلامي أو الدولة الإسلامية[36].

ج)- دولة الملك والسلطان:

بعد وفاة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سنة(40هـــ/656م) بويع لابنه الحسين بالخلافة، فسعى إلى إيجاد حل لسفك الدماء وحفظ وحدة الأمة حين تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان سنة(41هـــ/657م) وبها انتهى عهد الدولة الراشدية، وبدأ عهد الدولة الأموية الذي استمر إلى سنة(132هـــ/748م)، والتي كان من أبرز مآخذها هو إشعال نار العصبية القبلية خصوصاً بين اليمنية والقيسية، والتخلي عن نظام الشورى في الحكم الذي وضعته القيادة الراشدة التزاماً بنصوص القرآن والسنة في هذا المجال[37]؛ بحيث عهد معاوية بن أبي سفيان بالخلافة من بعده لابنه يزيد، فسَّن بذلك سنَّة جديدة غيرت من طبيعة نظام الحكم في الإسلام؛ إذ حلت الوراثة محل الشورى، فكان لهذا العمل أثاره الدائمة في التاريخ الإسلامي.

وقد كانت مبرراته التي حملته على ذلك هو خوفه من حدوث الفتنة التي تؤدي إلى سفك الدماء كما حدث في الفتنة الكبرى، وصرَّح معاوية بذلك في قوله بأنه:« يكره أن يترك بعده أمة محمد(ﷺ) بعد مقتل الخليفة عثمان(رضي الله عنه)كالضأن لا راعي لها». وهذه أسباب يقبلها العقل، لكن الذي يؤخذ على معاوية أنه لم يختر للأمة أفضل وأكفأ من فيها ويعهد له بالأمر من

(36) الريس محمد ضياء الدين، **النظريات السياسية الإسلامية**، دار التراث، القاهرة. ط7. د(س)، ص ص175.171.

(37) عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص77.76.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بعده،كما فعل أبو بكر(ﷺ)، وأنه لم يستشر الناس ويأخذ موافقتهم، فهو بذلك رغب في أن يبقى الحكم في أسرته دون مراعاة شرط الكفاءة، وهذا هو النظام الوراثي أو الملك[38].

وبعدهم واصل الخلفاء العباسيون(132هـ/748م) اعتمادهم على نظام الحكم الوراثي نفسه الذي سنَّه الأمويون؛ لكنهم تميزوا عنهم بالتخفيف من حدة الصراعات العصبية القبلية وتحويلها إلى صراع آخر بين العرب والفرس تارةً، وبين العرب والأتراك تارةً أخرى، مما أدى إلى إضعاف الدولة العباسية وتدمير وحدتها قبل أن تسقط على يد التتار سنة(656هـ/1258م).

ورغم هذا التحول إلى أنه وللإنصاف يجب أن نذكر تغير الزمن والظروف، فالوقت الذي كان فيه المجتمع الإسلامي محصوراً في المدينة والعدد قليلاً،كان بإمكان اجتماع الناس وتشاورهم ،وقد انقضى ذلك الزمن وتفرق المسلمون في الأمصار، وكبرت الجماعات وتعددت المذاهب، وظهرت العصبيات، صار من الصعب تطبيق نظام الشورى أو المبايعة، وهو ما دفع إلى إتباع نظام الوراثة خوفاً من وقوع الفتن، وهو تفسير التحول الذي طرأ على نظام الحكم في الإسلام.

3- العصبية وتحول نظام الحكم في الإسلام:

فسر ابن خلدون هذا التحول بمقتضى نظرية العصبية فبين أن هذا التطور جاء نتيجةً لقوة العصبية وكان كنتيجة حتمية لها، فالقبيلة أو العشيرة والأسرة الأقوى تكون هي صاحبة العصبية الأقوى أو صاحبة الشوكة، فتؤدي هذه العصبية إلى الملك كأمر طبيعي وكقانون لازم من قوانين الاجتماع، ولابد أن يتبع الملك العصبية[39]، وقال في ذلك:« إن الخلافة حينئذ انقلبت إلى ملك»[40]؛ أي حين انتقلت من عصر الخلفاء الراشدين إلى العصر الأموي.

وقدم في بيان ذلك عدة أمثلة منها قوله:« ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه؛ وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحدٍ منهم صاحبه في اجتهادهم فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب علياً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل؛ إنما قصد الحق وأخطأ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق، ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه، فهو أمر

(38) ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص190.
(39) نفس المرجع، ص191.
(40) ابن خلدون، المصدر السابق، ص217.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة لوقع افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة»[41].وضرب مثالاً آخر على قوة العصبية بأن عمر بن عبد العزيز كان يتمنى أن يعهد بالخلافة إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر، ولكنه لم يستطع أن يفعل لأنه:«كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة»[42]. وآخر من عهد بني العباس فقال:« أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا،كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته، وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي، وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل، وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد»[43].

وقد حدد ابن خلدون مدى التغير الذي حدث فقرَّر أن الخلافة وإن تحولت إلى ملك فإن معاني الخلافة قد بقيت وإنما التغير كان فقط في الوازع، فبعد أن كان دينياً انقلب عصبيةً وسيفاً، وبعد أن كان الناس ينصرفون بوازع الدين والخلافة والشورى، وصار الحكم مستنداً إلى العصبية والقوة[44]. إذ يقول:« ثم صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان دينياً ثم انقلب عصبيةً وسيفاً »[45].

وبهذا يكون ابن خلدون قد لخص الأدوار التي مرت بها الخلافة فقال:« ثم التبست معانيها واختلطت، ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار»[46]. فالدور الأول الذي يشير إليه فهو عصر الخلفاء الراشدين وهو عصر الخلافة الخالصة والكاملة، والثاني هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسين ما عدا الفترات الأخيرة منه، وهو عصر الخلافة المختلطة بالملك، أما الدور الثالث الأخير فهو عصر الملك المحض الذي صار يقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية، وهذا عهد دول العجم بعد العرب في

(41) نفس المصدر، ص215.

(42) نفس المصدر، ص215.

(43) نفس المصدر، ص220.

(44) ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص194.

(45) ابن خلدون، المصدر السابق، ص218.217.

(46) نفس المصدر، ص218.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

العصور المتأخرة[47].

وعرفت الأندلس الحالة نفسها من الصراع العصبي حول الملك إبان حكم الدولة الأموية الذي دام أكثر من مائتين وأربعة وثمانين عاماً، فعاشت حالة من التفكك السياسي تعود بدايته إلى تأسيس الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل(138هــ/756م) الذي أخذ يعمل على إخماد الترعة القبلية وتحطيم الزعامات والريسات العربية، وحذا خلفاؤه من بعده حذوه في تتبع العصبية العربية والقضاء عليها، ومالوا إلى اصطناع الموالي من البربر والصقالبة مما أدى إلى اضطراب الأندلس واشتداد الصراع فيها حول الحكم بين السلطة المركزية الأموية والعرب والبربر والصقالبة.

وبالتالي أضحت الأندلس في أواخر القرن الخامس هجري عبارة عن ساحة للحرب والصراعات بين مجموعة من الملوك والدويلات التي عرفت بدول الطوائف، وقد ظَّلَّ تمزق الأندلس على هذا الحال طويلاً قارب الأربعة قرون إلى أن التأم شملها على يد المرابطين وقائدهم يوسف بن تاشفين عقب هزمه لجموع النصارى في معركة الزلاقة[48] إثر استنجاد ملك اشبيلية المعتمد بن عباد به[49].

وعليه نقول إن الأخطاء السياسية التي ارتكبها الأمويون في مجال الحكم بتخليهم عن نظام الشورى في تعيين الخليفة، واللجوء إلى نظام التوريث واقتداء العباسين بهم في ذلك، تسببت في ظهور العديد من الحركات المعارضة للحكم–الخلافة–، بين القيسية واليمنية، وبين أهل السنة والشيعة والخوارج. فكثرت الانقسامات في البلاد الإسلامية مشرقاً ومغرباً، مما ضرب وحدة الأمة، وساهم في ظهور الكثير من الكيانات السياسية هنا وهناك خاصةً في أواخر الحكم العباسي، مستندةً إمَّا إلى قوة عصبية، أو إلى دعوة دينية معينة كدول المماليك في مصر والشام، والدولة الفاطمية بالمغرب ومصر، والسلجوقية في المشرق، والمرابطين والموحدين بالمغرب والأندلس.

(47) ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص195.

(48) معركة الزلاقة: وقعت يوم(الجمعة 12رجب479هــ/23 أكتوبر1086م)، هزم فيها يوسف بن تاشفين القائد المرابطي جيش النصارى في الأندلس بقيادة ألفونس.أنظر: ابن الخطيب لسان الدين، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، د(س)، ص41.40.

(49) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس(عصر دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي)**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط2، سنة1969. ص ص16.11.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الثاني

العصبية بين المفهوم و الوظيفة و الأهمية

1- تعريف العصبية:

أ- العصبية لغةً:

العصبية في اللغة مشتقة من العصب، وهو الطي والشَّد، وعصَّب الشيء يعصبه عصباً طواه ولواه، وقيل شدَّه. والتعصب المحاماة والمدافعة، والعصبة الأقارب من جهة الأب، وعصبة الرجل أولياؤُه الذكور من ورثته سموا عصبةً، لأنهم عُصِّبوا بنسبه أي أحاطوا به، فالأب طرف، والإبن طرف، والعم جانب، والأخ جانب، والجمع: العصبات. والعرب تسمي قرابات الرجل أطرافه، ولما أحاطت به هذه القرابات وعُصِّبت بنسبه سمــوا عصبةً، وكل شيء استدار بشيء فقد عصب به.

والعصبة والعصابة: هم الجماعة من الناس والخيل و الطير لا واحد لها، والعصبة قوم الرجل الذين يتعصبون له وينصرونه، والعصبة جماعة متعاضدة(1). ومنه قوله تعالى:﴿ **إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ**...﴾(2). ومنه الحديث الشريف عن رسول الله(ﷺ): « اللَّهُّم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تعبد في الأرض»(3).

ب – العصبية اصطلاحاً:

تعددت تعاريف العصبية وتنوعت فقد جاء في تهذيب اللغة:« والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين»(4). وقد عرفها ابن خلدون بأنها:« النعرة(5)*على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم، أو تصيبهم هلكة...

(1)ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د(ط ٨ س).ج4، ص2965. مادة عصب/ الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1978.د(ط). ج1، ص104. مادة عصب./ مجموعة من الباحثين، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية للمعجمات وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية، ط4، سنة2004.ص604، مادة عصد.

(2) سورة يوسف، جزء من الآية:08.

(3) مسلم، **صحيح مسلم**، دار المغني، الرياض، ط1. سنة1998.جزء من حديث رقم1763، ص969. باب الإمداد بالملائكة في بدر.

(4) الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، تح: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ، د(ط ٨ س). ج2 ، ص49./ ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص2966.

(5) النعرة: بضم النون وفتح العين والعامة تقول النعرة بفتح النون على وزن التمرة، معناها الهيجان والصراخ في حرب أو شر، أو الصراخ لنجدة ذوي الأرحام في حالة تعرضهم لمكروه. أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ج6، ص4472./ الفيروز أبادي، المصدر السابق، ج2. ص144. مادة نعر.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

...ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعرة كل أحدٍ على أهل ولائه وحلفه»[6].كما استعمل بعض الفلاسفة المسلمين الأوائل أمثال الفرابي مصطلح العصبية بمعنى التغلب، وذلك عند حديثه عن أنواع المدن والتي منها مدن التغلب التي تكون الرئاسة والغلبة فيها للأكثر حسباً ونسباً و الأكثر أنصاراً[7]، وابن رشد عند حديثه عن المدن الجماعية التي يميزها حكم البيوتات والأسر الكبيرة القائمة على الحسب والنسب[8].

ومن التعريفات الحديثة فقد عرَّفها البعض كالجابري بأنها:« رابطة اجتماعية سيكولوجية (نفسية)شعورية ولا شعورية معاً تربط أفراد جماعةٍ ما، قائمة على القرابة ربطاً مستمراً، يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة وهي القوة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة»[9].وهناك من فسرها بأنها:"رابطة الدم" أو" التعاون الاجتماعي" أو"تضامن المحارب"و" التضامن القبلي"[10]. إلى غير ذلك من التعريفات للعصبية والتي تدور في مجملها حول معنيين رئيسيين هما:"الاجتماع" و"النصرة" فهما يمثلان صلب العصبية.

وعرفها البعض على أنها ذلك الشعور الداخلي الذي يشد أفراد القبيلة إلى بعضهم في حالات المواجهة، فيتحركون تلقائياً بمشاعر مشتركة، ويستجيبون لدعوة أحدهم في حالة الاعتداء عليه، ويعتبرون ذلك اعتداءً على القبيلة كلها[11]. وهناك من قال إن العصبية هي إضافة ولاء لسلطة الجماعة ولخصوصيتها والانتصار لها ظالمةً أو مظلومة[12]. والبعض الآخر عرفها على أنها رابطة تجمع مجموعة من الناس، وتدفعهم إلى التكتل والتضامن والإحساس بالخطر المشترك، والتحرك في مواجهة الآخرين[13].

وذكر عبد الغني مغربي أن مصطلح العصبية القبلية هو من مصطلحات القرون الوسطى،

(6) ابن خلدون، المصدر السابق، ص142.

(7) الفرابي، أبو النصر محمد، **السياسة المدنية**، الملقب بمبادئ الموجودات، تح: فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط1، سنة 1964، ص91.90.

(8) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الأندلسي المالكي، **الضروري في السياسة**، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، تر: أحمد شحلان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، سنة1998. ص175.174.

(9) محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون العصبية والدولة**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ط5، سنة1992. ص167.

(10) عبد القادر جغلول، المرجع السابق، ص63.

(11) النبهان فاروق، **الفكر الخلدوني من خلال المقدمة**، مؤسسة الرسالة ، بيروت . ط1، سنة1998. ص156.

(12) قباني عبد العزيز، **العصبية بنية المجتمع العربي**، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط1، سنة1997، ص50.

(13) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص35.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وهو يعادل ربما اليوم في المجتمعات أو الشعوب الحديثة مصطلح-الأمة-كالأمة الإسلامية، رغم أن هناك الكثير من الباحثين الذين حاولوا إعطاء تعار يف قريبة له منها مثلاً:"القوة الحيوية للشعب"و"حيوية الدولة". وبعضهم ترجمها على أنها "التضامن الاجتماعي" أو" التلاحم الاجتماعي" و"الروح الشعبية" و" روح الجماعة"(14).

والعصبية بشكل عام حسب التعريفات العديدة التي جمعها ايف لاكوست في كتابة- تاريخ العلامة ابن خلدون- عن مجموعة من الباحثين العرب والأجانب أمثال الخميري، عبد الله عنان، توينبي(toynbee)، روزنتال(rosnthal) وغيرهم، فهي تعني: "القوة الحيوية للشعب"و"القوة المحركة لضرورة الدولة"و"العاطفة الوطنية"و "روابط الدم" و"الإحساس الجماعي"، والتعصب القبلي، ويرى فيها البعض شكلاً من أشكال تضامن سكان البلد الواحد من غير العرب ضد سيطرة العرب، وهي أيضاً طبيعة وجود البدو وطريقة الحياة البدوية...وغيرها من التفسيرات والتعريفات للعصبية (15).

وقد تطور مفهوم العصبية ليصبح تعبيراً عن ارتباط المصالح وتبادل النفع، والحماية في الصراع بين القبائل، فانظم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل الكثير، وتحولت فكرة النسب إلى نوع من التعبير التي تعطي للحلف القبلي تبريره النظري ومعقوليته في مجتمع تسوده القيم القرابية النابعة أصلاً من منطلق النسب السلالي(16).

2- أنواع العصبيات:

سبق في تعريف العصبية على أنها تعصب ذوي القربى والتحالف والتضامن بين أبناء القبيلة، غير أن معناها قد توسع فيه فيما بعد فأطلقت على أنواع أخرى من التعصبات بحسب الغرض الذي نشأت لأجله، وإن كان من الصعوبة البالغة حصر أنواعها والتي منها(17).

أ- العصبية الدينية:

والمقصود بها الرابطة الدينية التي تجمع بين أفراد الأمة وتؤلف بين قلوبهم وتوحد وجهتهم إلى الحق، وهي من أقوى الروابط الإنسانية إطلاقاً، وتتغلب على باقي الروابط(النسب، الدم،

(14) - abdelghani Maghreb, ibid . p 158.159.
(15) -Yves la coste, ibid. p p 134.136.
(16) الأنصاري محمد جابر، **التأزم السياسي عند العرب وموقف الإسلام**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان.ط1،سنة1995، ص80.
(17) الجريسي خالد بن عبد الرحمن، **العصبية القبلية من المنظور الإسلامي**، د(ط٨ س)، ص33.32.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

العرق، القومية) وغيرها[18].

يقول ابن خلدون:« وجمع القلوب وتأليفها؛ إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه...وسِّره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها، فذهب التنافس وقلَّ الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة»[19].

فالدين لا يقضي على العصبية بالمرة؛ بل ينقلها من إطار ضيق إلى إطار أوسع، من التعصب للنسب الخاص إلى التعصب للنسب العام، والعصبية التي كانت مفرقة قد جعل الدين منها عصبية جامعة، والحروب والغزوات التي كانت تنهك باستمرار كيان هذا المجتمع العصبي المتنقل، أصبحت بتأثير الدعوة الدينية فتحاً للبلدان واستتباعاً للأمم، ثم إن الصراع العصبي الذي كان من قبل بين العصبيات الخاصة، أصبح بفضل الدين صراعاً هادفاً تقوده عصبية عامة ضد الأمم والشعوب، والذي استطاع أن يحول العرب البدو الحفاة الرعاة الموغلين في الفيافي والقفار إلى بناة حضارة ومشيدي عمران، ومؤسسي ممالك ودول[20].

وفي رأي ابن خلدون أن العصبية إذا اقترنت بالدين لا يقف أمامها شيء؛ فإنها تذهب بالشوائب والسلبيات التي في أهل العصبية القبلية، كما يرى أنه لا بد للعصبية الدينية من عصبية أخرى تعززها، ومؤدى هذه النظرة في الواقع أن الدين لا يستغني عن جماعة أو تنظيم يطالب بتحقيقه ويدافع عنه، فإن وجود جماعة أو جهة تحمل هذه الفكرة الدينية وتتبناها يحقق مصلحتين وهما وجود العصبية التي تتم بها المدافعة والحسم المادي(الجماعة)، ووجود الفكرة (الدين) التي تستجلب العصبية وتهذبها وتنقيها من الشوائب التي يفرزها التعصب؛ إذ أن الدين ينقي العصبية من سلبياتها، ويستثمر إيجابياتها[21].

ب- **العصبية القبلية(رابطة النسب):**

يمثل النسب الإطار الحقيقي للقبيلة عند ابن خلدون، فهو الذي يمثل أشكال الانتماء والتحالف والولاء بين أفراد القبيلة، وهو الذي يرسم علاقات القرابة بين أعضائها ويؤدي إلى

(18) هشام بن حسن العطار، **أثر الإسلام في نظرة ابن خلدون للإنسان والأديان**، رسالة ماجستير، جامعة محمد بن سعود، الرياض، السعودية، (1421هـ/2001م). ص530.

(19) ابن خلدون، المصدر السابق، ص142.

(20) الجابري، المرجع السابق، ص188.

(21) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص36.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

رسم الفوارق بين المجموعات القبلية التي تتسبب في عمليات التنافس والصراع[22].

ويرى ابن خلدون أن منشأ عصبية النسب ومصدرها صلة الرحم فهي مأخوذة منها ومنبثقة عنها، وهي طبيعةٌ فطرية في البشر منذ سيدنا آدم(عليه السلام) إلى يومنا، تزيد وتنقص بحسب اتصال النسب ووضوحه، وقد بين ذلك في أحد فصول المقدمة بقوله:« إن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه». ويقول أيضاً:« وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلاَّ في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة» .

ويقول كذلك:« إن نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وأقربائهم موجودة في الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم»[23]. وهذا هو المعنى الحقيقي على حسب اعتقاده لعصبية النسب. لأن قرب النسب يزيد من قوة هذه اللُّحمة بين الأقارب وذوي الأرحام؛ إذ يقول ابن خلدون:« فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة، فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها، وإذا بعد النسب بعض الشيء، فربما تنوسي بعضاً ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه، فراراً من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه»[24].

لكن هذه الرابطة بين أعضاء المجموعة القبلية لم تتحد بالقرابة الدموية فقط، بل كثيراً ما حددتها الرابطة السيكولوجية كما سمَّاها الجابري تفسيرا لرأي ابن خلدون[25].

ج- عصبية الحلف والولاء والاصطناع:

تأتي الثانية بعد عصبية النسب من حيث القوة والشدة، فإذا اصطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا بهم...ضرب معهم أولئك الموالي المصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتهم كأنهم عصبتهم، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال(صلى الله عليه وسلم):«مولى القوم منهم»[26].وسواءٌ كان مولى رقٍ أم مولى اصطناع

(22) بوطالب محمد نجيب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، سنة2002. ص56.

(23) «...» ابن خلدون، المصدر السابق، ص141.

(24) نفس المصدر، ص142.

(25) محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق ، ص83.

(26) البخاري، **صحيح البخاري**، تح:عبد القادر شيبة الحمد، الرياض، ج3، ط1. سنة2008، ص546، ح رقم6522.باب مولى القوم من أنفسهم.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وحلف[27]؛ فإن عملية المؤاخاة والإجارة في حالة قبولها من طرف القبيلة، وحق الانضمام والارتباط يظّل ارتباطاً سياسياً دون أن يكون لها معها صلة القرابة، فتقتصر حقوقها على التمتع بالحماية والرعاية القبلية[28]. فشرف هؤلاء الموالي وعصبيتهم مشتقة من شرف مواليهم، وليس من نسبهم الخاص.

فهو ملغى لا اعتبار له؛ إنما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه؛ إذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف، فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه ولكنهم ليسوا على درجة واحدة في عصبيتهم وانتسابهم لمواليهم، وإنما يكون ذلك بمقدار الالتحام والقدم، والقرب والبعد عنهم. فكلما كان الالتحام قوياً حصل المقصود وهو المدافعة والمغالبة التي لا تتم إلا بالنسب لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقربى والتخاذل في الأجانب والبعداء... والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تتزل مترلة ذلك، لأن أمر النسب وإن كان طبيعياً؛ فإنما هو وهمي، والمعنى الذي كان به الالتحام؛ إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة...وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر، وهذا مشاهد بين الناس، فالدول العظمى أو الكلية لا تقوم فقط على أساس عصبية النسب؛ بل تقوم كذلك على عصبية الولاء سواء كان ذلك الولاء بالرق أو بالولاء الحزبي[29].

د- العصبيات المؤقتة:

تحدث هذه العصبيات نتيجة عوامل سياسية أو اجتماعية واقتصادية معينة تجتمع فيما بينها، بحيث تجمع المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة بين أفرادها، فتقوى شوكتها وتطمح إلى الملك مستغلةً العوامل الطارئة فيتحقق لها، ولكن هذه العصبيات مهما بلغت من القوة فهي ضعيفة ولا تتوفر لها أسباب الاستمرار لأنها مرتبطة بالعوامل الطارئة، ويذكر ابن خلدون نوعين منها:

أ-حصول بعض العصبيات لأهل الأمصار عند نزول الهرم والضعف بالدول الكبيرة العامة، فيحتاج أهلها حينها إلى من يقوم بأمرهم ويحمي بلدهم، وفيها يقول ابن خلدون:« فيعصوصب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم، فيعطف على أكفائه ليقص من أعنتهم ويتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافدة، ويقلم الأظفار الخادشة، ويستبد بمصره أجمع»[30].

(27) ابن خلدون، المصدر السابق، ص148.

(28) نجيب بوطالب، المرجع السابق، ص88.

(29) هشام بن حسن العطار، المرجع السابق، ص540.539.

(30) ابن خلدون، المصدر السابق، ص382.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ب- قد تحدث العصبية لبعض الأوغاد والسفلة من الناس، فيحاولون السيطرة على الأمور والتغلب على أشراف تلك الأمصار، مستغلين ضعف الدولة حيث يقول ابن خلدون:« وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء، وإذاحصلت له العصبية الالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصابة»[31]. وهذه العصبية كسابقتها معرضة للزوال فور استعادة الدولة لقوتها أو قيام غيرها مكانها.

هـــ- عصبية الدخالة:

تحصل هذه العصبية في حال فرار أحد الأشخاص من قومه لذنب اقترفه أو لجناية أصابها إلى قوم غيرهم، ويقول ابن خلدون عن ذلك:« فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال، وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد، لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا جريان أحكامها وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم»[32].

ومما سبق نستنتج أن العصبية التي تكون في النسب إنما تكون عصبية خاصة، ضيقة، ومتفرقة بين العصائب، لكن بفضل الدين تصبح عصبية عامة، تجتمع كلمتها على الحق وحسن التعاون، ونشر الدين ، وفتح البلدان.

3- عوامل تعزيز العصبية:

هناك عاملان حاسمان في تعزيز العصبية ودعم روابطها وهما:

أ – وجود عصبية عامة:

فهذه العصبية تتعدى عصبية النسب إلى الالتحام الاجتماعي أو الروحي، فالدول العظيمة تحتاج عصبية عامة بينما الدول الصغرى لا تحتاج أكثر من عصبية النسب[33]. وعن هذا يقول الجابري:« إن قوة العصبية مستمدة أساساً من الالتحام الذي هو ثمرة النسب، فإذا أضيف إلى هذا الالتحام الاجتماعي التحام آخر روحي كانت العصبية من القوة بحيث لا يقف أمامها شيء»[34]. ولذلك كانت الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق مثلما قال ابن خلدون:« أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء، لأن

(31) نفس المصدر، ص383./ هشام بن حسن العطار، المرجع السابق، ص542.541.

(32) ابن خلدون، نفس المصدر، ص144.

(33) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص39.

(34) الجابري، المرجع السابق، ص190.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم، ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذُّل»[35].

ب – وقوع الدولة المراد إسقاطها في طور الهرم:

يرى أن ذلك ليس حتمياً أو نتيجة لا مفر منها، فالدولة القائمة تهرم إذا كانت لحمتها قائمة على عصبية نسب؛ إذ لا يمكنها أن تصمد طويلاً أمام مطالبة عصبيةً قويةً خاصةً عندما تكون هذه العصبية معززة بدعوة دينية، إذ تغير الأوضاع القائمة عنده لا يأتي بمجرد الدعوة لوضع أحسن، بل لابد من قوة مادية وهي العصبية التي تسندها[36].حيث يقول ابن خلدون: « وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر»[37].

ويبرر أيضاً ذلك قائلاً:« ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها، ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة»[38].

كما أن هرم الدولة وسقوطها إنما يكون بطريقتين مختلفتين الأولى عند ضعف العصبية تضعف الدولة وتصبح عرضة لهجمات أعدائها المتربصين بها، والثانية عندما تضعف العصبية وتنحل الدولة يقوم ولاة الأقاليم البعيدة عن المركز بأخذ زمام المبادرة والانفصال بأقاليمهم مشكلين دولاً جديدة[39].

4 – عوامل إضعاف العصبية:

فإذا وجدت أمة أو مجتمع فيه هذه اللحمة وله أهداف مشتركة، ووجد مع ذلك عنصر الدين، ترى ما الذي يلغي دور العصبية عند ابن خلدون؟. فهو يذكر لنا عاملين رئيسيين يشنان فعالية العصبية ويلغيان دورها وهما:

(35) ابن خلدون، المصدر السابق، ص170.

(36) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص39.

(37) ابن خلدون، المصدر السابق، ص171.

(38) نفس المصدر، ص170.

(39) - Nassif nassar، **la pensée réaliste d’ibnkhaldoun**، presses universitaires de, France ،1ere edition ،1967, paris .p 197

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أ – الخضوع والانقياد:[40].

والسبب في ذلك:« أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها؛ فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها؛ فما رئموا[41] للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن كون عاجزاً عن المطالبة والمقاومة »[42].

ويضيف إلى هذا السبب العامل التالي:« ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب، فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه، لأن في المغارم والضرائب ضيماً ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية ...وأن عصبيتهم حينئذٍ ضعيفة عن المدافعة والحماية»[43]. فإذا دخلت في هذه المنظومة منظومة فكرية تعمل على انتزاع ثورة المدافعة، وتؤدي إلى الخضوع والانقياد، فتنتهي المطالبة والمقاومة، وإن وجود الجماعة البشرية حسب ابن خلدون التي تجمع بينها رابطة ودين يفترض أن تكون قادرة على إحداث التحولات ،ولكن إذا دخل عامل الخضوع والانقياد أو أقحم في هذه المنظومة نفى عنها قدرتها على إحداث التغيير[44].

وهو عامل يقف بالعصبية في منتصف طريقها نحو تحقيق غايتها المنشودة، وكلما ازداد انغماس أفراد العصبة في النعيم ضعفت رابطتهم شيئًا فشيئًا حتى تضمحل، فالحضارة تفسد طباع البداوة إذ يتجه أصحاب الدولة إلى الإسراف في النعيم ويزهدون عن العمل، ويركنون إلى الدعة والسكون، ويخلدون إلى الراحة والشراب، فتزول هيبة السلطان من النفوس، وتكثر القلاقل والفتن، وتبدأ الدولة في السقوط[45].

ب– حصول الترف والنعيم:

يوحي حدوث هذا الأمر بضعف الدولة، وأول مستفيد من الترف والنعيم بطبيعة الحال هم الذين في السلطة أو الطبقة الحاكمة، وقد تزيد نفقاتهم في الترف وهو ما يصيب خزينة الدولة

---

(40) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص37.

(41) رئموا: بمعنى لزموا أي أنه كل من لزم شيئاً وألفه وأحبه فقد رئمه. ومنه رئمت الناقة ولدها، أي لزمته. أنظر: ابن منظور، تهذيب اللغة، مصدر سابق، ج3، ص1536. مادة رأم.

(42) ابن خلدون، المصدر السابق، ص153.

(43) نفس المصدر، ص154.

(44) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص38.

(45) فؤاد طحطح، المرجع السابق، ص88.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بالعجز، ويظهر الفساد عندما تكثر الاحتياجات الثانوية والعادات السيئة التي تصاحبها، فيلجأ الحاكم إلى فرض ضرائب إضافية على الرعية من أجل تلبية تلك الحاجيات المتعلقة بالترف والنعيم، وتظهر لديه رغبة عمياء في السيطرة المطلقة على شعبه، وهذا ما يؤثر على العلاقة التضامنية بينهما وتضعفها(46).

وفي هذا يقول ابن خلدون:« ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما توصلوا إليه من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالاً على الدولة... ...وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة»(47).فتفسد أخلاقهم وطباعهم، فينقلب التناصر إلى تنافر، والتعاضد إلى تخاذل، والكفاح المشترك من أجل المصالحة المشتركة إلى نزاع وصراع من أجل مكاسب شخصية ومصالح خاصة، فيظهر الظلم إلى جانب الترف، وهما مظهران لخراب العمران وسقوط الدولة(48). وقد نبهنا القرآن الكريم إلى دور الترف والنعيم في هلاك الأمم. يقول تعالى:﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا اَلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾(49).

فإذا أضيف إلى منظومة الخضوع والانقياد منظومة أخرى تؤدي إلى الترف والنعيم، والانغماس في الملذات والماديات والمنافع الدنيوية، انتهت قضية المدافعة والمغالبة، وفقدت العصبية معناها(50).

ومن عوامل إضعاف العصبية كذلك استعانة الحاكم بأشخاص غرباء أو الموالي في تسيير شؤون الدولة وفرض سيطرته على شعبه، والاعتماد على المرتزقة وشراء العبيد ومنح الأسبقية لهم في تسيير شؤون الدولة، وفي ممارسة أعمال التجارة مما يساهم قلة مداخيل الدولة، فيعمد الحاكم إلى مضاعفة الضرائب، وبالتالي إضعاف العصبية بينه وبين شعبه، ولما كانت العصبية هي أساس عملية التحضر والاستحواذ على السلطة كان ضعفها سبباً لذهاب السلطة، وعليه فذهاب العصبية إذن هو مرتبط بظلم وتسلط الحاكم على رعيته(51).

(46) -Nassif nassar, Ibid, p205.

(47) ابن خلدون، المصدر السابق، ص182.

(48) فؤاد طحطح، المرجع السابق، ص89.

(49) سورة الإسراء، الآية:16.

(50) جاسم سلطان، المرجع السابق ، ص38.

(51) –Yves la coste, - ibid. p .154.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

5- وظيفة العصبية وأهميتها:

تؤدي العصبية عدة أدوار ووظائف حسب رأي ابن خلدون هي كالأتي:

1- حدوث التعاضد والتناصر والتآزر بين أفراد العصبية الواحدة :

وتعد الوظيفة الرئيسية بحيث تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم من طرف العدو، وتكون الحماية والمدافعة بها والمطالبة والمغالبة وغيرها. وهذا لا يمكن حصوله إلا في حال الالتحام فيما بينهم والوقوف معاً ضد عدوهم المتربص بهم ويقول ابن خلدون في هذا:« ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم إذ نعرة كل واحد على نسبه وعصبيته أهم إذ نعرة كل واحد على نسبه وعصبيته أهم...وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم»(52).

ويدعم العصبية أمران هما: لاحترام الذي يشعر به أفراد القبيلة دائماً نحو العادة، وحاجتهم المستمرة إلى الهجوم والدفاع، فالأمر الأول يصور أعضاء القبيلة ملتفين حول حاملة السلاح لتدافع عن أفرادها ومتاعها وكرامتها، فهذان المظهران للعصبية يتفقان ويتضافران بشدة لأنه إذا اضمحلت العصبية داخل القبيلة ألفت نفسها فريسة للحروب الداخلية، ومهاجمة أعدائها لها من الخارج(53).

2- إقامة شعائر الدين وحماية الدعوة الإسلامية:

يعتبر ابن خلدون العصبية من الأمور الضرورية لإقامة شعائر الدين وتطبيق الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الأمور التي يحتاج فيها إلى حمل الناس على أمر ليس بلهين لما في طباعهم من الاستعصاء ، والحاجة إلى المدافعة والمغالبة ، وهذا لا يكون إلا بالعصبية وقوتها، فحتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله تعالى كانت بالعشائر والعصائب بالرغم من أنهم ليسوا بحاجة إلى العصبية وقوتها ودعمها لأنهم مؤيدون من الله بالكون كله، ولكنها السنن التي أجرى الله الأمور عليها.

ولهذا يرى ابن خلدون أن سبب اشتراط النسب القرشي في الخلافة هي العصبية التي تكون بها الحماية والمدافعة، وترفع الخلاف والفرقة، وينتظم بها حبل الألفة، وعليه يشترط في الحاكم أو من يتولى أمر المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبةً على من معها لعصرها،

(52) ابن خلدون، المصدر السابق، ص153.152.

(53) حسين طه، **فلسفة ابن خلدون الاجتماعية**، تر: عبد الله عنان، مطبعة الاعتماد، مصر. ط1، سنة1925، ص107.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ليستتبعوا من سواهم، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية[54].فأهمية العصبية للحاكم تعطيه القدرة على جمع الشمل وتوحيد الصف، والضرب على يد الخارجين على الدولة، وتوفير الحماية لمن تحت يده من الرعية، وحملهم على ما ينفعهم، وإقامة الدين وتعزيز كلمة الله عز وجل، في حين إذا فقدت العصبية عجز عن ذلك كله.

3- تعتبر الطريق الصحيح والسليم للوصول إلى الملك وتحقيق المجد:

فطالب الملك والساعي للمجد لابد له من العصبية القوية التي توصله إلى مبتغاه ومراده، حيث إن المجد له أصل يبنى عليه وتتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشير، فالملك غاية العصبية ومبتغاها، فإذا بلغت العصبية غايتها من القوة حصل للقبيلة الملك وظفرت به إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك، وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق[55].

وقد أكد ابن خلدون على دوام الملك بدوام العصبية كشوكة ونعرة دم، أي كقوة داعمة لسلطة السلطان متعاضدة معه مناصرة له، ويعتبر أن ذهاب الملك هو ذهاب للدولة، والدولة تذهب بذهاب العصبية[56].

(54) ابن خلدون، المصدر السابق، ص206./ هشام بن حسن العطار، المرجع السابق، ص ص536.534.

(55) ابن خلدون، نفس المصدر، ص152./ هشام بن حسن العطار ، نفس المرجع ، ص536.

(56) عبد العزيز قباني، المرجع السابق، ص52.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الثالث

الديـــــن و العصبيـــــة

1- أثر الدين في العصبية:

حسب رؤية ابن خلدون، إن الدين يزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية، ومرد ذلك قوله:« أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء، لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم وهم مستميتون عليه»(1). أما إذا بعد أهل العصبية عن الدين وغرقوا في ملذات الحياة وأسرفوا في ألوان الترف والنعيم؛ فإن قلوبهم ولاشك تتنافر، ويخذل بعضهم بعضا، فتفترق وجهتهم وتتشعب كلمتهم، فيفشلون وتذهب ريحهم فتضعف عصبيتهم.

ويورد ابن خلدون بعض الوقائع التاريخية التي تؤكد على أثر الدعوة الدينية في تحقيق الانتصارات عبر التاريخ الإسلامي أهمها في معركة القادسية واليرموك عندما انتصرت الجيوش الإسلامية القليلة العدد على جموع فارس الكثيرة. فيقول:« وهذا كما وقع للعرب في صدر الإسلام في الفتوحات، فكانت جيوش المسلمين بالقاديسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفاً في كل معسكر، وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً بالقاديسية، وجموع هرقل على ما قاله الواقدي(2) أربعة مائة ألف، فلم يقف للعرب أحد من الجانبين، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم»(3).

ويبرز هذا المعنى أيضاً من خلال انتصار دولة لمتونة ودولة الموحدين في المغرب، مع أن القبائل المغربية التي قاومتهم كانت أكثر عدد وأقوى عصبية منهما؛ لأن عصبية الدين قد أضيفت إلى العصبية القبلية فجعلت منها قوة مضاعفة قادرة على تحقيق النصر(4). إذ يقول: « وأعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة(5) ودولة الموحدين، فقد كان بالمغرب من القبائل كثير من يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف(6)عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص170./ هشام بن حسن العطار، المرجع السابق، ص545.544.

(4) فاروق النبهان، المرجع السابق، ص172.

(2) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المتوفى(207هـــ) من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن حفاظ الحديث لكنه متهم في روايته، وهو صاحب كتاب المغازي.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ص170.

(5) هي دولة المرابطين التي أسسها أبو بكر بن عمر اللمتوني برفقة الشيخ عبد الله بن ياسين ، والتي هي محل دراستنا.

(6) شف يشف شفا بمعنى: زاد .أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص2291./ الفيروز أبادي، المصدر السابق، ج3، ص154. مادة الشف.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بالاستبصار والاستماتة»[7].

فقد استطاع الدين أن يؤلف بين العرب ويجمع كلمتهم على كلمة رجل واحد بعد أن طهر قلوبهم من الغل والحسد والبغضاء، وهذا الأمر موجود في سائر الأمم ما إن تمسكت بدينها ورفعت راية القتال في سبيله، وهو ما يسميه ابن خلدون بـــ:(الاجتماع الديني). ففي حال اتحاد الدين مع العصبية؛ فإن قوة العصبية تتضاعف أضعافاً فيصعب الوقوف أمامها، فتكتسح البلاد حاملةً نور الهداية داعية إلى الله.

أما إذا بعدت العصبية عن الدين فإن أهل العصبية يوكلون على أنفسهم وعصبيتهم ومدى قوتهم وتغلبهم على غيرهم من العصبيات، يقول ابن خلدون:« وأعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها، والذين غلبهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة»[8]. فبفضل الدين تصبح العصبية أكثر قوة وجمعاً، وأكثر توحيداً للكلمة والصفوف، فيتخلى أصحابها عن الصراعات فيما بينهم التي أنهكتهم، وتتسبب في ضعف شوكتهم.

إذن فالدين قد غيَّر من حياة الأمم التي لم يكن لها ذكر بين الشعوب؛ حيث جعل الإسلام مثلاً من البدو الذين لأخلاق لهم أئمة للهدى يدعون إلى التوحيد وعبادة الله الواحد، وجعلهم أسياداً للعالم كله، ومشاعل علمٍ ونور وحضارة، فقد ألف بين قلوبهم وجمع بينهم، ووحد كلمتهم بعد أن كانوا شرذمة متفرقين ومتقاتلين، فاستطاعوا أن يسقطوا أملاك فارس والروم والترك والإفرنجة والبربر في أيديهم. ويرى ابن خلدون أن الدول الكلية العظيمة الملك أصلها الدين؛ إما بنبوة أو دعوة حق، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدول العامة تقوم على غاية الملك، والملك يحصل بالتغلب، والتغلب يكون بالعصبية واتفاق أهل الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة الله وتوفيقه في إقامة دينه تعالى والذي يقول تعالى:﴿...**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي اَلَارْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**...﴾[9]. [10] .

فمفعول الدعوة الدينية في الناس إذن مزدوج، فمن جهة يعمل الدين على جمع القلوب وتأليفها، ومتى تمَّ ذلك ذهب التنافس وقلَّ الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد وتحققت الوحدة

(7) ابن خلدون، المصدر السابق، ص170.

(8) هشام بن حسن العطار، المرجع السابق، ص546.

(9) سورة الأنفال، جزء من الآية:63.

(10) ابن خلدون، المصدر السابق، ص170.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

التي يسعى الدين دوماً لتحقيقها، من جهة ثانية فإن الدين يصرف طبيعتهم العدوانية التي تتجسد في حياة الغزو والنهب إلى الجهاد من أجل نشر الدين وتعاليمه، وإقامة مجتمع أفضل وهكذا: « فإذا قام فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على أمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم ويؤلف كلمتهم في إظهار الحق، تمَّ اجتماعهم، وحصل لهم التغلب والملك»[(11)].

كما أن للدين أثر كبير في قيام وقوة الدول لكونه عامل توحيد وتجميع، فالدين يزيد الدولة والمجتمع قوةً وتماسكاً، ويزيد من عملية الانقياد وتأليف القلوب بفضل الله، فتكون بذلك أقوى العصبيات التي لا يفرقها الجنس واللون والعرق، والتي لا تقدر أقوى العصبيات أن تقف في طريقها حتى لو كانت تفوقها في العدد والعدة.

ويذكر لنا ابن خلدون أمثلة كثيرة عن ذلك من التاريخ الإسلامي نأخذ منها واحداً فقط والذي يتعلق بالقائد صلاح الدين الأيوبي الذي تمكن من توحيد راية المسلمين في جهاده ضد الصليبين، وتحرير المسجد الأقصى والمسلمين ببلاد الشام منهم، بعدما نهضت معه جموع كبيرة من المسلمين رغم أنه كان قليل العصبية لكن دعوته للجهاد زادت من عدد عصبيته، وهذا حصل بفضل الدين الذي هو أقوى من النسب وأشد بأساً منه[(12)].

2– التكامل بين الدعوة الدينية والعصبية القبلية:

من المناسب بدءاً أن نشير إلى التفاعل الوثيق الموجود بين العصبية والدين، فالدعوة الدينية تضيف إلى تحالف القوى الفردية أو القبلية الذي يمكن أن يكون عابراً، وهو التغلب على الجماعات المجاورة أو الأمصار الجديدة، تضيف ائتلاف القلوب والعقول الذي تتخطى غايته المصالح المباشرة، فتعبئة الجماعة في خدمة قضية ما هو أمر مختلف عما تتطلبه الكرامة من النعرة على الأخ في صعوبة، فالذين ينجدونه اليوم يمكن أن يبيعونه غداً بأبخس الأثمان؛ لكن الدين يضيف إلى رسوخ العصبية الفطري ديمومة التجاذب وقوة الروابط في أفراد القبيلة[(13)]، وهذا ما قد قال به ابن خلدون:« إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها»[(14)].

---

(11) الجابري، المرجع السابق، ص188.

(12) هشام بن حسن العطار، المرجع السابق، ص549.548.

(13) لابيكا جورج، **السياسة والدين عند ابن خلدون**، تع: موسى وهبي وآخرون، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، سنة1980. ص105.

(14) ابن خلدون، المصدر السابق، ص169.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فابن خلدون يرى أن الدعوة الدينية تعد عاملاً مهماً للملك والسلطان، فهي تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها، ويرجع السبب في ذلك كما سبق ذكره إلى:« أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء...وأهل الدولة التي هم طالبوها، وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم، وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم، ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل».

وقدم لنا أمثلة كثيرة مثلما رأينا سابقاً عن انتصار جيوش المسلمين القليلة العدد في القادسية واليرموك على جموع فارس الكثيرة العدد. وانتصار الموحدين في بلاد المغرب على القبائل البربرية الكثيرة العدد والعصبية لأن:« الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شيء».

ويضيف:« واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها من الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولوكانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة لما كانت زناتة أبدى من المصامدة وأشد توحشاً، وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي فلبسوا صبغتها، وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتة أولاً واستتبعوهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم، فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر، وانتزعوه منهم».﴿**وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**﴾[15]. [16].

وبالتالي فإن العامل الديني ليس ضروريا فقط لدفع الناس إلى التغلب والغزو؛ لكنه يؤيدهم فيما يخوضونه من الحروب ويساعدهم بالسير بهذه المعارك إلى أحسن غاية. فالعلاقة إذن بين العصبية والدين عند ابن خلدون هي علاقة تآزر وتعاضد وتكامل، فالدين يزيد من قوة العصبية بالتخفيف من مظاهر التعصب كالأنانية والاعتداد بالأنساب وروح القطيع، وذلك بتوجيه أهل العصبية كلهم إلى الله أي إلى العمل الصالح.﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[17].

(15) سورة يوسف، جزء من الآية:21.

(16) «...» ابن خلدون، المصدر السابق، ص170.169.

(17) سورة الحجرات، جزء من الآية:13.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والعصبية من جهتها تمنح الدعوة الدينية قوة و فاعلية، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكفي فيهما القلب واللسان، بل لابد في ذلك من حمل الناس بالقهر والسلطان، وهذا لا يتأتى هو الآخر إلا بالعصبية[18].

ويرى أن تغيير الأوضاع الفاسدة لا يتأتى بمجرد الدعوة إلى أوضاع أحسن؛ بل لابد من قوة مادية تنصر هذه الدعوة، والقوة المطلوبة هنا هي العصبية، ولذلك نجده يندد بقوة بدعاة الإصلاح الذين بسبب جهلهم بأهمية العصبية على العموم، يكلفون أنفسهم وأتباعهم من العامة ما فوق طاقتهم ولا يحققون شيئًا سوى إثارة الفوضى ونشر الاضطراب ويقول في حق هؤلاء: «والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء إما المداواة إن كانوا من الجنون، وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً، وإما إذاعة السخرية منهم وعدِّهم من الصقاعين أو الكذابين»[19].

ويعتبر ابن خلدون أن الدعوة الدينية وحدها من غير وجود عصبية تعززها لا يمكن لها أن تتم وتستمر طويلاً، ويعلل ذلك بقوله:« إن كل أمر تحمل عليه الكافة، فلا بد له من العصبية وفي الحديث الشريف قوله(ﷺ):(ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه). ويضيف:« وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية. وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية الذي ثار بالأندلس ضد المرابطين«... فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين، ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدعونه عن شأنه، فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم، ودخل في دعوتهم... وكان أول داعية لهم بالأندلس، وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين»[20].

ويضيف أيضاً:« من هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء؛ فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاءً في الثواب عليه من الله، فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء، ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل مأزورين غير مأجورين؛ لأن الله سبحانه لم يكتب عليهم ذلك وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه وقد جاء في الحديث:(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع

(18) الجابري، المرجع السابق، ص189.

(19) ابن خلدون، المصدر السابق، ص170./ الجابري، المرجع السابق، ص172.

(20) «...» ابن خلدون، نفس المصدر، ص171.170.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)[21]».

ويردف أيضاً:« وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم، فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقاً قصر به الانفراد عن العصبية، فطاح في هوة الهلاك، وأما إن كان من الملبسين بذلك في طلب الرئاسة، فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك؛ لأن أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والنصيحة للمسلمين، ولا شك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة، وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق، ثم عهد لعلي بن موسى الرضي من آل الحسين، فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه، وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه، وبويع إبراهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد»[22].

فهكذا وبعد ثمانية قرون من عمر الحضارة الإسلامية، وجد ابن خلدون في دراسته للتاريخ أن العصبية القبلية ما زالت تمثل الركن الثاني مع الدعوة الدينية في حركة الإصلاح الجديدة وتأسيس الدول، وأنه إذا كانت العصبية القبلية بدون دعوة دينية تبقى محصورة في إطارها الضيق دون القدرة على قيادة حركات الإصلاح وتأسيس الدول، وإن الدعوة الدينية بالمقابل لا يمكنها تحقيق أهدافها في الإصلاح وإقامة الدولة إلا بقوة العصبية القبلية والمنعة الاجتماعية التي تتمتع بها القبائل القوية، كما كان دور قريش في قيادة حركة الفتوح والدولة الإسلامية[23].

3- العصبية الضارة والعصبية النافعة:

عند وقوفنا للوهلة الأولى على كلمة العصبية عند ابن خلدون قد يتبادر إلى أذهاننا أنه يعني العصبية الجاهلية التي ذمّها الشارع وحضّ المسلمين على نبذها، ولذا فهو لم يترك الأمر بدون توضيح، وبين أن مقصوده من العصبية التي هي ضرورية للمّة، وبوجودها يتم أمر الله، ويحمل بها الجمهور على طاعته سبحانه وتعالى، وإقامة شرائع دينه ليكون الإنسان عبداً متصرفاً طوع الأوامر الإلهية[24].

وللتفريق بينها وبين العصبية التي ذمّها الشارع يقول ابن خلدون:« ثم وجدنا الشارع قد ذمَّ

(21) مسلم، صحيح مسلم، ح رقم:80، ص44. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(22) «...» ابن خلدون، المصدر السابق، ص171.170.

(23) جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص82.

(24) هشام بن حسن العطار، المرجع السابق، ص543.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

العصبية وندب إلى اطراحها وتركها فقال:« إن الله أذهب عنكم عبية[25]الجاهلية وفخرها بالآباء؛ إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب»[26]. وقال تعالى:﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[27].

ويذكر لنا ابن خلدون القاعدة العامة في الأمور التي ذمها الشارع وبيان الحق في ذلك؛ فإن الشارع إذا ذمَّ أمراً ما؛ فإنما يذمه إذا اتجه به الإنسان اتجاهاً غير حميد، ولا يذمه لذاته. فيقول: « واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذُّمه من أفعال البشر أو يندب؛ إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة، حتى تصير المقاصد كلها حقاً وتتحد الوجهة»[28].

وعندما طبَّق ابن خلدون هذه القاعدة على مفهوم العصبية وجد أن الشارع لم يذُّمَها لذاتها، ومراده أن تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية، وأن يكون لأحد فخراً بها أو حق على أحدٍ، لأن ذلك مجان[29] من أفعال العقلاء، وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار، فأما إذا كانت العصبية في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب. ولو بطل لا بطلت الشرائع، إذ لا يتم قوامها إلا بالعصبية، فالعصبية التي ينادي بها ابن خلدون هي العصبية الحقة النافعة التي لا قوام للدين إلا بها، لأن كل أمرٍ يحمل عليه العامة لا بد فيه من العصبية؛ إذ المطالبة لا تتم إلا بها، وهي عصبية طبيعية في البشر لا تفارق، وهي بعزة الرجل على أخيه وجاره في القتل والعدوان عليه، فهذه لا يذهبها شيء ولا هي محظورة بل هي مطلوبة، ونافعة في الجهاد والدعاء إلى الدين.

والعصبية ليست فقط مذمومة لأسباب خلقية؛ بل أيضاً لأنها تسعى إلى تبرير الاقتتال بين القبائل، والذي يقيم حاجزاً لا يعبر كما نعلم أمام تحقق القوة السياسية، فحين تصبح اللُّحمة ممكنة بفضل الإسلام ونبيه، يصبح من الضروري إدانة الروابط الدموية السابقة على الإسلام،

(25) العبية: بضم العين وكسرها وكسر الباء المشددة وفتح الياء المشددة، بمعنى الكبر والفخر والنخوة. أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص2775./ الفيروز أبادي، المصدر السابق، ج1، ص99. مادة عبب.

(26) الحافظ الترميذي، **سنن الترميذي**، تعليق الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط1. د(س)، جزء من حديث رقم:3599، ص885. باب المناقب، باب في فضل الشام واليمن.

(27) سورة الحجرات، جزء من الآية:13.

(28) ابن خلدون، المصدر السابق، ص212.

(29) مجان: أي الكثير الكاف، قال الأزهري: استطعمني أعرابي تمراً فأطعمته كتلةً واعتذرت له من قلته فقال هذا والله مجان، أي كثير كافٍ. أنظر: تهذيب اللغة، مصدر سابق، ج11، ص131./ لسان العرب، ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص4142. مادة: مجن.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

واستناداً إلى القرآن الذي هوكلام الله خاصةً، وأن التجربة قد أثبتت عبر الانتصارات السياسية للإسلام عبثية اللجوء إلى روابط الدم، وضرورة تزويد المؤمنين بما يحميهم من إغواء العودة إلى العادات القديمة ومنه قوله(ﷺ):« اللَّهُمَّ أمضي لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم»[30]. أي ملازمة المدينة وعدم التحول إلى البادية وعصبيتها[31].

والحقيقة التي تفرض نفسها على الدارس للتاريخ الإسلامي أن الإسلام رغم تأثيره البالغ على حياة العرب عقيدةً وتشريعاً، ورغم دعوته إلى نبذ العصبية القبلية والتميز القبلي من منطلق«كلكم لأدم وآدم من تراب». وباعتبار أنه:« لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح». إلا أن قوة الانتماء القبلي ظلت عبر التاريخ الإسلامي قوة تزاحم التضامن الإسلامي والتعاليم الإسلامية المناهضة لها في جدلية متوترة تفرز أحياناً تصالحاً بين القبلي والديني في حركات التوحيد والإصلاح، تحت الراية الدينية ولكن بالقوة العصبية، وتؤدي أحياناً إلى التباعد والتصادم بينهما عندما يتغلب تشرذم البنية القبلية[32].

4)- تشكل العصبية الدينية عبر التاريخ الإسلامي:

لم يكن العرب في الجاهلية أمةً واحدة ولا شعباً واحداً؛ بل كانوا قبائل وعصائب متفرقة تحكمها أعراف متنوعة، وقد كانت روح العصبية القبلية هي المتحكمة في مجتمع الجاهلية، وهي تتجلى في عدة مظاهر كالفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، والأخذ بالثأر، والطبقية، والحروب الكثيرة...الخ. فبسببها تحول العرب إلى أعداء وتحولت الجزيرة العربية إلى ساحة صراع. ووقعت بسببها الحروب الطاحنة كالتي كانت بين قبائل داحس والغبراء، وعبس وذبيان، والحرب التي قامت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام والتي لبثت مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بين قلوبهم برسول الله(ﷺ)[33].وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اَللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اَللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾[34].

ومع بداية رسالته شرع النبي (ﷺ) في إذابة الروح القبلية واستبدالها برباط الدين والتوحيد

(30) البخاري، صحيح البخاري، ح رقم3797، ص408. باب فضل أصحاب النبي(ﷺ).

(31) جورج لابيكا، المرجع السابق، ص126.

(32) جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص82.

(33) محمد بن عبد الوهاب، **مختصر السيرة النبوية** ، تح: محمد حامد الفقي، المدينة المنورة، السعودية، ط14، سنة1999، ص86.

(34) سورة آل عمران، جزء من الآية:103.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

حتى يكون حب الله ورسوله هو الأكبر، والأخذ بمبادئ الأخوة والمساواة والتواضع، ونبذ رباط العصبية مصداقاً لقوله تعالى:﴿...**إِنَّمَا اَلْمُؤمِنُونَ إِخْوَةٌ**...﴾[35].وقوله(ﷺ):« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[36] [37]. ومن ثمَّ كانت بيعتي العقبة الأولى والثانية[38] عقداً اجتماعياً ربط بين القوم في يثرب وبين القوم في مكة ممن اتبعوا الدين الجديد، وهو عقد التزم بروحه المسلمون من بعد فأصبحوا في ولائهم للإسلام أمةً لا يفرق بينها جنس أو عصب، ثم كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في يثرب والتي قضت على كل نزعة للعصبية وأكدت على الأخوة الإسلامية التي جعلت من الأمة الإسلامية أمةً واحدة ثبت القرآن الكريم عراها قال تعالى:﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمُ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ**﴾ [39].

وقد أكد عليه الصلاة والسلام على ذلك في خطبة الوداع بقوله:« أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمَّن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لأمرء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيبة نفس منه، فلا تظلمنَّ أنفسكم»[40]. فكان هذا العقد هو أساس التنظيم الذي قامت عليه الجماعة الإسلامية الأولى، وظَّل قائماً طيلة عهد الخلفاء الراشدين لحماية العقيدة والدفاع عنها[41]، رغم محاولة الرِّدة بعد وفاة النبي(ﷺ) من بعض القبائل وانتصار الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)عليها، والذي أكد انتصار العصبية الإسلامية على القبلية نهائياً[42].

وعليه تكونت الوحدة الدينية التي سوت بين المسلمين وجعلت منهم أمةً واحدةً لا أثر فيها

(35) سورة الحجرات، جزء من الآية:10.

(36) مسلم، صحيح مسلم، ح رقم: 2586، ص1396. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

(37) خالد الجريسي، المرجع السابق، ص116.115.

(38) بيعة العقبة الأولى حدثت في موسم الحج سنة12من النبوة وحضرها اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة، وتم الاتفاق فيها على التوحيد، وقواعد الأخلاق الاجتماعية العامة التي تكون أساساً لقانون مجتمع فاضل، أما البيعة العقبة الثانية فكانت في موسم الحج التالي سنة13من النبوة، وحضرها ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وكان التعاقد فيها إلى جانب الأمور السابقة على التضامن في الحرب والسلم ضد أعداء الدين، وعلى الطاعة في المعروف والمجاهرة بالحق. أنظر: حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج1، ص ص70،73.

(39) سورة الأنبياء، الآية:92.

(40) أبو محمد عبد الملك المعروف بابن هشام، **السيرة النبوية**، تح: أحمد شمس الدين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1998، ج1، ص248.247.

(41) النجار حسين فوزي، **الإسلام والسياسة**، مطبوعات الشعب، القاهرة، د(ط ٨ س). ص140.

(42) نفس المرجع، ص84.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

للعصبية والعنصرية[43]، إذ سوى الإسلام بين جميع معتنقيه فلا فرق فيه بين عربي وأعجمي، أو بين حر وعبد، ونزع من المسلم كل نزعة للتعصب والعنصرية، فالكل سواء، والكل يعبدون الله أحراراً تجمع بينهم أخوة الإسلام لا أصرة النسب والدم، تحقيقاً للتكافل الاجتماعي بين المهاجرين ، والأنصار الذين آخى النبي(ﷺ) بينهم في الإسلام.

و تجب الإشارة إلي أن الدعوة الإسلامية خلال تاريخها الأول في مكة والمدينة كانت دعوةً دينية خالصة، و لم تكن دعوة قومية ذات عصبية قرشية، وإسهامها الكبير في دعم الفتوحات الإسلامية خلال القرن الأول الهجري وبخاصة في العصر الأموي، ثم العباسي من بعده، فانتشر الإسلام بين أقوام جديدة لا يمتون إلى الأمة العربية برباط جنسي أو ثقافي كما هو الحال في فارس والهند وشمال إفريقيا والأندلس[44].وكيف أنها جمعت كلمة المماليك في جهاد الفرنجة في بيت المقدس بقيادة صلاح الدين، وجعلت من الأتراك أمةً مسلمةً تذود على بلاد الإسلام وتواصل عملية الفتوح[45] في أوروبا، فتزيد بذلك من عمر الخلافة الإسلامية قروناً أخرى.

كما أننا نؤمن في نفس الوقت بأن الدعوة الدينية الإسلامية قد اعتمدت على عصبية المؤمنين بها وإخلاصهم لها، وتفانيهم في سبيل تلك الدعوة، حتى أصبحت عصبية الإسلام هي العصبية الحقيقية التي ولدت قوة الالتحام وعمق الترابط ومشاعر التناصر بين المسلمين جميعاً على اختلاف عصبياتهم، وهذه هي العصبية بمفهومها الأسمى الذي ينسجم مع القيم الإنسانية، ويعبر عن سمو الأهداف ونبل الغايات[46].

وعبر التاريخ الإسلامي نجد أن العصبية الدينية قد لعبت دوراً رئيسيا في تأسيس الدول بجانب العصبية القبلية، فقد استندت الدولة الأموية إلى عصبية قريش وخصوصاً بني أمية و إلى مذهب أهل الجماعة، فيما ارتكزت الدولة العباسية على عصبية الموالي وعلى مذهب الاعتزال، أما الإمارات المستقلة عنهما في المغرب والأندلس؛ فمعظم التجارب فيهما لتكوين الدول قد جرت باسم حركة التجديد الديني، وقد تباينت رؤيتها عن المركز المنشق عنه، فقد اعتمد بعضها على مذهب الخوارج الصفرية كإمارة بني مدرار بسجلماسة، وأخرى على الإباضية

(43) نفس المرجع، ص156.

(44) نفس المرجع، ص159.

(45) فتح الأتراك القسطنطينية سنة1453م من طرف القائد محمد الخامس(الفاتح) وسموها اسطنبول أي مدينة الإسلام، واتخذوها عاصمة لخلافتهم التي انتهت سنة1924م على يد مصطفى كمال أتاتورك.

(46) فاروق النبهان، المرجع السابق، ص179.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كالدولة الرستميِّة بتهرت، واستندت ثالثة إلى الشيعة الإسماعيلية كالدولة الفاطمية، وتبنت الدولة المرابطية المذهب السُّنِّي المالكي الذي تزعمته العصبية القبلية لصنهاجة، وقامت الدولة الموحدية على تعاليم عبد الله بن تومرت المدعي للمهدوية. والأمثلة كثيرة في هذا المجال.

فالإيديولوجية الدينية تدعم وتفسر الاتجاهات الاتحادية التي تواجدت في المغرب العربي ففيها تتكثف التطلعات إلى حياة سياسية قبلية أعلى[47]، وهذا كله يعيدنا إلى فكرة ابن خلدون التي أكد فيها على دور الدعوة الدينية في قيام الدول عندما قال:« وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه»[48]. وقوله:«كيف ينتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها»[49].

6- العصبية وتعويض النسب القرشي:

كانت أول مسألة أثيرت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام هي قضية الخلافة والشروط الواجب توفرها فيمن يتولها، وكان أكبر اختلاف فيها فيما تعلق بشرط النسب إلى قريش استناداً إلى بعض الأحاديث النبوية التي أشارت إلى ذلك ومنها قوله(ﷺ):« لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان»[50].وقوله أيضاً:«لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، أو يكون عليهم اثنا عشرة خليفة كلهم من قريش»[51]. وأحاديث أخرى تبين عكس هذا المعنى ومنها قوله عليه الصلاة والسلام:« اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة»[52]. وقوله كذلك:« لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[53].

---

(47) عبد القادر جغلول، المرجع السابق ، ص131.

(48) ابن خلدون، المصدر السابق، ص169.

(49) نفس المصدر، ص170.

(50) مسلم، صحيح مسلم، ح رقم: 1820. ص1011. كتاب الإمارة.

(51) مسلم، صحيح مسلم، ح رقم:1822. ص1012. كتاب الإمارة.

(52) البخاري، صحيح البخاري، ح رقم:6881، ص633. باب السمع والطاعة للإمام.

(53) الحافظ الطبراني، المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة، 1995، د(ط). ج5، ح رقم: 749، ص86.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وعليه حدث خلافٌ كبير حول حجة الانتساب إلى أهل البيت أولاً بين المهاجرين والأنصار،ثم بين أهل السنة والشيعة والخوارج، واستمر الخلاف عند الفقهاء والمحديثين فيما بعد.

وقد كان ابن خلدون من بين الذين حالوا إعطاء الحل لهذه المعضلة بتوضيح الأسباب التي دعت إلى اشتراط النسب القرشي[54]، عندما يشير إلى شروط منصب الإمامة الأربعة، وهي العلم، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء، وقد أُختلف في الشرط الخامس، وهو النسب القرشي الذي يقول عنه بأنه لم يعد ذا قيمة كون أن الظروف التي فرضته لم تعد متوفرة، والحال أن قريش كانت تتمتع بين القبائل بتفوق لا شك فيه بعددها وحسبها وعراقتها وبعصبيتها، وذلك هو سبب اختيارها، وعليه لا ينبغي بقاء شرط الانتساب لقريش قائماً، فالواقع يثبت أن العصبية وحدها يمكنها أن تقود للرياسة بعد أن أصبحت قوتها غير قائمة، فقد انتقلت الغلبة منذ نهاية العباسيين إلى عصبيات أخرى ولكل شعب اليوم عصبيته.

وقد عزز ابن خلدون رأيه هذا بأمثلة كثيرة منها الاختلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في السقيفة، وموقف الخوارج زمن الفتنة بين علي ومعاوية التي تؤكد على إمكانية اختيار الإمام من خارج قريش، وكذا مثال الدولة الأموية عندما تسلم معاوية الخلافة وسلّمها من بعده لابنه يزيد حتى يبقى الأمر في عصبية بني أمية[55]. وإن الحكمة من اشتراط النسب القرشي حسب ما يراه ابن خلدون، هو أن تتم وحدة الأمة وتمنع من بينها أسباب الفرقة والتنازع، وبالتالي يجب أن يكون القائم بأمر المسلمين متبوعاً من الكثرة الغالبة للجماعة، ليكون مطاعاً مرضياً عنه، ذا قوة مستمدة من الإرادة العامة ونفوذ، فيترتب على وجوده حصول الوحدة وتنفى دواعي الخلاف، فيكون بهذا التأييد العام أقدر من غيره على قيادة الجماعة وصون وحدتها[56].

ويعبر ابن خلدون عن هذا بقوله:« والحكمة من اشتراط النسب القرشي في الخلافة ليس هو التبرك بوصلة النبي(ﷺ)كما هو في المشهور، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلاً، لكن التبرك ليس من المقاصد للشريعة كما علمت، فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب، وهي المقصودة من مشروعيتها، وإذا صبرنا وقسمنا لم نجد إلا اعتبار العصبية التي تكون

(54) ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص ص301.298.

(55) جورج لابيكا، المرجع السابق، ص ص130.128.

(56) ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص303.302.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بها الحماية والمطالبة، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب، فتسكن إليه الملة وأهلها، وينتظم حبل الألفة فيها، وذلك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك، ويسكنون لغلبهم ولو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم، وعدم انقيادهم...فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب، وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة»[57].

ويستطرد ابن خلدون طويلاً في الحديث عن شرط القرشية وسبب وجوده الذي هو قوة عصبية قريش في مضر وسمو مكانتها بين القبائل العربية، وينسى الأحاديث النبوية التي أقرت بصحتها، ويرى أن القرشية لم تكن مقصودة لذاتها؛ وإنما لعصبيتها القوية، أما وإن هذه العصبية قد زالت بزوال قوة قريش، فقد بقي الشرط في ضرورة أن يكون القائم بأمور المسلمين من قوم ذوي عصبية قوية غالبة على من معها، ومن ثم يكون العهد لمن تكون له العصبية الغالبة[58].

وفي الأخير نخلص إلى أن الدعوة الدينية والعصبية القبلية قد شكلتا عند ابن خلدون عاملين ضروريين، يجب توفرهما لإقامة الملك والسلطان لدى العرب ولو في فترة العصر الوسيط الذي عاش فيه وخبر أحداثه، أو مما توصل إليه من اطلاعه على الدول التي كانت قبله كالأمويين والعباسيين، والإمارات والمماليك المنفصلة عنهما مشرقاً ومغرباً؛ بحيث لا يمكن حسب ما قاله من دونهما لأي حاكم مهما كانت سلطته أن يصمد طويلاً في الحكم ويستمر فيهما لم يكن من قوم ذوي عصبية قوية تغلب على من معها من العصائب الأخرى، ومع ذلك يجب أن تكون معززة بدعوة دينية تجمع قلوب الناس وتؤلف بينهم، وتذهب التباغض والتحاسد عنهم، وذلك الذي يؤدي إلى قوة الملك واستقراره في أصحاب تلك العصبية؛ بحيث لا تقدر أية عصبية أخرى انتزاعه من بينهم حتى ولو كانت أكثر عدداً وأكبر قوةً منهم.

ولنا فيما قدمه ابن خلدون من أمثلة التاريخ الإسلامي عن ذلك أوضح دليل، سواءٌ مما تحقق للمسلمين من انتصارات أيام الفتوحات الإسلامية على جموع الفرس والروم الأكثر منهم عدداً والأكبر قوةً، أم مما تحقق للمرابطين والموحدين من غلب على القبائل الكثيرة الموجودة في المغرب آنذاك، وهي أكثر عدداً وأقوى عصبيةً منهم.

---

(57) ابن خلدون، المصدر السابق، ص205.

(58) مصطفى الشكعة ، المرجع السابق، ص125.124.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الفصل الثـــاني

العصبية الدينية ودورها في قيام الدول الإسلامية .المرابطية نموذجاً

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:العصبية الدينية ودورها في قيام الدول الإسلامية.

المبحث الثاني:دور عبد الله بن ياسين في تكوين العصبية الدينية المرابطية.

المبحث الثالث: العصبية الدينية عند المرابطين(المظاهر والآثار).

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الأول

دور العصبية الدينية في نشأة الدول الإسلامية

يعتبر ابن خلدون أن العرب لا يمكن أن يحصل لهم الملك والسلطان، إلا بصبغةٍ دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك حسب اعتقاده هو لقوة التوحش الذي فيهم والغلظة والأَنَفَة، وصعوبة انقيادهم إلى بعضهم بعض والمنافسة على الرئاسة، ولذلك قلَّما تجتمع أهواؤُهم إلا بالدين؛ حيث يقول:« فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر و المنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم». ويضف:« فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تمَّ اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك». ومع ذلك يؤكد على أنهم:« أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق»[1].

ويرى أيضاً أن العصبية في المجتمع البدوي لا يمكن أن تتطور إلى عصبية جامعة مطالبة إلا بتدخل عامل آخر، وهو الدعوة الدينية التي تتبناها عصبية خاصة تناضل من أجل نشرها ونصرتها، الشيء الذي ينتج عنه رئاسة هذه العصبية صاحبة الدعوة على باقي العصبيات المرتبطة معها بالنسب العام، فينشأ تكتل عصبي سرعان ما يشُّق طريقه نحو الملك وتأسيس الدولة، ومما يبرر ذلك هو إن كانت الدولة القائمة آنذاك معتمدة على العصبية وحدها، فلا يمكنها أن تصمد طويلاً حتى ولو كانت في أوج عزِّها أمام مطالبة عصبية قوية معززة بدعوة دينية؛ لأن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، وتزيد من قوة الالتحام الذي في النسب مما يجعل العصبية أكثر قوةً حيث لا يقف أمامها شيء[2].

ولذلك كانت الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق، ويرجع السبب في ذلك إلى أن:« الدول العامة تقوم على الملك، والملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه»[3]. فالدين عند ابن خلدون يتمتع بقدرة فائقة على تأليف القلوب

---

(1) «...» ابن خلدون، المصدر السابق، ص163.

(2) الجابري، المرجع السابق، ص189.190.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ص169.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وجمع الكلمة تحت رايةٍ واحدة بعيداً عن القوميات والعرقيات البغيضة، فتتكون بذلك أقوى العصبيات المختلفة الأجناس والأعراق، والتي لا تقوى على الوقوف في وجهها أقوى العصبيات، وإن كانت تفوقها في العدد والعدة، ومن الأمثلة التي ذكرها لنا من التاريخ الإسلامي على ذلك مثلما مرَّ بنا القائد الكبير صلاح الدين الأيوبي الذي كان قليل العصبية وبرفعه لراية الجهاد، تكونت لديه عصبية قوية من مختلف الأجناس، حرَّر بواسطتها بيت المقدس من النصارى[4].

وأما الأمثلة عن الدول التي قامت على أساس العصبية الدينية كما رأيناه فكثيرة؛ بحيث كان للعصبية الدينية عبر التاريخ الإسلامي شأنٌ كبير بجانب العصبية القبلية في تأسيس العديد من الدول كالدولة الأموية والعباسية والإمارات المستقلة عنهما في المغرب والأندلس، مثل إمارة بني مدرار بسجلماسة، والدولة الرستميّة بتاهرت، والإدريسية بفاس، والفاطمية بالمغرب ومصر، ودولتي المرابطين والموحدين بالمغرب، والتي استندت جميعها إلى عصبية قبيلة محددة وإلى مذهب ديني معين مثلما رأيناه مسبقاً.

1- دور العصبية الدينية في تأسيس الدولة المرابطية:

وأما الدولة المرابطية التي هي محل دراستنا هذه فقد قامت على دعوة عبد الله بن ياسين الذي تبنى المذهب السنِّي المالكي بزعامة قبيلة صنهاجة، مثلما قامت الدولة الموحدية على دعوة ابن تومرت المدعي للمهدوية؛ إذ يقول ابن خلدون مبينا دور الدعوة الدينية في تأسيس هاتين الدولتين:« وأعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين، فقد كان بالمغرب من القبائل كثير من يقاومهم في العدد والعصبية أويشف عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة»[5]. لكن وقبل الوقوف بالتفصيل على نموذج الدولة المرابطية لإبراز دور العصبية الدينية في تأسيس هذه الدولة ودورها بعد ذلك في أفولها، يجب في البداية تقديم لمحة تاريخية عن هذه الدولة.

2- التعريف بالدولة المرابطية وتسمياتها المتعددة:

قبل الحديث عن دعوة المرابطين ودولتهم العظيمة بالمغرب والأندلس، يجب أن نعرِّف في البداية بأصول هذه الدولة، وذلك لا يتأتى إلا بالحديث عن قبيلة صنهاجة التي تعتبر إحدى قبائل البرانس من البربر، وأهم أعظم قبائلها بالمغرب فلا يكاد قطر من أقطاره، يخلو من بطن

---

(4) هشام العطار، المرجع السابق، ص ص549.547.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ص170.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من بطونهم في جبل أو بسيط حتى زعم البعض أنهم ثلث البربر[6].

وقد ذهب ابن خلكان إلى أن أصلهم من حمير عندما قال:« والذي وجدته أن أصل هؤلاء القوم من حمير بن سبأ»[7]. ويعضد ذلك إلى ما نقله ابن أبي زرع عن أبي فارس بن عبد العزيز الملزوزي الشاعر رحمهما الله في أرجوزته في التاريخ المسماة بنظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك:

مرابطون أصلهم من حِمْيَـــرَ *** قد بعدت أنسابهم عن مضـــر
وإن صنهاج سليل حمـــير *** وهو ابنه لصلبه لا العنصر
أكرم به من نسب صريـــح *** فقـــله لا تخفـــه بالتصريـــح
عدلهم وفضلهـــم مشهـــور *** ومجدهم وسعدهم مذكـــــور[8].

وعلى عكس الناصري الذي قال:« والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البربر»[9]. وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين منهم لمتونة وجدالة ومسوفة ومسراته ومداسة وبنو وارث وبنو مسفير وبنو دخيرن وبنو زياد وبنو موسى وبنو قشتال وغير ذلك، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوق الحصر، وهذه القبائل كلها صحراوية، وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما:دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية، ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين، والأخرى دولة الملثمين بالمغرب والأندلس وموطنهم أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان، ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولاً في أربعة عرضاً[10].

وكان أول ظهور للمرابطين عندما كونوا أول حلف ضَمَّ أهم قبائل صنهاجة الجنوبية بزعامة أمير لمتوني يدعى –يتلوتان بن تلاكاكين– الذي ملك بلاد الصحراء بأسرها، ودان له بها أزيد من عشرين مملكة من ممالك السودان، تؤدي له الجزية بانتظام، ودامت أيامه وطال عمره

---

(6) الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا لدول المغرب الأقصى**، تح: ولدي المؤلف جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954. د(ط).ج2، ص3./ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1999، د(ط). ج6، ص153.

(7) ابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1984، د(ط). ج7، ص128.

(8) ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تص: يوحنا تورنبرغ، طبعة أوبسالية، سنة1917، د(ط). ص73.

(9) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص3.

(10) نفس المصدر، ج2، ص3/ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص74.73.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

نحو ثمانون سنة إلى أن توفي سنة(222هـ/836م)، فتوارث عقبه الحكم إلى سنة(306هـ/913م)، وتصدع الحلف بسبب خلافات داخلية وبقي كذلك120سنة. وبما أن قبائل اللِّثام لا يمكن أن يستقيم لها حال؛ إلا إذا اتحدت كلمتهم، فقد أعيد تشكيل حلف ثانٍ بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة بزعامة-محمد بن تيفاوت اللمطي-[11] بهدف استرجاع دور الوساطة التجارية بين قبائل الصحراء، والتي كانت تشكل مصدر رزق للقبائل الصنهاجية وأصبحت مهددة من طرف مملكة غانا في الجنوب، لكن الزعيم الجديد لقي حتفه في إحدى المعارك مع مملكة غانا، فولي أمر صنهاجة بعده صهره يحي بن إبراهيم الجدالي[12].

وقد اشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم الملثمين، وأصبح اللِّثام شعارهم إلى أن تسموا بالمرابطين، ويرى بعض المؤرخين أن الملثَّمين ينتسبون إلى قبيلة لمتونه إحدى بطون صنهاجة، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر قبائل مسوفة ومسراته ومداسه وجدالة ولمطة وغيرها، ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة على عهد الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي، ويبدوا أن إطلاق اسم الملثمين كان في البداية خاصاً بقبيلة لمتونة، وأصبح فيما بعد شعارًا لكل من حالفهم ودخل تحت سيادتهم من القبائل[13].

وأما عن الأصل في التسمية وتنوعها: فقد تعددت الروايات عن تسميتهم بالملثمين، وهي تعود حسب بعض الأقوال منها:« أن أسلافهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحر والبرد يفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صار يفعله عامتهم»[14]. ومنها أيضاً:« أنهم آمنوا بالرسول(ﷺ) وكانوا قلة فاضطروا للهرب، عندما غلبهم أهلال كفر فتلثَّموا قصد التمويه»[15]. وقيل أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت

---

(11) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص76./ الناصري، المصدر السابق، ص5./ محمود حسن أحمد، **قيام دولة المرابطين(صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى)**. دار الفكر العربي، القاهرة، د(ط ٨ س)، ص101.

(12) بوتشيش إبراهيم القادري، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين(المجتمع، الذهنيات، الأولياء)**. دار الطليعة، بيروت. ط1، سنة 1991، ص8.9./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص75. بتصرف يسير.

(13) عبد المنعم حمدي محمد حسين، **التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1997، د(ط). ص37.

(14) ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص129.

(15) ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد الخطيب، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تص: البشير الفورتي، ط1، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، د(س)، ص8.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ملثمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو ظنُّوهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبركاً بما حصل لهم من الظفر بالعدو، وهكذا اتخذوا اللثام سنةً يلازمونه ليلاً ونهاراً، ولا يعرف الشيخ منهم من الشاب[16]، وارتقى عندهم إلى مستوى رفيع في حياتهم وأعرافهم.

والمرجح في استخدام اللِّثام هو أن يكون قد اتُخذ في أول مرة للحماية من الغبار ومنغصات جو الصحراء، فتوارثه الأبناء عن الآباء حتى صار عادةً بمرور الزمن، ويعزز هذا الرأي أن بدو الصحراء في شبه الجزيرة العربية والطوارق في الصحراء إفريقيا الغربية، والذين تؤكد بعض الروايات أنهم أحفاد المرابطين لا يزالون يتلثمون إلى اليوم لنفس هذه الأسباب[17].

وأما عن تسمية المرابطين فقد تضاربت الروايات حول ذلك إذ عزا بعض المؤرخين سبب هذه التسمية إلى اعتصامهم بالرباط الذي أنشأه عبدالله بن ياسين[18] في الحوض الأدنى لنهر السنغال، عند بداية حركته الإصلاحية سنة(433هـ/1040م)[19].بينما أرجع البعض ظهور هذا الاسم إلى المرحلة التي أعقبت خروج أنصاره من الرباط لقتال بعض القبائل اللمتونية المعارضة لدعوته، وكسر شوكتها في إحدى المعارك؛ حيث تمَّ إطلاق اسم المرابطين عليهم تكريماً واعتزازاً بصبرهم وجهادهم[20]. في حين يستشف من رواية أخرى أن هذا الاسم لم يطلق على جيش عبد الله بن ياسين إلا بعد النصر الذي حققه على حساب دولة برغواطة سنة (450هـ/1058م)[21].ومما قيل في اللثام:

قومٌ لهم درك العلا في حمير *** وإن انتموا صنهاجة فهم همُ

لما حووا إحرازا كل فضيلةٍ *** غلب عليهم الحياء فتلثموا[22].

---

(16) الناصري، المصدر السابق، ج1، ص4.

(17) دندش عصمت عبد اللطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة 1988، ص ص 30.16. بتصرف.

(18) ابن خلدون، المصدر السابق، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص184.

(19) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص26.

(20) المراكشي ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، دار الثقافة، بيروت، ط3، سنة1967. تح: إحسان عباس، ج4. ص12.

(21) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص8.

(22) ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص130.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

3 – الأسس الدينية لدولة المرابطين:

قامت دولة المرابطين على أساس نشر المذهب المالكي، ومحاولة بعث القوى الإسلامية واستنهاض همتها من جديد، بعدما دبَّ الانقسام في البلاد الإسلامية و لم يعد للعباسيين قدرة للسيطرة عليها، وظهرت بها الانحرافات والابتعاد عن الدين، ومن ثمَّ العمل بكل جهد على العودة بالمجتمع إلى عهد السلف الصالح، وقد اعتمدت في التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلنت حرباً على البدع والخرافات، فحطمت دنان الخمر وكسرت آلات الطرب، وطالبت الناس بالقيام بفروض دينهم، ولذلك لقيت دعوة المرابطين الترحيب أينما حلت، واستنجد بها الفقهاء والعلماء لتخليص البلاد الإسلامية من المفاسد والمظالم، وفتحت المدائن والبلدان أبوابها لهؤلاء الملثمين المجاهدين الذين لا يبغون من الحياة الدنيا سوى الإصلاح[23]. وفيما يلي تفصيل لأهم الأسس التي قام عليها حكم دولة المرابطين في بلاد المغرب والأندلس:

أ – إعادة إحياء وبعث فريضة الجهاد:

قد توسعت هذه الدولة في مبدأ الجهاد، وأعادت إلى الأذهان صورة الفتوحات الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين من بعدهم، فعاشت من أجل الجهاد طوال فترة حكمها االقصيرة، وسخرت كل مواردها لهذا العمل الجليل، وجعلت من البلاد التي فتحوها وتملكوها معسكراً ضخماً تدوي فيه طبول الجهاد، ورغم انشغالها بهذا الركن العظيم، إلا أنها لم تغفل باقي الجوانب الحضارية والاجتماعية في هذه البلاد، وأرست قواعد الأمن والطمأنينة بين الناس، فازدهرت الحياة الاقتصادية والثقافية في جميع أرجاء الدولة[24].

فقبائل الملثمين التي قامت على أكتافها دولة المرابطين كانت في الواقع قبائل بدوية، ولكنها امتازت بأنها قبائل بناءة وغير مخربة، فلم تكن تغزوا غيرها من القبائل لمجرد السلب والنهب؛ بل من أجل نشر عقيدة سامية ولتصلح ما هو أعوج في الدين، والفضل في ذلك كله كان لإمامهم عبد الله بن ياسين الذي رباهم على عقيدة التضحية والجهاد في سبيل نصرة دين الله، فقد أثرت فيهم هذه العقيدة الرفيعة التي مارسوها في البدء في رباطه، كما فتحت عقولهم للثقافة الإسلامية والتراث الأصيل، وتركت تعاليمه في نفوسهم أبلغ الأثر فبادروا منذ اللحظة الأولى

---

(23) حسن محمود، المرجع السابق، ص325.

(24) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص141./ حسن محمود، المرجع السابق، ص326.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

التي وطأت فيها أقدامهم أرض المغرب، يُقبلون على المدارس بشغف كبير و لم يتخلفوا عن الركب؛ بل إنهم انكبوا على العلوم ينهلون منها ويأخذون منها بنصيب وافر[25].

ب –التوحيد المذهبي لبلاد المغرب والأندلس:

عندما قامت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى سنة(172-364هـ/789-975م)، دعمت ووطدت المذهب المالكي بالبلاد؛ لكن خلال الفترة التي أعقبت سقوط هذه الدولة وحتى قيام دولة المرابطين، دخل المذهب المالكي في صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وغيرها من المذاهب حتى انتصر في النهاية[26]. وتعد قضية التوحيد المذهبي من أهم المسائل التي عمل المرابطين على تحقيقها في بلاد المغرب، حتى تمكن المذهب المالكي في عهدهم من السيطرة على باقي المذاهب المنتشرة بالمغرب وفي مقدمتها المذهب الكوفي الذي كانت له الصولة في المغرب، والمذهب الخارجي الذي كانت تعتنقه إمارة بني مدرار بسجلماسة، والمذهب البورغواطي الذي كان قد باض وفرخ في تامسنا[27]، والمذهب الاعتزالي والشيعي الذي يقال:« إن قرنه طلع مع نشوء الدولة الإدريسية»[28].

فقدكان قيام دولة المرابطين نصرًا للمذهب المالكي في المغرب، وتأكيداً لدور علماء المذهب، فالدولة أساساً هي دعوة إصلاحية استمدت تعاليمها من مذهب الإمام مالك، ثم تطورت من مجرد دعوة إصلاحية إلى حركة جهادية، خلصت المغرب من الضلالات المنتشرة به كبدعة برغواطة، ووحدت بلاد المغرب في ظِّل تعاليم الإمام مالك، وتعزى أسباب ذلك إلى مدى النفوذ الذي كان يتمتع به علماء وفقهاء المالكية في الدولة المرابطية، وذلك بفضل دراستهم للمذهب وتطبيقهم لأحكامه في شتى مجالات الحياة، وإلى تأييد ولاة الأمور المالكيين وعلماء الدولة المالكية[29].

وفي هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي:« و لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى

---

(25) حسن محمود، نفس المرجع، ص325.

(26) حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس(عصر المرابطين والموحدين)**. مكتبة الخانجي، مصر، ط1، سنة 1980، ص464.

(27) تامسنا بلاد من قبيلة برغواطه ، وتعرف اليوم في المغرب الأقصى ببلاد الشاوية ، تقع على الساحل المحيط الأطلسي. أنظر: كنون عبد الله، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، سنة1961، ج1، ص48.

(28) نفس المرجع، ج1، ص48.

(29) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص464.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

عنده إلا من عَلِمَ عِلْمَ الفروع أعني فروع مذهب الإمام مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله(ﷺ)، فلم يكن أحدٌ من مشاهير ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء»[30].

وقد صارت الفتيا والأحكام مستمدة من مذهب الإمام مالك حتى نهاية حكم الدولة المرابطية ولا يلتفت إلى غيرها من الأحكام، وقد أكدت الرسالة الصادرة من الأمير علي بن يوسف بن تاشفين إلى أهل بلنسيه سنة(538هـ/1143م) ذلك، والتي حدد فيها لهم أن مناط الأحكام في الدولة هو مذهب الإمام مالك(رضي الله عنه). كما صارت المدن المغربية أثناء حكم المرابطين مراكز لدراسة المذهب المالكي وتخريج العلماء المالكيين، ومن هذه المراكز مدينة تلمسان التي كانت دار العلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب الإمام مالك[31].

وأنجبت البلاد الكثير من علماء المالكية الذين حفلت بهم المجالس والندوات ودور العلم، وفي مقدمتهم القاضي عياض[32]، الذي برز دوره في رفع لواء الثورة ضد عبد المؤمن بن علي والموحدين، فكان بذلك المدافع عن مذهب الإمام مالك ضد الدعوة الموحدية القائمة على أفكار المهدي بن تومرت، التي ارتكز فيها على تشبث العلماء والفقهاء المرابطين بالفروع وتركهم للأصول، ومعارضتهم لعلم الكلام، وسيكون لنا في هذا تفصيل فيما بعد.

لكن ابن تومرت لم يستطع مهاجمة المذهب المالكي الذي أصبح عقيدةً ومذهباً لعامة الشعب، مما جعله يتحايل عليهم بأن ألف لهم موطأ جمع فيه جميع الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ الإمام مالك بعد حذف معظم الإسناد منها للاختصار[33].

ونظرا لمكانة هذا المذهب وتقديراً لتضحيات المرابطين وحفاظاً على وحدة البلاد، فقد كان من الطبيعي أن يتصدى الأمراء المرابطين لكل المواقف والأحكام المخالفة لهذا الاعتقاد الذي تقوم عليه سياسة الدولة وتقاليدها، وأن يعتبروها بدعاً يجب محاربتها والتخلص منها، كما هو الشأن بالنسبة لكتب الغزالي التي اعتبرت مثالاً للانحراف عن الاتجاه الرسمي للدولة، ومهما يكن

---

(30) يقصد بقوله الأمير – علي بن يوسف بن تاشفين– . عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص133.

(31) البكري أبي عبيد، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د(ط ٨ س)، ص77.

(32) القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي المالكي، الذي كان إمام المالكية وقدوتهم وجامع مذهب الإمام مالك، وشارح أقواله المدافع عنه، وله عدة المؤلفات أهمها كتاب: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك .أنظر: كنون، المرجع السابق، ص87.

(33) البكري، المصدر السابق، ص172.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من أمر فإن المذهب المالكي قد توطد فقهاً واعتقاداً في بلاد المغرب أثناء عصر المرابطين خاصة[34]. وشايع المغاربة مذهب مالك فقهاً وسلوكاً وعقيدةً، إلى أن تجدد الجدل المذهبي في بلاد المغرب في أواخر العهد المرابطي مع الموحدين، واشتد الخلاف بينهم إلى حد التناحر والقتال وتكفير طرفاً للآخر[35].

كما واكبت الرسائل المرابطية هذا الصراع المذهبي في بلاد المغرب وعكست حرص المرابطين الشديد على وحدة المذهب المالكي ومنها مثلاً رسالة تاشفين بن علي إلى واليه على بلنسية أبي زكريا يحيى بن غانية التي يحثه فيها على ضرورة التمسك بمذهب الإمام مالك والتصدي لما سواه، وضرورة الالتزام بالإفتاء وفق المذهب المالكي[36]. ومما ورد فيها قوله: « وأعلموا رحمكم الله أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبدا على ما اتفق عليه السلف الصالح رحمهم الله، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس(ﷺ)، فلا عدول لقاضٍ ولا مفتٍ عن مذهبه، ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم إلا به ، ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال من الأئمة إلى سواه ، فقد ركب رأسه وأتبع هواه»[37].

يأتي هذا النص في إطار نصرة المرابطين للمذهب المالكي السني ومحاصرة التيار الشيعي، ومحاربة الفوضى المذهبية والفكرية التي تسببت فيها بعض الحركات الفكرية في الأندلس كحركة ابن مسرة، وابن برجان، وابن قسي[38]. ولعل هذا ما يساعدنا على فهم أمر تاشفين ابن علي الموجه إلى قضاته الذي يقضي بضرورة الالتزام والاقتصار على مذهب الإمام مالك، واتخاذه دليل العمل الوحيد في أحكامهم وفتاويهم، وتهديد عدم الملتزمين به بالعقاب باعتبارهم خارجين عن الإجماع الذي أتفق عليه السلف الصالح، والذي سالت دماء المرابطين من أجل جمع كلمة المغاربة عليه.

---

(34) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص464.465.

(35) نفس المرجع، ص458.

(36) إن فكرة الدعوة إلى التمسك بمذهب مالك ومنع الإفتاء بغيره من المذاهب تعود إلى القرن الثالث الهجري عندما تولى سحنون قضاء إفريقية سنة(234هـ/848م) حيث كان يمنع الفتوى من غير مذهب مالك، بل ويؤدب المخالفين على ذلك. أنظر: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي**، تح: جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط1، سنة1981م، ج2، ص169.

(37) مؤنس حسين، **نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، سنة2000، ص20./ حسن علي حسن، المرجع السابق، ص465.

(38) يعد أبو القاسم أحمد بن الحسين ابن قسي، أحد الأعلام البارزين في التصوف بالمغرب الإسلامي، وهو صاحب أول ثورة ضد =

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ج – محاربة البدع والضلالات والتصدي لها:

تعد البدع على رأس القضايا التي تجند المرابطون للجهاد ضدها رافضين أي تحريف في الدين أو تبديل فيه؛ إذ تصدوا لها بقوة من خلال الأمر بمعاقبة أصحابها والقضاء على معالمها، وذلك حفاظاً على وحدة الأمة وسلامة دينها ومذهبها الرسمي، ولذلك كان أمراء المرابطين يبادرون إلى تنبيه أتباعهم على ضرورة الالتزام بأحكام الشريعة وسلامة أداء الفروض الدينية، واجتناب أي تحريف أو تبديل قد يخل بأصول العقيدة الإسلامية،

ومن هذا المنطلق تصدى المرابطون لكل الأفعال التي تسيء إلى الدين، ويتضح ذلك من مواقفهم التي تعكسها رسائلهم، كالرسالة التي بعث بها الأمير علي بن يوسف إلى القائد أبي محمد بن فاطمة عامله على اشبيلية، يأمره فيها بعزل أي عامل عن عمله ومعاقبته في بدنه إذا ما ثبت عليه أي تحريف في الرسوم الدينية ومما ورد فيها قوله:« ومن تثبت عليه من عمالك زيادة أو خرق في أمر عادة، أو غير رسم أو بدل حكماً، أو أخذ لنفسه درهماً ظلماً، فأعزله من عمله وعاقبه في بدنه»[39].

ويتبين من الرسالة أيضاً موقف المرابطين الداعي إلى تقيد العمال في شؤون تدبير حكمهم بأصول العقيدة الصحيحة التي جاهدت الدعوة المرابطية من أجل تثبيتها في البلاد، وعدم السماح بأي تحريف لرسومها أو انتفاع منها ومعاقبة المخالفين لأوامرها، ولعَّل من أبرز المظاهر تجسيداً لموقف المرابطين الصارم من البدع حفاظاً على وحدة المذهب المالكي- قضية إحراق كتاب إحياء علوم الدين- للإمام أبو حامد الغزالي، والتي بدأت في عهد الأمير علي بن يوسف وامتدت إلى عهد ابنه تاشفين[40]، وتجاوز صداها البلاد المغاربية نحو بلاد المشرق في مطلع القرن السادس الهجري.

وإننا نجد في رسائل المرابطين ما يؤكد دعوتهم إلى إحراق كتب البدعة واستئصال شأفتها، ومنها كتب أبي حامد الغزالي التي وردت الإشارة إليه بالاسم في إحدى رسائل تاشفين، ومما جاء فيها قوله مخاطباً أحد ولاته:«...ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة وخاصةً

= المرابطين عرفت بثورة المريدين، والتي جسدت الموقف المتطرف من السلطة المرابطية آنذاك، بعيداً عن الكرامات والاعتدال في تبليغ خطابه، قدر اعتماده على أسلوب الثورة والعنف، وقد عبر عن ذلك في كتابه "خلع النعلين".عن هذه الحركات أنظر: كتاب القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين..، مرجع سابق، ص163.

(39) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص63.

(40) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص415.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وفقكم الله كتب أبي حامد الغزالي، فليتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها»[41].

د – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لقد اتفقت الأمة الإسلامية على وجوب الأخذ به امتثالاً لأوامر القرآن الكريم والسنة المطهرة والمتمثل في قوله تعالى:﴿ **وَلِتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ﴾[42].

ويرى بعض المؤرخين أن فقهاء المالكية في المغرب قد شنُّوا حرباً على المنكرات، فضيقوا على أهلها في ملاهيهم؛ بل حاربوا أصحاب العقائد الضالة من الصفرية والإباضية، وكان طبيعياً أن يرتسم عبد الله بن ياسين خطى هؤلاء الفقهاء، فلم يكتف بتعليم الناس وتفقيههم في دينهم؛ بل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، واستطاع أن يجند أمةً بأسرها تقوم بذلك، وأن يخلق جيلاً من المحاربين الأشداء الذين يتعصبون لفكرته، ويسارعون إلى نصرته ويبايعونه على الحق، وهو في ذلك قد التزم حدود الشرع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأمر بقلبه وبلسانه، وسالم وأصلح، أنذر وأعذر، حتى أخفق فلم يجد مناصاً من سل السيف دفاعاً عن الحق[43].

وإذا كانت أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي:« بألا يؤخذ مال المسلم بغير حق، ولا يضرب ظهره بغير حق»[44]. فإنه لم يرد عن ابن ياسين أنه تجاوز هذا الحد، وإن كان لا يحل لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن:« يهتك حريماً ولا أن يأخذ مالاً بغير حق»[45]. فإن ابن ياسين قد عف عن ذلك؛ بل كان حرباً على الإثم والبدع أينما كانوا، فلا تكاد عصبته تطأ أرضاً حتى تغير المنكر، وتقطع المزامير، وتريق دنان الخمر[46].

---

(40) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص113./ حسن علي حسن، المرجع السابق، ص451.

(41) عبد الله كنون، المرجع السابق، ص59.58.

(42) سورة آل عمران، جزء من الآية:104.

(43) حسن محمود، المرجع السابق، ص172.

(44) ابن حزم الأندلسي الظاهري، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تح: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت . د(ط ٨ س) ، ج4، ص173.

(45) نفس المصدر، ج4، ص173.

(46) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص71.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

هـــ- التزام أحكام الشرع في الفروض الدينية:

اهتم ابن ياسين بتعليم الناس الصلاة والزكاة وأحكام الصيام بعدما وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين[47]، فإقامة الصلاة وتأديتها كانت تحتل ركناً أساسياً في اهتمامه، باعتبارها الركن الأول من العبادة بعد الشهادتين، لذا كان يلزم أتباعه بالمواظبة على الصلاة وتأديتها مع الجماعة، ومن تخلف عنها يضربه عشرون سوطاً[48]، ويرجح ربما ذلك لجهلهم بأركان الصلاة حتى تصح صلاتهم، وقد أدى هذا العقاب الذي فرضه ابن ياسين إلى أن الكثير منهم كان يدخل الصلاة بغير وضوء عندما يحين وقتها خشية العقوبة[49].

وأما الزكاة التي هي الركن الثالث من أركان الدين، فقد بين عبد الله بن ياسين لأتباعه مقاديرها وحددها لهم وفق معايير الشرع، وقضى على كل المغارم والمكوس والأموال التي كانت تخالف أحكام الدين[50].

وعليه نخلص في الأخير إلى أن من بين المبادئ الإصلاحية التي أخذ بها عبد الله بن ياسين في دعوته، هو أن يزيح على الناس ما كانوا ينأون منه من ضرائب جائرة فرضها الحكام الظالمين على رعيتهم، وقد اضطر ابن ياسين إلى رفعها عن الناس، واكتفى بما أوجبه كتاب الله وسنة نبيه عليهم من زكاة وعشر على أهل الذِّمة الذين يتاجرون في بلاد المسلمين، كما كان ابن ياسين يرتب العمال في كل البلاد التي يحل بها، ويأمر بإقامة العدل وإظهار السنة، وأخذ الزكاة والعشر من القبائل، وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم التي طالما كانت السبب في تمردهم وانحرافهم عن الجادة[51].

فكان لهذه الإصلاحات التأثير البالغ المدى في تاريخ الدعوة المرابطية؛ بأن أظهرت للناس في بلاد المغرب والأندلس أن المرابطين لا يبغون جاهاً ولا مالاً؛ إنما يبغون الإصلاح وإنقاذ الناس من الجور والعسف، فأخذ الناس يتطلعون إلى هذا الشعب الذي بُعِثَ بعثاً جديداً، ويستنجدون بهم من ظلم حكامهم، ويرحبون بهم، وتأييدهم في كل مكان[52].

---

(47) نفس المصدر، ص78.

(48) البكري ، المصدر السابق، ص169./ ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص16.

(49) عبد الله كنون، المرجع السابق، ص59.

(50) البكري، المصدر السابق، ص170 ./ ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص17.

(51) حسن محمود، المرجع السابق، ص175.174.

(52) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص81.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

4 – البعد المالكي للدعوة المرابطية:

يبدو أن عوامل عدم تقبل قبائل صنهاجة الصحراويين للتراعات الباطنية والعقائد الموغلة في التجريد كالأشعرية والإسماعيلية وباقي الفرق الباطنية البعيدة عن أفهام العامة، إلى جانب الحضور القليل للمتكلمين في الصحراء وضآلة تأثيرهم، قد أدى إلى اختفاء معتقدات هذه الفرق في الإسلام المرابطي، وكانت هي الفاعلة لتمكين المذهب المالكي في الصحراء وفي فكر الحركة المرابطية، فطبيعة المذهب المالكي من حيث جوهره هو الابتعاد عن أساليب أصحاب علم الكلام والرأي، ومن ثما ذلك التقليد المالكي القائم على كراهة ما ليس تحته عمل من قضايا ومسائل الأحكام، فالمذهب المالكي لا يقوم على الرأي والقياس بقدر ما يقوم على النص والنقل وعلى الأثر والرواية.

ولعَّل هذا جميعه هو الذي جعل المذهب المالكي يمثل الوجه الأخر لعقيدة السلف التي هي على الأرجح المذهب الذي تقبله أهل الصحراء لبساطته ووضوحه، وربما هذا الواقع هو الذي عناه ابن خلدون حين قال:« فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا لأهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي عندهم غضاً ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع لغيره من المذاهب»[53]. وإن هذه الخاصية التي امتاز بها المذهب المالكي، تكون هي التي جعلت قبائل صنهاجة تميل إليه، كونهم بدوًا لا يتقبلون المذاهب الفكرية التي تميل إلى التعقيد كالأشعرية.

ومن هنا كان الصنهاجيون يميلون دائماً إلى الأفكار التي تلائم حياتهم المتمثلة في زهد موغل في البساطة، وورع صارم يتمثل في صرامة الأحكام وسد الذرائع[54]، إلى جانب قدرة مشهورة على التكيف مع الواقع وما يطرحه بين الحين والآخر من مشاكل تستدعي إيجاد مقابلاً لها على مستوى الفقه المالكي.كما لا ننسى ارتباط المشروع المرابطي بمجموعة من الفقهاء المالكيين

(53) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص457.

(54) تشدد ابن ياسين في تطبيق الأحكام حتى أعتبر ذلك مأخذاً على دعوته وعلمه، ومن ذلك أنه كان يعاقب المتخلف عن صلاة الجماعة بضربه20 سوطاً، والذي فاتته الركعة الواحدة فيضربه5 أسواط. راجع: البكري، المعجب، ص169. ويبدو أن هذا التشدد قد اقتضته اعتبارات ظرفية، وهو ما أشار إليه القاضي عياض حينما نبه إلى أن ابن ياسين قد أخذ صنهاجة"بصلاة الجماعة إذ كانوا عنده ممن لا تصح له صلاة إلا مأموماً لجهلهم بالقراءة والصلاة". راجع القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تح: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط2، سنة1983، ج8، ص82.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أمثال أبي عمران الفاسي، ووجاج بن زللو اللمطي، وعثمان بن مالك وهو زعيم فقهاء المغرب بوقته وعبد الله بن ياسين، قد جعل الخطاب السياسي للحركة مالكياً منذ اللحظة الأولى، وأن قيام الدولة المرابطية قد مكن للمذهب المالكي بين الرعية وبين أهل الحكم أنفسهم.

ويتأكد التلازم بين السياسي والديني على مستوى السلطة المرابطية، وارتباط صحراء الملثمين بهما من مراجعة فتويين وردتا في المعيار المعرب للونشريسي إحداهما للفقيه ابن رشد(55)، والأخرى للفقيه ابن حمدين(56)، وهما إجابة عن سؤالين وردا من مرابطي الصحراء، بشأن الأموال المكتسبة من المواشي التي خالطها المال المغصوب من عملية السلب والنهب التي ظلت بعض قبائل المنطقة تمارسها ربما قبل بدء أمر المرابطين.

فاستفتاء هذين الفقيهين يدل على الارتباط الرسمي للمذهب المالكي بالسلطة؛ إذ أن المعنيين كانا من كبار قضاة المرابطين، فابن حمدين هو متزعم عملية الإحراق المشهورة لكتاب الإحياء لأبو حامد لغزالي، وكان يتبنى علناً خطاب الدولة ويدافع عنه، أما ابن رشد فقد ظَلَّ من كبار فقهاء الحكم المرابطي رغم أنه وقف من عملية الإحراق موقفاً صامتاً يفهم منه أنه كان لكتاب الإحياء أكثر مما يكون عليه، إلا أنه ظلَّ يحترم الشرعية المرابطية ويذكر رموزها بالتعظيم، وتَرَافُق الموقف السياسي والفكري الداعم للمذهب المالكي في دولة المرابطين يمكن فهمه من قول ابن حزم الذي مفاده أن مذهبين انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان وهما مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك بن أنس(57).

وإلى جانب هذا التعلق الصحراوي بالمذهب الرسمي للدولة وممثليه، ترد إشارات هامة ضمن فتوى ابن رشد تؤكد حضور الوجه الآخر لعملية التعلق نفسه وهو الوجه السياسي، فالفتوى الرشدية تشير إلى أن الأموال المختلطة المشار إليها كانت تقدم منها الهدايا لأمير

---

(55)هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (450-520هـ/1058-1126م) قاضي الجماعة بقرطبة على عهد المرابطين، من أعيان المالكية، له عدة تصانيف، مولده ووفاته بقرطبة. أنظر: الزركلي خير الدين، **الأعـــلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، سنة1980 ،ج5، ص316 .317.

(56) أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدين(439-508هـ/1048-1114م). من أجل فقهاء الأندلس وزعيمهم لعهده، كان على ما يذكره تلميذه عياض ذا نظر صحيح في الفقه والأدب، تولي القضاء بقرطبة بعد وفاة والده سنة(490هـ/1097م) على عهد أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين. أنظر: القاضي عياض، المصدر السابق، ج8، ص193./ الفتح بن خاقان، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**. تح: حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الأردن، ط1، سنة1989.

(57) حماه الله ولد السالم، مقال بعنوان: **الأصول الفكرية لدولة المرابطين وآثارها الصحراوية**، مجلة علوم إنسانية، العدد40، سنة 2006، ص7، مجلة إلكترونية.WWW.ULUM . NL

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المسلمين، ناهيك عن أنها تُصرِّح كذلك بوجود أمير مرابطي على الصحراء وقبائلها، وهو الأمر الذي يؤكد أن المنطقة قد ظَّلت على تبعيتها القوية للسلطة المرابطية في مراكش ومذهبها الديني على الأقل حتى عهد علي بن يوسف بن تاشفين(537.500هـ/1102.1142م).

ومهما كان دور هذه الملابسات في إبقاء المذهب المالكي إطارًا لإسلام الصحراويين وعلاقتهم بالمرابطين، فإن المستوى المعرفي يظَّل الفيصل في ترسيخ المالكية بين طبقة الفقهاء المرابطين والدعاة الذين بعثوا مشروع الدعوة المرابطي، ومهدوا للمذهب المالكي في الصحراء[58].

5- خصوصية حقل الدعوة المرابطية:

كان دين قبائل صنهاجة أهل اللِّثام المجوسية شأنها شأن برابرة المغرب، و لم يزالوا مستقرين على تلك الحال حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس لعهد المائة الثالثة[59]، وعلى حسب ما ذهب إليه ابن خلدون أن إسلام صنهاجة اللِّثام قد بدأ في عهد عقبة بن نافع وتأكد في عهد الأدارسة، ووضح وضوحاً تاماً في القرن الثالث الهجري[60]. وعلية تكون قبائل صنهاجة الصحراء قد تعرفوا على الإسلام لأول مرة بعد اصطدامهم بحملات الفتح العربي، والذي مسَّ بشكل خاص قبائل صنهاجة الموغلة في بلاد السوس الأقصى، إلا أن هذه العملية لم تؤد إلى إسلام كل الصحراويين لأن المصادر تحدثت بعدها عن سرايا ظلت تنطلق من السوس في اتجاه الصحراء، ويفترض أنها وصلت إلى حدود نهر السنغال.

والواضح أن هذه العمليات الخاطفة كانت موجهة ضد الإتحاد الصنهاجي الذي كان يقوده أمراء عشيرة- أنْبيتا-[61] اللَّمتُّونية الذي استمر مسيطراً على أودغست(306هـ/918م)؛ إذ وبعد تفكك هذا الاتحاد لم تشر المصادر إلى حملات أخرى على المنطقة، فهل يتعلق الأمر بحصول سكان الصحراء آنذاك على درجة من الإسلام كافية لحمايتهم من الفاتحين؟. فربما كان الأمر كذلك وإلا لما ذكر الإخباريون أن صنهاجة في تلك الفترة كانوا على السنة مجاهدون

---

(58) حماه الله ولد السالم، المقال السابق، ص8.

(59) ابن خلدون، المصدر السابق، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص182.183.

(60) julien charles (a), **histoire de la frique de nord** , paris ,1931, p376.- نقلاً عن: حسن محمود، المرجع السابق، ص71.

(61) الأنْبيتا: هو اسم الاتحاد اللمتوني الذي كانت الحملات العربية موجهة ضده لكون أن ملوك الاتحاد لم يكونوا قبل سنة306هـ تاريخ تلاشيه مسلمين أو حتى يرتبطون بديانة معينة، وهو ما أكده اليعقوبي في **البـــلدان**، طبعة بريل ليدن ، عام1860، ص2.حين تحدث عن بلاد أنبية وقاعدتهم غست: أو (داغست) فذكر(أن لهم ملكاً لا دين له يغزو بلاد السودان). أنظر: نفس المقال لحماة الله ولد السالم، ص14.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

للسودان، وأن رئيس حلفهم-عبد الله بن تيفاوت-كان من أهل الفضل والدين والحج والجهاد.

إلا أن هذا الإسلام السني والجهاد ضد مشركي السودان قد لا يعني تعميق الإسلام بين الصنهاجيين، بدليل سطحية إسلامهم التي كشف عنها في البداية داعية المرابطين عبد الله بن ياسين؛ بل إن ما يمكن فهمه من ذلك المذهب السني هو تميز الإسلام الصنهاجي عمَّا جاوره من المذاهب والفرق المنتشرة آنذاك حول الصحراء، ومن هنا لم ينسب الصنهاجيون إلى أي من تلك الفرق والمذاهب، و لم يصنفوا في الروايات التي أشارت إليهم إلا في عداد أهل السنة؛ ولكن هل كانت هذه الخصوصية التي اتسم بها إسلام صنهاجة الأول عاملاًحاسماً في الاختيارات المذهبية للدعوة المرابطية؟.

فالباحثون يربطون بين المشروع المرابطي وعملية المد السني التي بدأها الأشاعرة في المشرق، ويعتبرون الحركة المرابطية عملية محاصرة للمذهب الاسماعيلي من الغرب استكمالاً للدور الذي قام به السلاجقة شرقاً، وبالتالي فإن رحلة الزعيم يحي بن إبراهيم الجدالي إلى الحج، تكون قد تأثرت بهذا المد السني خصوصاً وأن موسم الحج عادة ما يكون مناسبةً للفرق الإسلامية تتلقف فيها الحجاج لتنشر بينهم مبادئها وآراءها[62]، ومن غير المستبعد أن يكون الدعاة السنيون في مكة والمدينة والقيروان هم من بادر بالاتصال بيحي بن إبراهيم، وعرضوا عليه تعليم قومه شؤون الإسلام وأحكامه، أو لعلهم أحالوا الأمير الصنهاجي إلى قادة المالكية في القيروان لقربهم من بلاده نسبيا، ولدرايتهم بشؤون المغرب الإسلامي، ومن هنا يصبح داعية المرابطين الأول عبدالله بن ياسين وخلفاؤه مندرجين في سلسلة من الدعاة السنيين العباسيين[63].

كما أن محدودية الخصوم من أشاعرة وإباضيين واسماعيليين في صحراء الملثمين التي كانت تعرف وجود نحل وديانات وفرق تتراوح بين الأديان السماوية، والأفكار الوثنية(اليهودية، المجوسية، عقائد الشرك..الخ)، إلى جانب القبائل المعتنقة لآراء الفرق الإسلامية المبتدعة والتي لم يكن حضورها في المنطقة إلا سياسياً واقتصادياً، مما جعل مواجهتها من قبل المرابطين تغلب بالسيف والسنان لا بالقلم واللسان، وهو ما فتح المجال أمام عبد الله بن ياسين ليدعو للمذهب السني المالكي وينشره بين الصنهاجيين، ولعَّل هذه الخصوصية الدعوية هي التي جعلت بعض

(62) يتضح ذلك من طريقة قيام الدولة الفاطمية في المغرب؛ إذ اتصل الداعية عبدالله الشيعي بركب حجيج كتامة أثناء الحج وبعد عدة مقابلات اصطحبوه معهم إلى مرابعهم وفيها رابط في بلدة إكجان، وانطلق منها لمواجهة الأغالبة. نقلاً عن المقال السابق لحماه الله ولد السالم، ص15.

(63) حماه الله ولد السالم، نفس المقال، ص2.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الباحثين يعتبر أن الدعوة المرابطية في الصحراء قد قامت بنشر الإسلام السني، بدل المذهب الإباضي الذي كان قد انتشر في المنطقة على يد الدعاة الإباضيين الأوائل أمثال السمح بن عبد الأعلى المعافري، وعبد الرحمن بن رستم(64).

6- مراحل انتشار وتوسع الدعوة المرابطية:

هناك مراحل كانت قبل قيام الدولة المرابطية، ومراحل أخرى عاصرها ابن ياسين وأشرف عليها بنفسه، وبعضها الآخر قام بها أتباعه من بعده وهي كما يلي:

أ- مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام:

وفيها قام عبد الله بن ياسين بتعريف الناس بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، موضحاً لهم أركان الإسلام وقواعده على أصول منهج أهل السنة والجماعة، واهتم فيها بتنقية العقيدة الإسلامية للملثمين من الملوثات الشركية والوثنية التي خالطت عقيدتهم آنذاك، وبتعليم الناس الصلاة والزكاة وأحكام الصيام، بعدما وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين(65)، وحارب العادات السيئة والمحرمة التي وجدتهم عليها من زنا وسرقة والزواج بأكثر من أربع وغير ذلك، وأوضح للناس ضرورة الالتزام بالسنة النبوية التي هي بيان للقرآن الكريم، وعمل على تفسير نصوص الدين لهم بأسلوب يلائم عقولهم، وأزال الشبهات التي تعلقت بعقول الناس.

فقد كان همُّه هو جمع الناس على الإسلام والعمل به، ودعوة الناس إلى محبة أعمال الخير وكراهية أعمال الشر. بناءً على قوله تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمُ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ**﴾(66).

ب – مرحلة المرابطة واختيار العناصر التي تقوم بأمر الدعوة:

اشتهر في تاريخ المرابطين ما سمي برباط(67)ابن ياسين الذي أقامه في الحوض الأدنى لنهر السنغال سنة(433هـ/1040م) برفقة الأمير يحي بن إبراهيم، ودخل معهما سبعةٌ من أتباعه المخلصين من قبيلة جدالة، وأقاموا فيه ثلاثة أشهر يعبدون الله حتى تسامع الناس بهم، وبدأ

---

(64) نفس المقال، ص ص2،5 بتصرف.

(65) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص78.

(66) سورة البقرة، الآية:151.

(67) كان رباط السنغال الذي أسسه ابن ياسين منارة للعلم في تلك الصحراء القاحلة، وأصبح قطباً جذاباً لقبائل صنهاجة، كما وفر الأمن والاستقرار في تلك الديار الصحراوية البعيدة، فكان النواة الأولى لدولة المرابطين، إذ تمَّ فيه تشكيل مجلس شورى، وجماعة للحل والعقد، تطورت مع الأيام وأصبحت مرجعية عليا للملثمين. أنظر: علي الصلابي، نفس المرجع، ص ص169.172.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الواردون بالانضمام إليهم. وأخذ ابن ياسين يعلمهم القرآن ويستميلهم إلى الخير، وتكاثر عددهم حتى بلغ الألف رجل فسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وبعدما فقههم في دينهم قام فيهم خطيباً فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله ثم دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة(68).

وقام بعدها ابن ياسين بوضع شروطاً رآها ضرورية حتى لا يتأثر تنظيمه ومرحلته التي شرع فيها، فكان يختار أطهر الملثمين نفساً وأوفرهم قوةً وأقدرهم تحملاً وعلماً، وكان يطلب منهم أن يتخلوا عن أعرافهم وتقاليدهم وتصوراتهم المخالفة للإسلام، وبأن يدخلوا الإسلام بقلوب صافية ونفوس طاهرة تسعى لتحكيم شرع الله على الأفراد في المجتمع الجديد.

وقد عمل ابن ياسين جاهداً على تحكيم شرع الله في مجتمعه الجديد، واهتم اهتماماً بالغاً بالفقهاء والعلماء وكان يرفعهم مراتب عالية مما أدى إلى التفاف مجموعة منهم حوله، ساعدوه في دعوته وفي تربية الناس وتعليمهم وتحضيرهم للمرحلة الحاسمة، وكان لا يمنعه الحياء من طرد من لا يراه مناسباً لتحقيق هدفه المنشود(69).

ج – مرحلة الجهاد والغزو والمغالبة:

بعد أن قطع ابن ياسين بأصحابه مرحلة التكوين والتنظيم، وأصبح معه رجال يعتمد عليهم في تبليغ دعوته إلى الله، ورغبهم في ثواب الله تعالى وخوفهم من عقابه، بدأ في إرسال البعوث إلى القبائل لترغيب الناس في الإسلام، فلبى مجموعة من أشراف صنهاجة هذه الدعوة المحكمة والتفوا حوله، ثم أمر أتباعه وتلاميذه أن يذهب كل واحدٍ منهم إلى قبيلته ليدعوهم إلى العمل بشريعة الله ونبيه المصطفى؛ فإن تابوا وأنابوا فخلوا سبيلهم، وإن أبوا جهدناهم، وعندما أعرضوا عنهم خرج هو بنفسه، فجمع أشياخ القبائل ووعظهم وحذرهم من عقاب الله واستمر في ذلك سبعة أيام، فلم يزدادوا إلا فساداً وإعراضا، ولما يئس منهم أعلن الجهاد عليهم(70).

وتحركت جموع المرابطين أولاً صوب قبيلة جدالة في ثلاثة ألاف رجل، واشتبكوا معهم في معركة شرسة وهزموهم، وانقاد الباقون لأحكام الإسلام، ثم سار ابن ياسين إلى قبيلة لمتونة فانتصر عليهم ودخلوا في طاعته وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة، ثم مضى إلى قبائل مسوفة

---

(68) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(69) علي الصلابي، المرجع السابق، ص172.

(70) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص85.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

التي دخلت تحت لوائه وبايعته على ما بايعته جدالة ولمتونة، ولما شاهدت قبائل صنهاجة ذلك بادرت لمبايعة ابن ياسين والدخول في طاعته، وقلدها كثير من القبائل الصحراوية في ذلك[71].

وبعدها وضع ابن ياسين خطة تركزت على توزيع النابغين من تلامذته على القبائل التي دخلت في دعوته ليعلموها شرائع الإسلام، يأمرونهم بالصلاة والزكاة وإخراج العشر، وجعل لذلك بيت مال يجمعها فيه، وأخذ يجهز الجيوش ويغزوا القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء [72].

وبدأ في التخطيط للدولة التي شرع في تأسيسها على أسس دينية،

د – مرحلة توحيد قبائل المغرب الأقصى وضم الأندلس:

كان المغرب الأقصى في أوائل القرن الخامس هجري في محنة سياسية ودينية، حيث ظهرت فيه دعوات كفرية وأخرى بدعية منحرفة عن الإسلام، تمكن بعضها من أن يشكل كيانات سياسية، فأصبح حاله شبيهاً ببلاد الأندلس في زمن ملوك الطوائف، وكانت شعوبها كلها غارقة في الجهل والانحراف والظلم والجور، وكان علماء وفقهاء المرابطين على دراية بذلك، فعزموا القضاء على تلك الدول الطائفية الكفرية والمذاهب البدعية من خوارج ومعتزلة وروافض، وإزالة ظلم حكامها، وتوحيد المغرب على المنهج السُّنِّ المالكي[73].

ففي عام(447هـ/1055م)اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى ابن ياسين يرغبونه في القدوم إليهم ليخلصهم من ظلم حكام زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين الزناتي، فلباهم ابن ياسين الطلب، وخرجت جموع المرابطين في شهر صفر من سنة(447هـ/ 1055م) إلى بلاد درعة، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود بن وانودين. ودخل ابن ياسين سجلماسة فنظمها وجعل عليها حامية مرابطية، وأقفل عائداً إلى الصحراء بعد أن بلغه وفاة الأمير يحي الذي كان يتوسع في الصحراء وأخضع قسماً من بلاد السودان[74].

وقدم ابن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني في سنة(448هـ/1056م)، فغزى هذا الأخير بلاد السوس والمصامدة وأغمات، وتمكن المرابطين من فتحها، وقضوا على الروافض والوثنيين واليهود المنتشرين بها، وأعادوها إلى مذهب أهل السنة والجماعة[75]. وساروا بعدها

---

(71) نفس المصدر، ص80./ حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص41.

(72) ابن أبي زرع، نفس المصدر، ص80.

(73) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص42.

(74) علي الصلابي، المرجع السابق، ص181.

(75) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص81./ علي الصلابي، نفس المرجع، ص182.181.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

نحو قبائل برغواطة التي كانت على دين المجوس والكفر، فدارت بينهم حروب عظيمة أستشهد في إحداها عبد الله بن ياسين بعد إصابته بجروح بليغة حمل على إثرها إلى معسكر المرابطين[76]. و لم يلبث أن فارق الحياة[77]سنة(451هـ/1059م) بعد مسيرة من الدعوة والكفاح دامت اثنتين وعشرين عاماً وبعد أن وضع نواة الدولة المرابطية.

واتفق شيوخ المرابطين من بعده على مبايعة الأمير أبا بكر بن عمر للرياسة، فتمكن من إخضاع قبائل برغواطة وزناته ومكناسة ولواتة في سنة(452هـ/1060م)،ثم عاد إلى أغمات واتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقراً لإقامته، لكن وقوع القتال بين جدالة ولمتونة جعله يعود إلى الصحراء للصلح بينهما بعد أن عين ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب، وفيها قد استشهد في إحدى غزواته ضد قبائل الصحراء الوثنية سنة(480هـ/1087م)[78].

وتولى أمر المرابطين من بعده القائد يوسف بن تاشفين الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية وصانع مجدها التليد، وهو الذي بلغت في عهده أقصى توسعاتها بعد أن نجح في ضم الأندلس إليها في مرحلة ثانية لتوسيع الدعوة المرابطية وانتشارها، بعد هزيمته للأسبان وملكهم ألفونس في معركة الزلاقة الخالدة سنة(479هـ/1086م). ثم ضمه لدويلات ملوك الطوائف بالقوة عقب تحالفهم مع النصارى، وبعد فتوى من العلماء[79]، ومنها كان الأمير يوسف قد توجه إلى قرطبة لأخذ البيعة لابنه أبي الحسن علي في سنة(491هـ/1097م)، واشترط عليه أن ينشأ جيشاً مرابطياً ثابتاً في الأندلس يوزعه على سائر القواعد، وأوصاه بثلاثة وصايا إحداها:(أن يقبل من محسنِ أهلِ الأندلس، ويتجاوز عن مسيئِهم)[80].

(76) قبل خروج روحه جمع عبد الله بن ياسين شيوخ ورؤساء قومه وقال لهم:« يا معشر المرابطين، إنكم في بلاد أعدائكم وإني ميت من يومي هذا لا محالة، فإياكم أن تجبنوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا ألفةً وأعواناً على الحق، وإخواناً في ذات الله تعالى». وحذرهم من التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة. أنظر: ابن أبي زرع، نفس المصدر، ص84. / علي الصلابي، نفس المرجع، ص182.

(77) توفي عبد الله بن ياسين عشية يوم الأحد الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة(451هـ/1051م) حسب ما ذكره ابن أبي زرع ، ودفن بموضع يعرف بكريفلة بتامسنا على مقربة من مدينة الرباط، وبني على قبره مسجداً. أنظر: ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص84./ حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج1، ص275.

(78) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص84.

(79) من العلماء الذين أفتوا ليوسف بن تاشفين بضم الأندلس، الإمام أبو حامد الغزالي، وأبو بكر الطرطوشي الذين أفتوه بإزاحة الأمراء المتمردين والخائنين لعهد الله بعد معاهدتهم ألفونس على محاربة المسلمين، وذلك من أجل توحيد صفوف المسلمين، لتدخل تحت الخلافة الإسلامية ببغداد.أنظر: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج6،ص187./حسن محمود، المرجع السابق، ص302.

(80) محمد القاضي، مقال بعنوان: **البرتغال الإسلامية**، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، العدد20، السنة2007. ص23.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الثاني

دور عبد الله بن ياسين في تكوين العصبية الدينية المرابطية

قبل الحديث عن دور عبد الله بن ياسين في تكوين العصبية الدينية المرابطية يجب في البداية أن نشير إلى الدور الكبير الذي قام به الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي صاحب الفكرة الأولى والساعي بكل قوة إلى توحيد صفوف قبائل الملثمين وتصحيح عقيدتهم، وتفقيههم في أمور دينهم ودنياهم، فهو الذي كان له الفضل في استقدام عبد الله بن ياسين إلى ديار صنهاجة ومساعدته في دعوته، حيث تعاونا الاثنان معاً في إقامة أركان دولة المرابطين، فكان الأول هو الزعيم الروحي لهذه الدولة، وكان الثاني هو الزعيم السياسي لها.فمن يكون عبدالله بن ياسين؟.

1- التعريف بعبد الله بن ياسين وظروف اختياره للقيام بمهمة الدعوة:

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سيرين بن علي الجز ولي، أصله حسب ما ذكره البكري من بلدة– تماماناوت– في طرف صحراء غانا، درس على يد فقيه السوس وجاج بن زللو اللمطي، رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين، واجتهد في تحصيل العلوم الشرعية حتى أصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زللو، وعندما طلب الشيخ أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زللو، أن يرسل مع زعيم قبيلة جدالة يحي بن إبراهيم فقيهاً عالماً يعلم قومه أمور دينهم، وبعد أن رفض الجميع وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين للقيام بتلك المهمة وهو العارف بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم الصحراوية[1].

ومثلما رأينا مسبقاً فعندما توفي أبو عبد الله بن تيفاوت تولى أمر صنهاجة من بعده يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي استخلف في سنة(427هـ/1035م) ابنه إبراهيم بن يحيى وارتحل إلى المشرق برسم الحج، ولما أتمَّ حجه وزيارته همَّ بالرجوع إلى بلاده ماراً في طريق عودته بالقيروان فلقي بها الفقيه أبا عمران الفاسي[2]، وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه، فرآه هذا

---

(1) البكري، المصدر السابق، ص165./ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص9./ علي الصلابي، المرجع السابق، ص153.

(2) الإمام الكبير العلامة أبو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن أبي حاج البربري الغفجومي نسبةً إلى غفجوم بطن من زناته، وهو شيخ المالكية بالقيروان، وتلميذ أبي الحسن القابسي، دخل الأندلس وأخذ عن عبد الوارث بن سفيان، وحج عدة مرات، وأخذ علم الكلام ببغداد عن ابن الباقلاني، وقرأ على الحمامي، وكان إماماً في القراءات، بصيراً بالحديث، رأساً في الفقه، تخرج عنه خلق كثير في المذهب، توفي في الثالث عشر رمضان سنة ثلاثين وأربع مئة وله اثنتان وستون سنة. أنظر: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، للإمام الحنبلي الدمشقي، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، سنة1979. ج5، ص153.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الأخير محباً في الخير فأعجبه حاله، وسأله عن اسمه ونسبه وبلده وعن قومه وما ينتحلون من المذاهب؟ فقال:« إنهم قومٌ غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم».ثم اختبره الشيخ عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئاً إلا أنه وجده حريص على التعلم، صحيح النية.

وبعد هذا الحوار أخبر الأمير يحي الشيخ أن قومه يحبون الخير والتعلم لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، ويدرسهم العلم وشرائع الإسلام، وطلب منه أن يبعث معه أحد طلبته ليقوم بذلك، لكن تلامذة الشيخ استعصوا دخول أرض الصحراء، فما كان من الشيخ أبي عمران الفاسي إلا أن أرشد يحي بن إبراهيم إلى فقيه ببلدة– نفيس–[3] من أرض المصامدة اسمه واجاج بن زللو اللمطي، وأعطاه كتاباً ليوصله إليه يأمره فيه يبعث أحد من طلبته المتميزين بالعلم والورع وحسن السياسة معه لقومه، ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام، ويفقههم في دين الله.

فسار يحي بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس، فسلَّم عليه ودفع إليه الكتاب وكان ذلك في رجب من عام(430هـ/1038م).فما كان من الفقيه واجاج إلا أن ندب طلبته لما أمر به الشيخ أبو عمران، وقال لابن أخيه:(يا عمر: اذهب مع هذا السيد إلى الصحراء فعلم القبائل دين الله، ولك الثواب الجزيل والشكر الجميل). فأجابه في البداية، ثم جاءه في الغد فقال:(دعني من الصحراء فإن أهلها جاهلية، وقد ألفوا ما نشئوا عليه). وكان من طلبة الفقيه رجل اسمه عبد الله بن ياسين الجزولي فقال:(أيها الشيخ أرسلني معه والله المعين)[4].

فوافق الشيخ على طلب عبد الله بن ياسين الذي كان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة، فخرج مع يحي بن إبراهيم إلى الصحراء[5]وهو العارف بلغة وتقاليد قومه، لتبدأ دعوته من أجل تأسيس دعائم الدولة المرابطية، والشروع في الممارسة والتطبيق.

2– شروعه في مهمته الدعوية للمرابطين:

عندما وصل يحي بن إبراهيم إلى قبيلته بجدالة في عام(430هـ/1038م) وبرفقته الفقيه

---

(3) بلدة نفيس: من بلاد السوس تقع قرب أغمات (بالمغرب الأقصى) يسكنها قبائل من البربر أكثرهم من المصامدة ، كانت موجودة أيام البكري وقد ذكرها في كتابه المعجب، ص160. أنظر: الناصري، المصدر السابق، ص6.

(4) النويري شهاب الدين، **نهاية الإرب في فنون الأدب**، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة2004، ج24، ص140.

(5) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص ص7.5./ المبرد، المصدر السابق، ج8، ص328./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص78.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

عبد الله بن ياسين الجزولي وسألوه عن الفقيه فقال:« هذا حامل سنة رسول الله(ﷺ) قد جاء يعلمكم ما يلزم في دين الإسلام، فرحبوا بهما وأنزلوهما»[6]، وتلقاهما قبائل جدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما، وتيمنوا بالفقيه وبالغوا في إكرامه وبرِّه، فشرع عبد الله بن ياسين يعلمهم القرآن، ويقيم لهم رسم الدين، ويسوسهم بآداب الشرع، فانقادوا له انقياداً عظيما، ووالوه في ابتداء الأمر براً وتكريماً[7]. وأخذ الشيخ يربي أتباعه ويجتهد في تعليمهم الإسلام من كل جوانبه، وكان مما يكثر تعليمهم إياه هو إن تعارض شيء مع القرآن أو السنة فلا ينظر إليه، وأنه لابد من المحافظة على هذه الأصول، فالقرآن الكريم والسنة المطهرَّة هما مرجعًا لكل مسلم في التعرف على أحكام الإسلام، وصدق قول يحيى بن إبراهيم عنه حين قال وهو يعرفه على قومه:(هذا حامل سنة الرسول عليه السلام)[8].

وفي بداية مهمته عندما أنزله يحيى بن إبراهيم معه وجد عنده تسع نسوة، فسأله عنهنَّ، فقال هنَّ زوجاتي، فقال له الفقيه هذا شيءٌ لا يجوز في دين الإسلام وإنما يجوز لك أربع، فأجابه بالسمع والطاعة وفارق خمساً، ثم قال له إن جميع رؤساء جدالة ولمتونة مثل حالي، فانذِّرهم وعرِّفهم حكم الله، فخرج إليهم الفقيه ومعه يحيى وجميع الرؤساء فقال لهم:(بلغني أنكم تتزوجون بما شئتم من النساء حتى إن الشخص منكم يجمع بين العشرة وليس هذا من السنة، وإنما السنة والإسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر وله سعةٌ فيما شاء من ملك اليمين، ثم جعل يعلمهم أمور الدين ويبين لهم شرائع السنة)[9]. وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وتشدد ابن ياسين في نهيهم وكبحهم عن الكثير من مألوفاتهم الفاسدة فاطرحوه واستصعبوا علمه، وتركوا الأخذ عنه لما جشمهم من مشاق التكليف.[10]، وقالوا له أما ما ذكرت من الصلاة والزكاة فهو قريب، وأما قولك من قتل يُقتَل، ومن سرق يُقطَع، ومن زنا يُجلَد أو يُرجَم، فأمرٌ لا نلتزمه اذهب إلى غيرنا[11]. فعزلوه من الرأي والمشورة، وقطعوا منه

(6) ابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم الجزري، **الكامل في التاريخ**، مر: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، سنة1987، ج8، ص328.

(7) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص7./ابن الخطيب، المصدر السابق، ص9./ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4 ، ص8.

(8) ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص328./ النويري، المصدر السابق، ج24 ، ص140.

(9) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص78.

(10) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص8.7.

(11) ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص328.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مالهم، وانتبهوا داره وهدموها وأخذوا ما كان فيها، وخرج عبد الله بن ياسين منهم خائفاً[12].

فشكلت تلك الحادثة الصعوبات الأولى في طريق مسيرة ابن ياسين الدعوية.

3- العقبات الأولى في طريق دعوته ولزومه المرابطة:

في بداية دعوته لقي عبد الله بن ياسين كثيرًا من الصعاب، فقد وجد أكثر الملثمين لا يصلون ولا يعرفون من الإسلام إلاَّ اسمه، وعمَّ الجهل عليهم، وانحرفوا عن تعاليم العقيدة الصحيحة، وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم، فاصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف الذين ثاروا عليه وكادوا أن يقتلوه، وكنا مسبقاً رأينا كيف استقبلت القبائل الصنهاجية قدوم عبد الله بن ياسين في بداية دعوته إلى أنهم سرعان ما أجهضوها، لأنهم لا يستطيعون التخلي عن عاداتهم من زنا وقتل وسرقة وقطع الطريق، و لم يتقبلوا جلد الزاني وكل ما حدده الشرع وبين عقوبته. وبما أن الجهل كان منتشراً بين القبائل الصنهاجية فلابد أن يلقى ابن ياسين معارضة لدعوته، لصعوبة الالتزام بالواجبات الشرعية التي يؤكد عليها، وهذا حال كل الدعاة بما فيهم الرسل والأنبياء، وهي سنة الله تعالى في خلقه الذي قال:﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾[13].

وبعدما أعرضوا عن دعوته وثاروا عليه، عزم عبد الله بن ياسين على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام آنذاك، فلم يتركه يحيى بن إبراهيم لذلك وقال له:« إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك لخاصة في نفسي، وما علي في من ضلَّ من قومي. وأشار عليه قائلاً: هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة؟.قال: ما هو؟ قال: إنَّ ها هنا جزيرة في البحر. قال ابن خلدون: هو بحر النيل يحيط بها من جهاتها، يكون ضحضاحاً في المصيف يخاض بالأقدام، وغمراً في الشتاء يعبر بالزوارق، قال يحيى بن إبراهيم: وفيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر، ندخل فيها ونقتات من حلالها، ونعبد الله تعالى حتى نموت»[14].

ويذهب فريقٌ آخر إلى أنهما لجآ إلى ديار جدالة واختارا جزيرة صغيرة تقع في مواجهة الشاطئ على مقربة من بلدة أوليل قاعدة جدالة في الخليج، وأن هذه الجزيرة يسهل الخوض في الماء للوصول إليها إذا كان الجزر، وتركب إليها الزوارق إذا كان المد[15].

---

(12) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص9.

(13) سورة آل عمران، الآية: 142.

(14) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص78.79.

(15) نفس المصدر، ص79./ الناصري، المصدر السابق، ج2، ص8.7.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فقال ابن ياسين: إن هذا الرأي حسن، فهلُّم بنا فلندخلها على اسم الله، فدخلها ودخل معهما سبعةُ نفرٍ من جدالة، وابتنى عبد الله رباطه هناك، وأقام في أصحابه يعبدون الله تعالى مدة ثلاثة أشهر، فتسامع الناس بهم، فكثر الواردون عليهم والتوابون لديهم، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الخير، ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم من عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم، فلم تمر عليه إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل[16]، فسمَّاهم المرابطين للزومهم رابطته(رباطه)[17] مثلما رأينا، لتستمر دعوة ابن ياسين بعد أن اجتمع إليه من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل.

4- تركه المرابطة واستئناف الدعوة:

إن من حكمة عبد الله بن ياسين أنه لم يكن متهوراً يلقي بنفسه إلى التهلكة، بل انتظر حتى تفقه القوم ورسخ فيهم الدين فقام فيهم خطيباً فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه[18]. ثم ندبهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم:« يا معشر المرابطين إنكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل، ولن يغلب ألف من قلة، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في الله حق جهاده. فقالوا له: أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين لك ومطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا»[19].

فقال لهم:« أخرجوا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله و ابلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عمَّا هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين»[20]. ومن هنا تبدأ الدعوة الحقيقية الجماعية(الألف رجل) بعد أن كانت فردية[21]،

---

(16) الناصري، نفس المصدر، ج2، ص8.7./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(17) ابن أبي زرع، نفس المصدر، ص79.

(18) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص8.

(19) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(20) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص9.8./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(21) نذكر هنا أن رسول الله(ﷺ) حين بدأ الدعوة لوحده ولاقى من الصعاب ما لا يعد ولا يحصى، لكن وبفضل من الله عز وجل=

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فسار كل رجلٍ منهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عمَّا هم بسبيله، فلم يرفعوا بذلك رأساً، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه، وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها وقرأ عليهم حجة الله ودعاهم إلى التوبة، ورغبهم في الجنة وخوفهم من النار، وأقام ينذرهم سبعة أيام وهم في ذلك كله لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلا فسادا، فلمَّا يئِس منهم قال لأصحابه:« قد أبلغنا في الحجة، وأنذرنا وأعذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله»[22].

ومن هنا يتبين لنا مدى اعتدال منهج ابن ياسين في التربية والدعوة، فهو لم يكن يحب سفك الدماء، بل كان يفضل الدعوة والإصلاح حتى يمتثل المسلمون إلى التعاليم الصحيحة للشرع الإسلامي في حياتهم، وإن تمادوا في غيهم وإعراضهم وانعدمت معهم كل السبل، حكَّم فيهم السيف وأعلن عليهم الجهاد إلى أن يعودوا إلى رشدهم ودينهم، فيسود الحق ويمحق الباطل.

5- تخليه عن سياسة المسالمة واستعمال السيف لحماية دعوته:

بعدما يئس عبد الله بن ياسين من توحيد القبائل الصنهاجية تحت راية الإسلام عبر سياسة السلم القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب إصرارهم على الباطل، تحتَّم عليه تغيير سياسته إلى استخدام السيف، واستطاع بفضل هذه السياسة تحقيق ما أراده، بل نجده يمد نفوذه إلى قبائل المغرب ويوطد دعائم الدولة الناشئة، وبدأ بتوسيع حدودها وزيادة نفوذها، الأمر الذي أدى إلى تفوقها خاصةً في عهد خلفائه من بعده[23].

فبعد المبادرة الدعوية الشاملة التي قام بها ابن ياسين وإخوانه المرابطين لم يعد هناك مجال للحلول الوسطى، بل أنه أصبح هناك موقفين متناقضين؛ موقف جاهلي يصر على حالة التشرذم والتشتت الاجتماعي والانحطاط الخلقي، وآخر يبتغي حماية الأمة ومبادئها والعودة بها إلى طريق الحق، وتوحيد صفوفها وتحكيم الشرع الإسلامي في شؤون حياتها، وعلى هذا الأساس كان الصراع بين الموقفين وإن كان يبدو لأول وهلة أن أصحاب الموقف الباطل أطول باعاً وأكثر

= صارت الدعوة جماعية، وتأسست الدولة الإسلامية بالمدينة. وهنا نلاحظ التشابه بين دعوة نبي العزة عليه الصلاة والسلام، ومسار دعوة ابن ياسين.

(22) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص9./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(23) سالم أبو القاسم محمد غومة، رسالة ماجستير، **تطور المؤسسة العسكرية في دولتي المرابطين والموحدين من(668.415هـ/ 1269.1059م)** . جامعة ليبيا ، سنة(2004.2003م)، المقدمة: ص(ح. ط).

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

جمعاً، إلا أن أصحاب الحق أثبت قدماً وأشدَّ إصراراً.

وقد كانت بداية استعمال ابن ياسين للسلاح ضد الرافضين لدعوته بقبيلة جدالة فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين، فانهزموا بين يديه وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، وحسنت حالهم وأدوا ما يلزمهم من كل ما فرض الله عليهم، وكان ذلك في صفر سنة (434هـ/1042م)، ثم سار إلى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة، وسار بعدها إلى قبائل مسوفة فغزاهم حتى خضعوا له وبايعوه على السمع والطاعة، وحذت قبائل صنهاجة ولمتونة حذوهم في التوبة والمبايعة وأقروا له بالسمع والطاعة. وبذلك حقق ابن ياسين أولى النجاحات في طريق دعوته لتبدأ معها المعالم الأولى للدولة المرابطية في الظهور والارتسام.

وبعدها أخذ ابن ياسين ينظم جانب الدعوة والعبادة وسرعان ما التفت إلى الجانب الاقتصادي، حيث أمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يرفع إليه من أموال. وركز على الجانب العسكري بأن أخذ في شراء السلاح وإركاب الجيوش التي ألقى على كاهلها حماية خطاب ودعوة المرابطين، وتطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد التي سيطروا عليها، و لم يتجاهل أيضاً الجانب العلمي حيث:« بعث بمال كثير مما أجتمع لديه من الزكوات والأعشار والأخماس إلى طلبة العلم ببلاد المصامدة »[24].

وكانت هذه الالتفاتة نحو طلبة العلم إحدى فضائل ابن ياسين، بحيث لم يشغله عن هذا الجانب مسائل الإمارة الفتية ولا المشاركة في الأعمال العسكرية وقيادة الجيوش وإعدادها، وهو ما كان له أطيب الأثر في النفوس، ولاقت دعوته الارتياح التام في الأوساط العلمية المتمثلة بالربط والمدارس الفقهية آنذاك.

وساهم كل ذلك في التعريف بقائد المرابطين ودعوته، فأشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء وما تبعها من بلاد السودان وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب:« وأنه قام رجل بجدالة يدعو إلى الله تعالى وإلى الصراط المستقيم، ويحكم بما أنزل الله، وأنه متواضع زاهدٌ في الدنيا، وصار له ذكر في العالم، وتمكن ناموسه من القلوب، وأحبته الناس»[25]. وهو ما فتح لهم أبواب التوسع للدعوة المرابطية ونشرها في الاتجاهات المحيطة بهم كافة. وهذه هي ميزات دعوة

---

(24) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص9./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص80.

(25) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص10.9./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص80.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

عبد الله بن ياسين التي بدأها وحده حتى أصبح الآلاف يحملون نفس الشعار ونفس الخطاب، فدل ذلك على نجاحها[26].

6 – الأصول العلمية والفقهية التي ربى عليها أتباعه المرابطين:

يعتبر عبد الله بن ياسين من علماء أهل السنة والجماعة، مالكي المذهب، إستمد أصول فقهه من المالكية التي لها خاصيتها في الاستنباط واستخراج الأحكام رغم أنه كانت له اجتهاداته الخاصة التي أملتها عليه طبيعة دعوته التي عاشها، وتحرك بها وربى عليها أتباعه، ومن هذه الأصول مايلي:

أ – القـــرآن الكريم:

لقد نظر الإمام مالك رحمه الله إلى القرآن أنه قد شمل كل أمور الشريعة، وهو عمدة الدين يجب الأخذ والتصديق به لفظاً ومعنى، ظاهره وباطنه ومفهومه، و لم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين والمتكلمين، لذا اعتبر من قال بأن القرآن مخلوق زنديق وجب قتله،كما لم يعتبر الترجمة قرآناً يتلى تجوز الصلاة به[27].

وبناءً عليه فإن القرآن الكريم قد شكل عند عبد الله بن ياسين وأتباعه المرجعية العليا يجب الإذعان والتسليم لكل ما جاء فيه، وأمَّا كل ما تعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق فالقرآن لم يفرق بينها، فكلها تتضمن كلمات الله الهادية إلى أقوم سبيل، والمحذرة من كل ضلالة وغي، فكان هو وأتباعه على بينة من ربهم وبصيرة من دينهم، فلم تتحير عقولهم وترتاب قلوبهم نحو أي معتقد أو خلق أرشد إليه القرآن الكريم لإيمانهم العميق بقوله تعالى:﴿**لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[28].

وكان تدبر القرآن الكريم معيناً لابن ياسين وفقهاء المرابطين في استنباط الأحكام الشرعية، وهم الذين فهموا بأنه لم ينزل ليتلى على الأموات، بل ليعمل به الأحياء لينالوا به رحمة الله إتباعاً لقوله تعالى:﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[29].وعليه كان التمسك بكتاب الله عز وجل هو من أسباب قوة المرابطين، وتمكين الله لهم ولدولتهم التي

---

(26) عبد العالي بلامين، رسالة جامعية بعنوان، **مواقف المرابطين في دفع بغي السلاطين**، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، المملكة المغربية .(1426هـ/2005 م)، ص15.14.

(27) علي الصلابي، المرجع السابق، ص172.

(28) سورة فصلت، الآية:42.

(29) سورة الأنعام، الآية:155.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

حكمت بلاد المغرب والأندلس، وامتد حكمها قرابة القرن من الزمن من سنة(448هـ-542هـ/1056.1148م)[30].

ب – السنـــة النبوية:

اعتمد ابن ياسين على السنة النبوية في استنباط أحكام الشريعة الإسلامية، وألزم نفسه وأتباعه بمنهج الله تعالى، فالسُّنة عنده هي المنهج المفصل لتعاليم الإسلام وتطبيقه، وتربية النفس والأمـــة عليه والذي يتجسد في قوله تعـــالى:﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾[31].

فالقرآن الكريم هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام وعقائده وعبادته وأخلاقه ومعاملاته، والسُّنَّة هي البيان النظري والعملي للقرآن في كل ذلك، وقد رأى ابن ياسين وزعماء المرابطين وجوب إتباع الرسول(ﷺ)في أقواله وأفعاله وتقريراته عملاً بقوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾[32].

وقد جعل طاعة الرسول من طاعة الله تعالى:﴿**مَّنْ يُطِعْ الْرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾[33].

وأمرهم بإتباع الرسول في كل ما أمر ونهى التزاماً بقوله تعالى:﴿**وَمَا أَتَآكُمُ اَلْرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُواْ**﴾[34].وأمرهم بالاستجابة لدعوته واعتبر ما يدعوهم إليه هو النجاة:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾[35].

وهناك الكثير من الآيات التي تحث على إتباع الرسول الكريم والاقتداء به سعى ابن ياسين لتحقيقها في حياة المرابطين، الذين ظهرت أثار التزامهم بسنة النبي(ﷺ) في كل مناشط حياتهم، في التعلم والتزكية والجهاد والسياسة وغيرها من الأمور التي أقاموا على أساسها دولتهم[36].

ج – عمل أهل المدينة:

فالمدينة هي دار الهجرة وبها تنزل القرآن وأقام رسول الله(ﷺ) وأصحابه بها، وأهلها هم

(30) علي الصلابي، المرجع السابق، ص ص174.172 بتصرف.

(31) سورة آل عمران، الآية:164.

(32) سورة النساء، جزء من الآية:59.

(33) سورة النساء، جزء من الآية: 80.

(34) سورة الحشر، جزء من الآية:07.

(35) سورة الأنفال، جزء من الآية: 24.

(36) علي الصلابي، المرجع السابق، ص185.184.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أسبق الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله(ﷺ)، ولهذا رأى المالكيون أن عملهم بالاقتداء بعلماء أهل المدينة في أقوالهم وأفعالهم حجة، وقدمّوا ذلك على القياس وعلى خبر الحديث الواحد، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد الفقيه المصري:« إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن»(37).

وقد اهتمت المدرسة المالكية المغربية السنية عموماً بهذا المنهج، وسار عبد الله بن ياسين وفقهاء الدولة المرابطية عليه، و لم يرضوا بغيره بديلا.

د –قول الصحابة:

حيث جعل المالكية قول الصحابي الذي لا يعرف له مخالف حجة، واعتمدوا في ذلك على ما ذكره الإمام مالك في الموطأ، حيث اعتمد في الكثير من فتاواه على العديد من أقوال الصحابة الذين هم أعلم بالتأويل.

هـــ– المصالح المرسلة:

اعتبرها المالكية دليلاً شرعياً ومارسوها ممارسة عملية في الحياة، وأصّلوا لها أصولاً في جلب المنفعة ودفع المفسدة، وقاسوا بها الأمور التي لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، والمقاصد إما ضرورية كحفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وإما حاجية تؤدي إلى رفع الضيق والمشقة، وإما تحسينية تتعلق بمكارم الأخلاق.

و– القياس وسد الذرائع:

فأما القياس فيعد من الأصول المنهجية التي سار عليها عبد الله بن ياسين وربى عليها أتباعه، وسد الذرائع فقد سار عليه ابن ياسين في منهجه في تأصيل أصول فقه مذهبه، وسار على نهج فقهاء المالكية في الاقتداء بالإمام مالك رحمه الله الذي كان الأكثر في العمل بسد الذرائع حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه(38).

7– السياسة التي اتبعها ابن ياسين في سبيل تحقيق أهدافه:

اعتقد عبد الله بن ياسين أن قبائل الملثمين خرجت عن تعاليم الكتاب والسنة، وما دامت قد أحلت ما حرم الله وظّلت على تقاليدها القديمة كان لزاماً عليها أن تدخل في زمرة المرابطين، فتنضوي تحت لوائهم وتدخل في دعوتهم، وأن تتطهر من آثامها وتسلم إسلاماً جديداً، وأن

---

(37) القطان مناع، **تاريخ التشريع الإسلامي (التشريع والفقه)**، مكتبة المعارف، الرياض، ط2، سنة1996، ص353.

(38) علي الصلابي، المرجع السابق، ص ص185.186.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تبايع على الكتاب والسنة، وتعمل على إحياء تعاليم الإسلام ونشر مبادئه، وكان على كل فردٍ يريد أن يدخل في زمرة المرابطين، أن يخضع للالتزامات القاسية التي فرضها عبد الله بن ياسين على أتباعه في رباط السنغال. وهي أن يكفر المريد عن خطاياه السابقة ويحاسب عليها، فيضرب بالسياط حد السارق والزاني وشارب الخمر؛ أما من سالم وأسلم وتطهر راضياً فله ما للمرابطين وعليه ما عليهم، أما من أبى واستكبر فليس له إلا السيف يحكمه المرابطون في عنقه(39).

وكان ابن ياسين يجمع الخارجين عن دعوته من المعاندين والمشركين ويحكم السيف في رقابهم، وربما كان مضطراً إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات، وأنه لم يعمد إليها حباً في إراقة الدماء وإنما من أجل أهداف سامية عزم على تحقيقها بالسلم أو بالحرب، وهو ما لم يعجب معلمه الأول الفقيه وجاج بن زللو الذي أخذ عليه إفراطه في إراقة الدماء وعمله على فرض الإسلام بالسيف(40). فهو لم يتصور أن تلميذه الفقيه المربي سيتجاوز هذا الدور وسيصبح صاحب رسالة ومذهب في الحياة، كما أنَّ عمده إلى السيف كان بعد أن خابت سياسة المسالمة، ولخوض ميدان الجهاد في سبيل نشر الإسلام، ورفع راية الملثمين وإتمام وحدتهم، ولم ينكر ابن ياسين استعمال هذه السياسة من أجل تحقيق أهدافه(41).

وفي إعتقاده كان ابن ياسين يظن أنه حين لجأ إلى القوة لم يأثم ولم يخطئ، فقد كتب إلى معلمه يقول: (أما إنكارك علي ما فعلت، وندامتك على إرسالي، فإنك أرسلتني إلى أمةٍ كانت جاهلية، يخرج أحدهم ابنه أو ابنته لرعي السوام، فيعزبان في المرعى، فتاتي المرأة حاملاً من أخيها ولا ينكرون ذلك، وليس دأبهم إلا اغارات بعضهم على بعض، وقتل بعضهم البعض ولادِيَةَ عندهم من الدماء، ولا حرمة عندهم للحريم ولا توقى بينهم في الأموال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم، فمن قبل واليته، ومن تولى أرديته، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته. والسلام)(42).

كما أن عبد الله بن ياسين لم يحكم السيف وحده، بل كان يلجأ إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب المسلمين الجدد وترغيبهم في الدعوة الجديدة حتى يؤمنوا بها إيماناً صادقاً، كإسقاط المغارم

---

(39) حسن محمود، المرجع السابق، ص155.

(40) النويري، المصدر السابق، ج24، ص42 ./ حسن محمود، نفس المرجع، ص156.

(41) حسن محمود، نفس المرجع، ص156.

(42) النويري، المصدر السابق، ج24، ص143.142.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والمكوس والغاء الضرائب الجائرة التي كان يفرضها الحكام على الرعية، واكتفى بما أوجبه الشرع في ذلك من زكاة وعشر، وفرض على الأغنياء الصدقات للفقراء[43]، وقسَّم الغنائم والأسلاب فجعلها فيئًا للمرابطين، وأقام بيت مال للمسلمين[44].

ولم يغفل ابن ياسين أمر الدعاية للدولة الجديدة ونشر أخبارها بين الناس، فكان يبعث أموال الزكاة والأعشار إلى طلبة المصامدة[45]، وفقهائها وقضاتها ومحتاجيها هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد واصل رسالته في تعليم الناس حتى خلق في الصحراء جواً من العلم والمعرفة، وأدى ذلك إلى خلق جيل من الفقهاء الصنهاجيين عرفوا بالصلاح والورع والتقوى من أمثال العالم الفقيه لمتاد بن نصير اللَّمتوني الذي كان يضرب المثل بفتياه في الصحراء[46]، وميمون بن ياسين الصنهاجي اللَّمتوني الذي رحل إلى الأندلس محدثاً وراوياً، بل إن أمراء المرابطين أنفسهم قد أخذوا بنصيب وافر من العلم الذي بثه عبد الله بن ياسين بينهم[47].

وبهذه السياسة استطاع ابن ياسين أن يسمو بالمرابطين الذين كانوا يعيشون في بيداء الجهل، ويعتمدون على السلب والنهب إلى عصبة مجاهدة غايتها الدفاع عن الدين الإسلامي وديار وأهله، وبفضل هذه الصفات الشخصية التي كان يتمتع بها وسيرته الطيبة، واصطناع التقشف وإذلال النفس بكثرة الصيام[48]، وقوة الحجة، والقدرة على التأثير في سامعيه وعلمه الغزير، تمكن ابن ياسين من قلوب أصحابه، وليس غريباً أن ينظر إليه المرابطين كفقيه مصلح أو زعيم، بل نظروا إليه على أنه ولي من أولياء الله وأخذوا ينسبون إليه الخوارق والمعجزات، تحفظ أجوبته وفتاويه فلا يعدِل القوم عنها، وظَّلُّوا بعد وفاته لا يقدمون أحداً للصلاة ممن لم يصلي خلفه ونعم بصحبته[49]، وظَّل قبره يحج إليه الناس من كافة الجهات متبركين به[50].

---

(43) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص82./ ابن خلدون، المصدر السابق، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص184.

(44) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص80.

(45) حسن محمود، المرجع السابق، ص158./ ابن أبي رزع، نفس المصدر، ص81.

(46) القاضي عياض، المصدر السابق، ج8، ص80./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص144.

(47) حسن محمود، المرجع السابق، ص158.

(48) البكري، المصدر السابق، ص168./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص84.

(49) البكري، المصدر السابق، ص169./ حسن محمود، المرجع السابق، ص166.165.

(50) دفن ابن ياسين بمكان يسمى كريفلة بتامسنا، ولكن يبدوا أن الموحدين قد أخفوا معالمه انتقاماً منه، لكنهم لم يستطيعوا أن يخفوا سيرته التي ظَّلَّ الناس يتناقلونها جيلاً بعد آخر. أنظر: حسن محمود، المرجع السابق، ص166.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الثالث

العصبية الدينية عند المرابطين– المظاهر و الآثار–

1– مظاهر العصبية الدينية في دولة المرابطين:

جعل الله سبحانه وتعالى بين الحاكم والمحكوم حقوقاً وواجبات متبادلة بينتها الشريعة الإسلامية ومنها قوله تعالى:﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ**﴾[1].وقوله أيضاً: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[2].وقد كانت أحكام الشريعة حاضرة في دولة المرابطين وفوق الجميع، يخضع لها الحكام والمحكومين ومن مظاهرها:

أ– من جانب الحكـــام:

١– الحفاظ على سلامة عقيدة الأمة:

وذلك عن طريق حفظ الدين على أصوله الثابتة وما أجمع عليه سلف الأمة من التمسك بالكتاب والسنة والإجماع، وهو ما كان سبباً في حماية المرابطين والبلاد التي فتحتوها من التفرق في الدين والزيغ عن السبيل الصحيح عملاً بقوله تعـــالى:﴿ **وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ** ﴾[3]. ومثلما رأينا فإن الالتزام بالدين وتعاليمه الصحيحة التي جاءت في الكتاب والسنة، كانت هي الأساس الذي ارتكزت عليه دعوة عبد الله بن ياسين من البداية، وأكمل الفقهاء والأمراء المرابطين الرسالة من بعده، فقد استخدم يوسف بن تاشفين كل سلطانه في حماية أصول الدين وشجع العلماء والفقهاء على نشرها وحمل الناس عليها.

٢ – إعداد الأمة للجهاد وحفظ ما وضعت الشريعة لأجله:

تدل مسيرة المرابطين منذ خروجهم من رباط عبد الله بن ياسين على أنهم قومٌ مجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله ودينه الحق الذي جاء به رسوله الكريم، وأنَّ قادتهم قد قاموا بجهاد كبير ضد الوثنيين والمجوس والدجالين في بلاد الصحراء والمغرب، وضد النصارى في الأندلس، واستمر ابن تاشفين بعد القادة الأوائل في قتال أهل الرِّدّة وغلاة المبتدعة، وتوحيد القبائل الخارجة عن سلطة الدولة، وقام بجهاد الكفرة حتى أسلموا أو دخلوا في ذِّمة المسلمين، قياماً بحق الله تعالى في ظهور دينه على الدين كله، وقام بحفظ الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك،

---

(1) سورة النساء، جزء من الآية: 58.

(2) سورة النساء، جزء من الآية: 59.

3) سورة آل عمران، جزء من الآية: 103.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وتحفظ حقوق العباد من أي إتلاف واستهلاك[4].

٣- التزام الشرع في تحصيل الصدقات والزكاة والخراج والفيء:

شرع عبد الله بن ياسين في ذلك منذ بداية دعوته وغزواته ضد القبائل الصنهاجية، وجعل لذلك بيت مال يجمعها فيه لتجهيز الجيوش وشراء السلاح وغزو القبائل،كما قام يوسف بن تاشفين بالإشراف بنفسه على جباية الأموال وصرف الزكاة في مصارفها الشرعية من غير حيف ولا عسف، فكانت من مصادر دولة المرابطين الزكاة والخراج والفيء وغيرها، وكان لا يأخذ الضرائب والمكوس بل أسقطها، وإنما يأخذ المال من حلِّه ويضعه في حقه ولا يمنعه من مستحقه[5].

٤ – الاعتماد على نظام الشورى في اختيار الحاكم:

كان النظام السائد في إمارة المسلمين عند المرابطين يعتمد على اختيار الأمير وفق مبدأ الشورى، وكانوا حريصين على تطبيق قوله تعالى:﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾[6]. فقد كان المرابطون يتشاورون في الوسائل التي تعين على تمكين الحق وإظهار الصواب ونشر الصلاح بين العباد، فكانت الشورى هي الأساس الذي اعتمده المرابطون في نظام حكمهم في بداية دولتهم، فكانوا يختارون أميرهم بكل الحرية ويتِّم تعينه بعقد مجلس من زعماء القبائل والعلماء والفقهاء والولاة، وبهذه الطريقة تمَّ اختيار عبد الله بن ياسين الذي لم يحرص على استمرار الإمارة في أسرته، ولم يباشر أي ضغط في اختيار الأمير يحي بن عمر ثم أخاه أبا بكر لتولي أمر المرابطين؛ بل كانت وصيته الأخيرة للمرابطين حين احتضاره هي تحذيرهم من التحاسد والتنافس على الرياسة، فهو لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثي، وكان يرى تولية الأصلح والأحق.

أما يوسف بن تاشفين فقد خشي من أن تعُّم الفوضى من بعده وتنفك الوحدة وتنتهي بذلك الدعوة لذلك عين ابنه علي من بعده ولياً للعهد، بعد أن استشار الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة في الأمر سنة(495هـ/1101م) وناقشهم

---

(4) الماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تح: أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، ط1، سنة1989. ص22.

(5) علي الصلابي، المرجع السابق، ص248.

(6) سورة الشورى، الآية:38.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

في الأسباب التي دفعته إلى ذلك، فوافقه الجميع على الأمر[7]. وهكذا حدث التحول في اختيار الحاكم عند المرابطين من الشورى إلى الوراثة[8]؛ إذ أصبح الحكم خاصاً بأسرة يوسف بن تاشفين تولاه بعده أربعة أفراد من أسرته وهم علي بن يوسف، وتاشفين بن علي، وإبراهيم بن تاشفين، وإسحاق بن علي إلى أن سقطت دولتهم سنة(541هـ/1146م)[9].

٥ – تحري الأمانة في اختيار المناصب:

فقد حرص أمراء الدولة المرابطية وعلى رأسهم الأمير يوسف بن تاشفين على اختيار الأمناء والأكفاء من الناس، وإسناد إليهم إدارة الولايات والقضاء وقيادات الجنود وإصدار الفتية، وحرصوا على أن يتولى كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجدونه لذلك العمل، واختاروا أحسن العناصر لإدارة شؤون دولتهم كي يقوموا بواجبهم نحو الرعية على أكمل وجه يرضاه الله[10]. فقد كان هدف الأمراء المرابطين هو توخي العدالة والإنصاف والاهتمام بشؤون الرعية عند إختيارهم للقضاة والعمال، فهم أكثر المسؤولين احتكاكاً بالناس لطبيعة عملهم، لذلك كان يتم التأكيد عليهم بأن يكونوا قدوةً ومثلاً في توخي العدل والحرص في تصرفاتهم[11].

٦ – حماية الأمة من المفسدين والمخربين والأعداء:

بحيث استطاع الأمير يوسف بن تاشفين أن يؤمن السبل في بلاده ويبسط الأمن، ويقمع الأخطار التي هددت دولة المرابطين وشعبها من المارقين والمفسدين وأعداء الدين ومن كل عدوٍ يتربص بها، ونظَّم طرق الأسفار والتجارة، واتخذ كل الأسباب المتاحة من أجل تحقيق هذه الغاية من تحصين الثغور وتزويدها بالقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون بها محرماً ويسفكون دماً لمسلم أو معاهد، وقضى على كل محاولات أعداء دولته من البرغواطيين والمغراويين والحماديين الذين حاولوا ضَّم أراضي دولته إليهم وألزمهم احترامه، وقضى على دويلات الكفر والإلحاد، واستطاع أن يوحد القبائل المغربية تحت راية الدولة الإسلامية إما بالإصلاح بين القبائل المتناحرة، أو باستعمال القوة مع من استعصى وسبيله في ذلك:« تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يعتدي ظالم ولا

---

(7) علي الصلابي، نفس المرجع، ص264.263.

(8) نفس المرجع، ص264.

(9) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص68.

(10) علي الصلابي، المرجع السابق، ص ص248.246.

(11) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص32.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يضعف مظلوم»[12].[13].

ب- من جانب الرعيـــة:

١- الطاعة للأمراء:

كان المسلمين في دولة المرابطين يتقربون إلى الله بطاعة أميرهم والانقياد له في كل معروف، ويرون ذلك حق ثابت عليهم لحكامهم بنص القرآن وصريح السنة، وكانت طاعة الحكام عندهم مقيدة بطاعة الله ورسوله عملاً بقوله(ﷺ):« لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»[14].

٢- التلبية والنصرة لهم:

كان المسلمون في دولة المرابطين يعاضدون وينصرون أمرائهم في كل أمور دينهم ودنياهم وفي جهادهم لعدوِّهم مقتفين قوله تعالى:﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[15].وكانوا يبجلون ويكرمون من حكامهم كل من يقيم حدود الله ويدافعون عنه، ويلبون دعواه لهم في السلم والحرب عاملين في ذلك بقوله(ﷺ):« إن من إجلال الله تعالى:إكرام ذي الشيبة المسلم،وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[16].

٣- بذل النصيحة لهم:

قامت الدولة المرابطية على النصح المتبادل بين الحكام والمحكومين، فقد كان الأمراء المرابطين يستمعون للنصح من رعيتهم في تواضعٍ جم واستعداد نفسي رفيع مما يدل على عمق التربية التي تحصلوا عليها منذ عهد عبد الله بن ياسين. ومن الأمثلة الدالة على ذلك نجد أن أحد الوزراء يطلب من الأمير يوسف بن تاشفين عدم تجاوز البحر في جهاده ضد النصارى حينما استنجد به ملك اشبيلية المعتمد ابن عباد حتى يسلمه الجزيرة الخضراء، فسمع الأمير لنصيحته و لم يعبر البحر حتى تحصل على الجزيرة التي استفاد منها كثيراً في جهاده ضد النصارى بالأندلس، وقد أكرم الله حكام المرابطين ببطانة صالحة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر،

---

(12) الماوردي، المصدر السابق، ص22.

(13) علي الصلابي، المرجع السابق، ص ص228.222.

(14) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ح رقم: 840، ص1024.

(15) سورة المائدة، جزء من الآية:02.

(16) أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، **سنن أبي داود**، تعل: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض، د(ط٨ س)، كتاب الأدب، باب تنزيل الناس منازلهم، ح رقم:4843، ص877.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مرشدة للصواب، ناصحةً للراعي والرعية، لا تخشى إلا الله[17].

٤ –التقويم لأخطائهم وتصويب اجتهاداتهم:

كان المسلمون في كنف الدولة المرابطية لا يجدون أدنى حرج ولا خوف أو مانع في إيصال ما يرونه من النصح والإرشاد لحكامهم، وتقويم الأخطاء التي يقعون فيها أثناء اجتهادهم في إدارة شؤون الحكم، وهو المبدأ الذي استقر في مفهوم الصحابة منذ ظهور الإسلام ورسخه عبد الله بن ياسين في أذهان أتباعه من المرابطين وسار عليه خلفائه من بعده، فهذا القائد يوسف بن تاشفين عندما دخل الأندلس للجهاد ضد النصارى أرسل إلى أهل المرية من ممالك الأندلس وذكر لهم أن جماعةً أفتوه بجواز طلب العون اقتداءً بالخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ)، فرَّد قاضي المرية وهو–أبو عبد الله بن الفراء– الذي كان من أهل الدين والورع على الأمير يوسف رداً فيه نقداً وتقويماً ونصح[18]، فتقبل الأمير نقده ونصحه وتقويمه وما رآه حقاً و لم يعاقبه[19].

2– مظاهر أخرى للعصبية الدينية عند المرابطين:

١ – التشدد في تطبيق أحكام الدين:

في ظِّل الدولة المرابطية حرص ولاة الأمور على تطبيق أحكام الدين وتنفيذ تعاليمه بين أفراد المجتمع، والتشدد في إقامة الشعائر الدينية من صلاة وزكاة وصوم وغير ذلك من العبادات، وكان ذلك استجابةً لطبيعة دعوة عبد الله بن ياسين ونظام الدولة القائم على أسس دينية، فقد كان الطريق الذي التزمه ابن ياسين والأمراء المرابطين من بعده هو متابعة تنفيذ أحكام الدين ومؤاخذة المتخلفين بالعقاب الذي يصل إلى حد القتل، واتخذ ابن ياسين منهجاً متشدداً في قبول المنظمين إلى دعوته من أبناء القبائل المختلفة إذ كان لابد من إسلام جديد للعضو المنظم[20].

وحتى يتم هذا الإسلام الجديد لابد أن يتطهر من ذنوبه السابقة وذلك بافتراض أنه ارتكبها

---

(17) علي الصلابي، المرجع السابق، ص250.

(18) هذا نص جواب القاضي ليوسف بن تاشفين:(أما بعد، ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخيري عن ذلك، وإن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب(ﷺ) اقتضاها وكان صاحب رسول الله(ﷺ) ضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله (ﷺ) ولا بضجيعه في قبره، ولا من يشك في عدله، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوه بمنزلة في العدل، فالله سائلهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاه عمر حتى دخل مسجد رسول(ﷺ) وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم، فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد، ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذ تستوجب ذلك والسلام). أنظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص119.

(19) علي الصلابي، المرجع السابق، ص ص252.250.

(20) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص80.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فيقام عليه حد الزِّنا وحد السرقة وحد شارب الخمر والافتراء، وإذا اعترف بأنه قتل أحداً فإنه يقتل[21]، فإذا ما طهر من ذنوبه أصبح صالحاً للانضمام للدعوة الجديدة، وعُلِّم قواعد الدين والإسلام الصحيح. ولا شك أن هذا المسلك فيه الكثير من التعنت من جانب ابن ياسين يعتقد أنه لم يسبقه فيه أحد من الفقهاء، وربما كان يهدف من ورائه إلى سبر مدى صلاحية أتباعه في تحمل مشقات الدعوة، فإذا ما تحمل العضو الجديد التعذيب كان قادراً على تحمل أعباء الدعوة والجهاد في سبيل الله الذي هو ركن من أركان دعوة عبد الله بن ياسين[22].

وإذا حاولنا أن نتبين مدى اهتمام ابن ياسين بمختلف الشعائر والعبادات لوجدنا أن إقامة الصلاة وتأديتها تحتل ركناً أساسياً في اهتمامه بكونها الركن الأول من أركان العبادة بعد الشهادتين، لذا كان ابن ياسين يلزم أتباعه بالمواظبة على الصلاة وتأديتها مع الجماعة، ومن تخلف عنها ضُرب عشرون سوطاً[23]، وربما كان ذلك لجهلهم بأركان الصلاة حتى تصح صلاتهم، وقد أدى هذا العقاب الصارم الذي فرضه ابن ياسين مثلما أشرنا إليه سابقاً إلى أن الكثير منهم كان يدخل الصلاة بغير وضوء وذلك إذا حان وقتها خشية العقوبة[24]. أما الزكاة التي هي ركن من أركان الدين فقد بيَّن ابن ياسين لأتباعه مقاديرها وحددها لهم وفق معايير الشرع، وقضى على كل المغارم والأموال التي كانت تخالف أحكام الدين[25].

وإلى جانب هذه الجهود التي بذلها ابن ياسين وأتباعه من الأمراء المرابطين في دفع الشعب إلى الالتزام بأحكام الدين وتأدية فرائضه، فإنهم لم يدَّخروا أدنى جهداً في محاربة المنكرات التي تظهر بوادرها في المجتمع ومن ذلك محاربة الخمر وإقامة الحد على شاربها[26]، وردع الزِّنا والسرقات وإقامة الحدود في حق مرتكبيها، والقضاء على البدع والضلالات والتصدي لأصحابها ومعاقبتهم مثلما وقع مع بدعة برغواطة وإحراق كتاب الإحياء لأبو حامد الغزالي. وعليه عاش المجتمع في ظِّل الدولة المرابطية محافظاً على تأدية الفروض الدينية، وملتزماً بأحكام الشرع، ومن تهاون أو تكاسل في تأديتها فإنه يتلقى الردع من ولاة الأمر الذي يعود به إلى

---

(21) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص16./ البكري، المصدر السابق، ص169.

(22) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص469.468.

(23) البكري، المصدر السابق، ص169./ ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص16.

(24) البكري، نفس المصدر، ص170./ ابن عذاري المراكشي، نفس المصدر، ج4، ص17.

(25) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص81.

(26) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص472.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الطريق السليم والقويم[27].

٢- الاعتماد على العلماء والفقهاء في إدارة شؤون الدولة:

احتل العلماء والفقهاء في دولة المرابطين منزلةٍ رفيعة وسيطروا على مجريات الأمور، ومرَّد ذلك إلى أن دولة المرابطين قد قامت على أساس ديني مستلهم من الدعوة الإصلاحية التي قادها عبدالله بن ياسين في صحراء المرابطين والقادة الأوائل للدولة الذين تربوا في رباطه، حيث درسوا أسس الدين الصحيحة ومبادئه القويمة.

ومن هنا كان المبدأ الديني هو القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها الدولة في سياستها، وبالتالي فإن القائمين بشؤون الدين والمشتغلين بعلومه قد احتلوا مكانة مرموقة في المجتمع المرابطي، وبجانب ذلك فإن التكريم والتقدير من أمراء الدولة قد زاد من مكانتهم ونفوذهم، فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين كان محباً للعلماء معظماً لمكانتهم[28]. إذ يقول ابن أبي زرع موضحاً ذلك:« وكان أي يوسف بن تاشفين محباً للعلماء والفقهاء الصلحاء، مقرباً لهم صادراً عن رأيهم متكرماً لهم»[29].

ولم يكن التكريم والترحيب قاصراً على علماء المغرب فقط؛ بل رحب الأمير يوسف بكل العلماء وخاصةً علماء الأندلس الذين سارعوا إلى عاصمة المرابطين مراكش ليكونوا في ظَّل ورعاية أمير المسلمين. يقول صاحب المعجب:« فانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزية من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم»[30]، وسار ابنه علي بن يوسف على نفس السياسة؛ إذ كان محباً للعلماء والفقهاء مكرماً لهم[31]. يقول المراكشي:« واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين»[32]. وكان يخرج بنفسه لزيارة العلماء وتكريمهم، ومن ذلك خروجه لزيارة-ابن بلارزج- أحد علماء المالكية، وكان عبداً صالحاً ومات بهسكورة سنة(540هـ/1145م)[33].

وقد زاد هذا التكريم والتقدير للعلماء نفوذاً وسيطرةً وأصبحوا هم المؤثرين في مجريات

---

(29) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص88./حسن علي حسن، المرجع السابق، ص336، 337.

(30) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص162.

(31) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص131.

(32) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ، ص171.

(33) التادلي، أبي يعقوب يوسف بن يحي المعروف بابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تح: أحمد التوفيق، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، سنة1984، ص152.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الأمور، ويظهر ذلك من الدور الذي لعبوه في استيلاء المرابطين على الأندلس، ففقهاء الأندلس هم الذين شرحوا للأمير يوسف بن تاشفين أحوالهم ورغبوه في المجيء إلى الأندلس لتخليصها من ظلم الملوك الفاسدين،كما أن الأمير يوسف لم يشرع في تنفيذ خطة القضاء على ملوك الطوائف حتى استفتى الفقهاء والعلماء في الأمر، وبعد أن أخضع يوسف بن تاشفين الأندلس عسكرياً، أخبره العلماء فيها بأن طاعته غير واجبة حتى يأتيه التأييد من الخليفة العباسي ببغداد، فعمل بنصيحتهم وبايع الخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله[34].

وفي عهد ابنه الأمير علي أصبح للفقهاء والعلماء تدخل في كل شؤون الدولة حسب قول المراكشي:« واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء »[35]. كما كان القضاة لا يصدرون أحكامهم إلا بمشورة أربعة من الفقهاء[36]، ومن ثمَّ صارت لهم مكانة ونفوذ في المجتمع، والفقهاء هم الذين أشاروا على الأمير علي بن يوسف بحرق كتاب الإحياء للغزالي حين أحسوا منه النيل من مكانتهم ومنزلتهم، فأمر الأمير بحرقه في جميع أنحاء مملكته،كما اتخذ المرابطين الفقهاء للتهذيب بينهم، ويذكر ابن خلدون ذلك فيقول: « فقد نقل عنهم من اتخاذ المتعلمين لأحكام دين الله لصبيانهم والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتناء الأئمة للصلاة في نواديهم، وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضياهم»[37].

وهكذا أصبح الفقهاء والعلماء طبقة مرهوبة الجانب، مسموعة الكلمة، وكانت منزلتهم وما وصلوا إليه من سيطرة على مقاليد الأمور عاملاً من عوامل التي دعت ابن تومرت لمهاجمتهم في دعوته، ورماهم بالجمود والتمسك الزائد بالفروع وتركهم الأصول[38].

٣ –شغف المرابطين بالعلم والتفقه في الدين:

عكف الكثير من العلماء في عصر المرابطين على دراسة علوم الدين من فقه وحديث وتفسير، وعلى الزهد والتقشف والورع، وقد ذكر القاضي عياض منهم الشيخ لمتاد بن نصير اللمتوني، الذي بلغ منزلةً كبيرة في علمه حتى أن المثل كان يضرب بفتواه في بلاد الصحراء

---

(34) ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص143.

(35) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص171.

(36) نفس المصدر، ص171.

(37) عبد الطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين...،ص144.

(38) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص ص336.338.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وتعظيم أمرها[39].ومنهم أيضاً أبو عبد الملك مروان اللَّمتوني، وأبو إسحاق باران بن يحي المسوفي، والفقيه أبو القاسم بن عذرا وأخوه سليمان بن عذرا الجز ولي، وكانا قد توليا أمور المرابطين الدينية بعد وفاة الشيخ عبد الله بن ياسين، ومن شيوخ المرابطين الشيخ أيضاً أبو محمد يرزجان بن محمد الجزولي الضرير الذي قدم مراكش، وكان عالماً فاضلاً بصيراً بمذهب مالك، صاحب الإمام أبي بكر بن العربي[40].

وكان بعض الأمراء الذين لا تمكنهم الظروف من التعلم يرسلون في طلب أعلام الفقهاء والعلماء إلى قصورهم، فيجلسون إليهم ويأخذون العلم عنهم ويتفقهون في الدين على أيدهم، فكان الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين يرسل في طلب الشيخ الفقيه الجليل علي الصدفي[41] ليسمع عليه الحديث وينتفع بعلمه وفضله، واتصل به الفتح بن خاقان[42] الكاتب المشهور، وباسمه طرز كتاب قلائد العقيان.

كما كان الأمير علي بن يوسف يرسل أبنائه إلى الأندلس لتلقي العلم، ويتشدد في تعليمهم، ويظهر ذلك من الرسالة التي أرسلها إلى ابنه أبي بكر الذي كان يقوم على رعايته وتأديبه الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان بن زهر، وعلى ما يبدو أن الأمير أبي بكر لم يكن مكباً على الدرس، منصرفاً إلى التحصيل مما دعا والده إلى تقريعه ونهره في الرسالة التي قال فيها:« كتابنا ألهمك الله رشد نفسك ومن حضره مراكش بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان بن الوزير أبي العلاء بن زهر، محل أبينا يشكو ما يكابده ويقاسيه من تضريبك، فأمسِّك عليك رمقك، وخذ من الأمور ما يسر، وإلا أنفذناك إلى مايورقة »[43]. وحسب قول ابن خلدون السابق؛ فقد اتخذ المرابطين الفقهاء للتهذيب بينهم وتعليم صبيانهم أحكام الدين الله.

٤ – انتعاش العلوم الدينية والمؤلفات فيها:

كان للروح الدينية التي سادت في الدولة المرابطية واهتمام أمرائها برجال الدين، أثر كبير في

---

(39) القاضي عياض، المصدر السابق، ج8، ص80.

(40) عبد الطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين...،ص143.144.

(41) هو الشيخ أبي إسحاق علي الصدفي، كان إماما مشهوراً في العلوم الدينية من حديث وفقه، وقد ولي القضاء في عدة أماكن، وقد قصده الناس لأخذ العلم عنه حتى توفي سنة514هـ.أنظر: القاضي عياض، المصدر السابق، ج8، ص193.194./عبد الطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين في...،ص144.

(42) هو أبو النصر الفتح بن خاقان، صاحب كتابي"مطمح الأنفس، وقلائد العقيان" اتصل بملوك الطوائف، ولما جاءت الدولة المرابطية اتصل بأمرائها. وكانت وفاته بمراكش التي وجد فيها قتيلاً سنة(529هـ/1134م).أنظر:ابن خلكان، المصدر السابق،ج3، ص193.

(43) عبد الطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين...، ص ص143.145.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ازدهار العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه؛ إذ وفد على العاصمة مراكش وغيرها من المدن بالمغرب الكثير من العلماء الأندلسيين الذين أسهموا في دفع حركة التأليف بالبلاد، وشاركهم فيها العلماء المغاربة الذين أقبلوا على الدراسة والبحث مما نتج عنه الكثير من المؤلفات الدينية.

– **ففي مجال التفسير**: فقد زاد الإقبال على دراسة القرآن الكريم باعتباره مصدر التشريع الأول في الدولة إذ أقبل عليه العلماء بالدراسة والبحث(44)، ومن العلماء الذين برزوا في هذا المجال نجد أبو الحسن علي بن محمد الغرناطي المفسر نزيل مراكش الذي كان عالماً زاهداً يجتمع إليه الناس فيفسر لهم القرآن، وأبو بكر محمد بن علي المعافري السبتي الذي عرف بابن الجوزي ولديه تفسير ينسب إليه(45)، وعبد الجليل بن موسى الأنصاري الأوسي الذي له تفسير في القرآن، وعبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي المتوفي سنة(541هـ/1146م) الذي تولى قضاء مدينة المرية بالأندلس وله كتاب تفسير القرآن المسمى:-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- والذي لخَّص فيه التفاسير وتحرى الصحة فيها، وأبي بكر ابن عربي قاضي الجماعة بمدينة اشبيلية الذي درس في المشرق على يد أبي حامد الغزالي وله عدة كتب منها -أحكام القرآن-(46).

– **أما علم الحديث**: فقد نال هو الآخر عناية فائقة من ولاة الأمور في الدولة المرابطية لكونه يعد المصدر الثاني الذي اعتمد عليه المرابطون في أحكامهم، وقد كان اهتمام علماء الدين والفقهاء بالحديث بتعريف رجاله وسنده وبيان أصوله أكثر من عنايتهم بالقرآن، ولعَّل السبب في ذلك راجع إلى نشأة دولتهم التي قامت على مبدأ أهل السنة، والاهتمام الكبير بعلم الفروع – فروع مذهب الإمام مالك-(47)، فقد كان موطأ الإمام مالك في الدولة المرابطية يشكل محور الدراسات المتصلة بعلم الحديث(48). ومن بين الذين اشتهروا في علم الحديث القاضي عياض السبتي الذي كان إمام وقته في الحديث وعلوم الدين، ومن مؤلفاته في الحديث:-إكمال المعلم شرح صحيح مسلم- وله أيضاً كتاب- مشارق الأنوار في غريب الحديث والآثار-، والفقيه ابن عبد الجليل القصري مؤلف كتاب-المدارك في مقطوع حديث مالك- وابن القطان صاحب

---

(44) علي حسن علي، المرجع السابق، ص473.

(45) عبد الله كنون، المرجع السابق، ج1، ص95.

(46) ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص296./ الجيلالي سلطاني، رسالة ماجستر بعنوان: **اتجاهات الشعر في عصر المرابطين بالمغرب والأندلس**، جامعة دمشق، كلية الأداب، قسم اللغة العربية وأدابها، دمشق (1407هـ/1987م)، ص53.52.

(47) نفس المصدر، ص53.52.

(48) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص484.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كتاب- شرح مقدمة صحيح مسلم وشرح الموطأ-[49]، وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز اللخمي المعروف بابن الدباغ الذي تولى قضاء مدينة دانية وله عدة مؤلفات منها:- طبقات الفقهاء والمحدثين- وكتاب-الغواص والمبهمات-[50] وغيرهم كثير.

- **وأما علم الفقه**: فقد عرفت الحركة الفقهية في الدولة المرابطية نشاطاً كبيراً، وكانت تدور حول المذهب المالكي؛ باعتبار أن داعية المرابطين عبد الله بن ياسين نفسه كان مالكي المذهب، وأن من جاء من بعده من الأمراء المرابطين كانوا يتخذون من مذهب الإمام مالك وأحكامه مصدراً لتشريعاتهم، ومن هنا كان الفقه المالكي هو مناط الدراسة والبحث[51]، وأن معظم فقهاء هذا العصر قد راج كلامهم حول الفقه المالكي مع التشدد في الجوانب النظرية منه غير معتنين بالتخريج العقلي للأحكام الفقهية، مكتفين بالأمور المتعلقة بالعبادات والمعاملات التي أولاها المرابطون أهميةً كبرى في تسير أمور رعيتهم، والتي جعلتهم يقربون علماء الدين لهم بغية تحقيق الرسالة التي حملها إياهم داعيتهم عبد الله بن ياسين.

وظهر منهم أعلام في الفقه منهم: الفقيه أبو الوليد ابن رشد قاضي الجماعة بقرطبة الذي له عدة مصنفات، أهمها كتاب:-البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل-، والفقيه أبي بكر الطرطوشي أحد فقهاء الأندلس الذين خاصموا الغزالي وأكثروا من الرد عليه ونقدوا مذهبه في كتاب الإحياء وله عدة كتب منها:-كتاب الفتن- وكتاب- النهاية في الفروع المالكية-[52]، والفقيه عبد المالك المصمودي قاضي الجماعة بمراكش، وإبراهيم بن جعفر اللواتي الفقيه المعروف بالفاسي، وعبد الله بن أحمد خلوف الأزدي السبتي[53]، ومن أبرز المؤلفات الفقهية في هذا العصر- الأعلام بقواعد حدود الإسلام- للقاضي عياض، والتنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة له[54].

وأما علم الكلام: فلم ينل عنايةً عند المرابطين باعتبار أن المرابطين كانوا يتخذون طريقة السلف الصالح مسلكاً ومنهجاً في حياتهم وتعلمهم، وبالتالي فإنهم لم يميلوا إلى الخوض في علم

---

(49) عبد الله كنون، المرجع السابق، ج1، ص95.

(50) الزركلي، المصدر السابق، ج8، ص238./ الجيلالي سلطاني، المرجع السابق، ص53.

(51) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص485.

(52) الزركلي، المصدر السابق، ج5، ص316./ الجيلالي سلطاني، المرجع السابق، ص55.54.

(53) عبد الله كنون، المرجع السابق، ج1، ص76.

(54) نفس المصدر، ج1، ص95.94.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الكلام، ورموا من يخوض فيه بالكفر، واعتبروه بدعة في الدين[55].

٥ – التعصب الكبير لمذهب الإمام مالك(رضي الله عنه):

بلغ التقيد بمذهب الإمام مالك وإتباع أقواله وأقوال المالكية عامةً مبلغًا في عهد المرابطين، حتى أفضى ذلك بهم إلى التعصب وتحريم أي مذهب غير المذهب المالكي، وتحول الأمر من مرحلة التنظير بين العلماء إلى مرحلة التطبيق، فنجد مثلاً أن الأمير علي بن يوسف لم يقرب منه سوى من كان عنده علم بفروع مذهب مالك، فازدهرت في عهده كتب المذهب ونبذ ما سواها، وأحرقت كتب أخرى اعتبرت خروجاً عن المذهب المالكي المعتدل ككتب الغزالي، ونسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله[56].

كما تعرض أهل الظاهر في عهده للاضطهاد لرفضهم الاعتماد على مذهب الإمام مالك، ودعوتهم للاجتهاد واستنباط الأحكام من القرآن والسنة. ومن هؤلاء نجد الفقيه محمد بن أحمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي الميورقي الأصل[57] الذي ضُرب بالسوط بأمر من الأمير علي بن يوسف بعد أن امتحنه، فسجنه زمناً ثم سرحه فعاد إلى الأندلس، وفي عهد ابنه تاشفين الذي تابع سياسة أبيه، نجده يرسل بكتاب إلى واليه على بلنسية أبي زكريا يحيى بن غانية وقاضيها وسائر الفقهاء والوزراء ببلنسية، يدعوهم إلى الاقتصار في الأحكام والفتوى والشورى على مذهب مالك بن أنس(رضي الله عنه)، ومن يعمل بغير ذلك فقد اتبع الهوى[58].

وقد كان لهذه السياسة الرسمية من قبل الدولة أثر على فقهاء المالكية الذين اتفقوا فيما بينهم في عهد المرابطين على أن اعتقاد الظاهرية وإنكار القياس جنحة وبدعة[59].

3 – أثار العصبية الدينية على الدولة والمجتمع المرابطي:

١ – الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها:

إذ نجد أن المرابطين ومنذ بداية دعوتهم على يد عبد الله بن ياسين قد حرصوا على إقامة

---

(55) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص486.

(56) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص151.

(57) محمد بن أحمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي الميورقي كان فقيهاً ظاهرياً محدثاً عارفاً بالحديث وعلله وأسماء الرجال، توفى بعد محنته مع علي بن يوسف بن تاشفين سنة(537هـ/1142م) وهو في طريقه إلى المشرق. أنظر: لسان الدين ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط1، سنة1975م، ج3، ص190.191 .

(58) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص20.

(59) الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص341.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

شرع الله في أنفسهم وأهليهم، وأخلصُوا لله تحاكمهم في السِّر والعلن، فقواهم الله سبحانه وتعالى وشد عزرهم حتى استخلفهم في الأرض، فأقام المرابطين شريعة الله في البلاد التي حكموها، فمكن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان، وهذه هي سنة الله مع كل الأمم التي تعمل على إقامة شريعة الله في الأرض، فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها وتحقيق الحكم يقول تعالى:﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** ﴾(60).

وإن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله(ﷺ) وفي حياة الأمم والشعوب، تعطي المرء معرفةً أصيلة بأثر سنة الله في الأنفس والكون والأفاق. يقول الله تعالى:﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ** مِنْ **قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾(61). وللحكم بما أنزل الله أثار دنيوية وأخرى أُخْرَوية، وتتمثل الآثار الدنيوية في دولة ومجتمع المرابطين في عدة أمور منها:

٢- حصول الأمن والاستقرار:

كانت بلاد المغرب قبل وصول المرابطين عبارة دويلات متنازعة فيما بينها، وكان للبعض منها معتقدات خارجة عن المِّلة الإسلامية، كما أن قبائل الملثَّمين هي الأخرى كانت متناحرة فيما بينها وصراعها مع الزنوج لم يستقر و لم تعرف له نهاية، مما ولد لديهم الخوف والقلق الدائم ،وبعد أن أكرم الله المرابطين بتوحيد قبائل صنهاجة وتوحيد المغرب الأقصى كله بيدهم، يسر الله لهم الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكَّموا فيها شرع الله، فأعطاهم كل أسباب الأمن والاستقرار حتى يحافظون على مكانتهم وهدوء دولتهم، وهذه سنة الله ماضية لأهل الإيمان في الأرض. يقول الله تعالى:﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾(62).

٣- النصر والفتح:

حرص المرابطين على نصرة دين الله بكل ما يملكون وتحققت فيهم سنة الله في نصرة من ينصره؛ لأن الله سبحانه وتعالى وعد من استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته،

---

(60) سورة النور، جزء من الآية:55.

(61) سورة النساء، الآية:26.

(62) سورة الأنعام، الآية:82.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وقد أيَّد الله المرابطين على الأعداء، ومَّنَّ عليهم بالفتح، ففتحوا قبائل صنهاجة ودانت لهم بالطاعة والولاء، وقبائل المغرب ووحدوها تحت سلطانهم، وبلغوا الأندلس منجدين للمسلمين المستغيثين من بغي النصارى الصليبين، فأدخلوها تحت سلطان دولتهم، فالمرابطين عندما استجابوا لشريعة الله وانقادوا لها جلبت لهم الفتح ونصر الله الذي يقول:﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ** مَن **يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾(63).

٤– العـــزة والشرف:

إن نشأة عز المرابطين وشرفهم العظيم المدون في التاريخ، يعود في الأساس إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله(ﷺ) الذي تتشرف به الأمة ويعلو به ذكرها. يقول تعالى:﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لايَعْلَمُونَ**﴾(64).وعند تتبعنا لسيرة الفقيه عبد الله بن ياسين نجده ذو مهابةٍ عظيمةٍ في نفوس أتباعه، وقد نال عِزَةً وشرفاً في قومه، وشأنه في ذلك شأن الإمام والأمير أبي بكر بن عمر الذي إذا ركب إلى الجهاد ركب معه500 ألف رجل من قومه يجاهدون معه، والأمير يوسف بن تاشفين الذي كأنه خلق من أجل الزعامة كيف لا؟! وهو من وحد بلاد المغرب وأتَّم تأسيس الدولة المرابطية، وضَّم لها الأندلس بعدما قهر ألفونس ورجاله في الزلاقة الخالدة، وردهم خائفين مذعورين.

وبالتالي فإن أثار تحكيم شريعة الله في الشعوب التي نفذت أمر الله ونواهيه ظاهرةٌ بينة في التاريخ، وإن تلك الآثار التي أصابت دولة المرابطين لهي سُنَّةٌ من سنن الله الجارية التي لا تتبدل ولا تتغير، فأيُ شعب وأي أمة تسعى لهذا المطلب الجليل تصل إليه ولو بعد حين.

وكخلاصة لهذا الفصل نقول أن اختيار عبد الله بن ياسين للقيام بدعوة المرابطين كان موفقاً إلى حد كبير، كونه أعرف الدعاة بلغة وعادات وأعراف قومه، لذا نجده قد سار في دعوته لقبائل الملثمين الصنهاجية سيرة حسنة نقية، فتدرج بهم من مرحلة التعريف إلى التكوين، ثم التنفيذ الممهد لمرحلة التمكين الذي تحقق بعد استشهاده على يد الأمرين أبو بكر بن يحي اللَّمتوني، والقائد يوسف بن تاشفين وأبنائه من بعده، الذين واصلوا من خلال فتوحاتهم في بلاد المغرب وجهادهم بالأندلس دورهم في دعم المسلمين وتثبيت الإسلام بهاته المناطق.

---

(63) سورة الحج، جزء من الآية:40.

(64) سورة المنافقون، جزء من الآية:08.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الفصل الثـــالث

العصبية الدينية ودورها في أفول الدول الإسلامية .المرابطية نموذجاً.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:

انحلال عصبية المرابطين(العوامل والمظاهر).

المبحث الثاني:

الصراع بين العصبية المرابطية والعصبية الموحدية.

المبحث الثالث:

نظرية العصبية عند ابن خلدون(الأحكام والقيم و الانتقادات).

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الأول

انحلال العصبية الدينية – العوامل والمظاهر–

يؤدي الدِّين عند ابن خلدون دوراً أساسياً في تمكين العرب البدو خصوصاً من تحقيق الملك وتأسيس الدول، وهو بعد ذلك يزيد الدولة في أصلها قوةً على قوة العصبية التي عندها، والسبب في ذلك حسبه هو:« أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم، وهم مستميتون عليه»[1]. فالدين يصفي القلوب من الغِّل والحسد والتنافس والبغضاء، وهذا الأمر عامٌ في كل الأمم متى تمسكت بدينها ورفعت راية القتال في سبيل نصرته.

كما أنه ليس هناك من عامل جامع للكلمة وموحد للصفوف مثل الدين، وهو ما يسميه ابن خلدون مثلما عرفنا بـــ:–الإجماع الديني–، أما إذا بعد أهل العصبية عن الدين وغرقوا في ملذات الحياة وأسرفوا في ألوان الترف والنعيم، فإن قلوبهم ولا شك تتنافر، ويخذل بعضهم بعضاً، فتفترق وجهتهم وتتشعب كلمتهم، فيفشلون وتذهب ريحهم، فتضعف عصبيتهم[2].

ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله:« واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها، ولو كانوا أكثر عصبيةً منها وأشد بداوة، واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة لما كانت زناتة أبدى من المصامدة وأشد توحشاً، وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي فلبسوا صبغتها، وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتة أولاً واستتبعوهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم، فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم والله غالب على أمره»[3].

وكنا قد رأينا مسبقاً أن العصبية القرشية والعربية جميعاً، كانت شرطاً ضرورياً في نجاح الدعوة الإسلامية وقيام دولة العرب، مثلما كان الإسلام نفسه شرطاً ضرورياً لالتئام العصبيات

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص170.169.

(2) هشام العطار، المرجع السابق، ص545.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص170.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

العربية وتأسيس الدولة، وهذا الذي حدث في نظر ابن خلدون بالنسبة للدول الإسلامية مشرقاً ومغرباً مع الـــدولة الأموية والعباسية المرابطية والموحدية وغيرهـــا، ولكن عصبية قريش وعلى رأسها عصبية بني أمية، لم يكن من الممكن أن تبقى قوية مسيطرة بعد أن حققت غايتها في الملك وبلغت منتهى ثمراته، أهمها الترف والنعيم، وهما الكاسران من سورة العصبية، وهكذا لما ضعفت عصبية قريش عجزوا عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم، وصار الحل والعقد لهم[4].

ويضيف ابن خلدون إلى ذلك موضحاً دور الترف في انهيار الدولة فيذكر:« أن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات، وتثير مذمومات الخلق، فتذهب عن أهل الخير الحضر طباع الحشمة ويقعون في أقوال الفحشاء، فضلاً عن أن الترف يذهب خشونة أهل البداوة ويضعف العصبية والبسالة»[5]. حتى إذا:« انغمسوا في النعيم فإنهم يصبحون عيالاً على الدولة كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة»[6].

ويزيد الأمر أكثر توضيحاً، فيذكر أن:« الترف مفسد لبأس الفرد ولشكيمة الدولة، والترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الفساد والسفه، والترف مظهر لحياة السكون والدعة، ودليل ميل النفس إلى الدنيا والتكالب على تحصيل متعها حتى يتفشى الخلاف والتحاسد...ويفضي إلى المنازعة ونهاية الدولة»[7].

كما أن الترف مؤثر في قرارات الحكام بالمصادرة، فيقول في ذلك:« إن طبيعة الملك تقتضي الترف، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم...ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب؛ فلا يجدون وليجة[8] عنها، فيوقعون بهم العقوبات، وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم»[9].

---

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص204.

(5) رأفت الشيخ، **تفسير مسار التاريخ**، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، 2000، د(ط). ص84.

(6) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص182.

(7) نفس المصدر، ص ص180.179./ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص85.

(8) الوليجة:البطانة والخاصة ومن يتخذه الإنسان معتمدًا عليه من غير أهله، أنظر: **المعجم الوسيط**، مصدر سابق. باب الواو، ص 1056. / الأزهري، **تهذيب اللغة**، مصدر سابق، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، د(ط ٨ س). ج11، ص191، مادة ولج.

(9) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص180.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويؤكد أيضاً أن زيادة احتياجات الحاكم تؤدي إلى إسرافه في فرض الضرائب على السكان، وبالتالي تؤدي إلى الاختلال الاقتصادي المؤذن بانهيار الدولة(10).

ومن عوامل ضعف الدولة وانهيارها أيضاً هو لجوء الحكام إذا استقرت الدولة وتمهدت، واستقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد الآخر، ورسخ في الناس الانقيـــاد والتسليم لهم، إلى:« استخدام الموالي والصنائع وتقديمهم على أهل عصبيتهم، فكان هؤلاء الموالي والصنائع من عوامل ضعف الدولة؛ لأن أهل العصبية يصبحون من بعض أعدائه ويتولاهم دونهم، فيكونون أقرب إليه من سائرهم ويخصهم بمزيد من التكرمة والإيثار ويقلدهم جليل الأعمال والولايات...وذلك حينئذٍ مؤذن بإهتضام(رخاوة)الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها»(11).

وتعزيزاً لرأيه هذا ضرب ابن خلدون عدة أمثلة عن هذه الحالة فيقول:« ومثل هذا ما وقع لبني العباس؛ فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق، واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم، ثمَّ تغلب العجم الأولياء على النواحي وتقلص ظِّل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد...وزحف التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة، وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها، واستمرت لهم الدولة مقلصة الظِّل...حتى تأذن الله بانقراض الدولة، وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فمحوا أثارهم، وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم»(12).

وإن من علامات ذهاب الملك وانهيار الدول أيضاً هو ارتكاب المذمومات وكثرة الرذائل؛ حيث يقول ابن خلدون:« إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم، ويتبدل به سواهم ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك، وجعل في أيديهم من الخير»(13).

---

(10) رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص84.

(11) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص194./ الجابري، المرجع السابق، ص226.

(12) ابن خلدون، نفس المصدر، المقدمة، ص167.

(13) نفس المصدر، ص156.155.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يقول تعالى:﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾[14]. لأن من صفات الملك هو التنافس في الخلال الحميدة التي تناسب السياسة والملك إذ الخير هو المناسب للسياسة.

ونخلص من هذا كله إلى أن استئثار العرب بالملك وثمراته وفي مقدمتها الجاه والثروة، قد أفسد عصبيتهم وأيقظ عصبيات الأمم سواهم في المشرق والمغرب، وهذا ما تسبب في انقسام الدولة ابتداءً من أوائل العصر العباسي إلى دول متناحرة تستند كل منها إلى عصبية معينة، الأمويون في الأندلس، و الأدارسة ودول البربر في شمال إفريقيا، ثم عدد من الدول والإمارات في المشرق، والتي لم يكن خضوعها للخلافة العباسية يتعدى الخطبة على المنابر.

وعليه؛ فإن عصبية العرب، وعصبيات العجم من البربر والفرس والترك، قد حسمت أمر عدم الاستقرار السياسي في تاريخ الإسلام، والذي كان في نظر ابن خلدون عبارة عن صراع بين عصبيات مختلفة، اكتسى في معظم الأحوال غطاء دينياً[15].

1- انحلال عصبية المرابطين الدينية وأثرها في أفول دولتهم:

أ – الأسباب والعوامل:

انحصرت أسباب تدهور أحوال المرابطين والثورة عليهم كما ذكرها صاحب المعجب في غلظة يوسف بن تاشفين وجهله، ولين علي بن يوسف وعجزه عن القيام بشؤون الدولة، وفظاظة جند المرابطين وجفاء مظهرهم وترامیهم على خيرات الأندلس، وغلبة النِّساء على أمور الدولة، وتسلّط الفقهاء على مقاليد الأمور، مما تسبب في ضياع أمرهم وذهاب سلطتهم[16].

وفيما يلي تفصيل لأهم أسباب تحلل وأفول عصبية(حكم) المرابطين:

١- ضعف القيادة العليا للبلاد:

بدأت ملاحم الضعف تظهر على الحكام المرابطين مباشرةً بعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين وتولي ابنه علي حكم البلاد خلفاً له، مما تسبب في دفع الكثير من أمراء الأقاليم إلى الاستبداد، وقد عبر المراكشي عن ذلك بقوله:« واختلت حال أمير المسلمين رحمة الله بعد الخمس مائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على

(14) سورة الإسراء، الآية:16.

(15) الجابري، المرجع السابق، ص257.

(16) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص127./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص25.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خيرٌ من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه »[17]. وربما ساعدهم على ذلك انصراف الأمير علي إلى العبادة والزهد. وقد وصف المراكشي علي بن يوسف بتغافله عن أحوال الرعية وعكوفه على العبادة قائلاً:« قنع باسم إمرة المسلمين وبما رجع إليه من الخراج، وعكَّف على التعبد والتبتل فكان يقوم اللَّيل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال، فاختَّل لذلك عليه كثيرٌ من بلاد الأندلس وكادت تعود إلى حالها الأول لاسيما منذ أن قامت دعوة ابن تومرت بالسوس»[18].

وتجدر الإشارة هنا إلى مناقضة المراكشي لكلامه في علي بن يوسف في قوله:« فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد، وكان حسن السيرة جيد الطوِّية، نزيه النفس بعيداً عن الظلم،كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين، واشتدَّ إيثاره لأهل الفقه والدين؛ وكان لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء»[19]. هي هذه شهادة المراكشي فكيف يتفق هذا الرأي مع رأيه السابق؟!.

وتبين معظم الرسائل التي بعث بها الأمير علي بن يوسف إلى أمرائه والتي رأينا بعضها كيفية معالجته لبعض المسائل بالحكمة والتأني، وبعده عن الغلظة والتهديد بالعقاب إلا في حالة تجاوز الأمور لحدودها، و لم يستثني من ذلك حتى أبناءه[20].[21].ومنها مثلاً تلك الرسالة التي وجهها لابنه أبي بكر حينما ولاه على قيادة جيوش المرابطين في الأندلس والتي جاء فيها:« وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك، وأن يطابق كل واحدٍ رأيك ويوافق عملك»[22]. والرسائل التي وجهها للقضاة والولاة يحثهم فيها على الالتزام في الإفتاء بمذهب الإمام مالك(ﷺ)، والرفق بالرعية وتفقد أحوالهم...وغيرها من الرسائل.

---

(17) نفس المصدر، ص127.

(18) نفس المصدر، ص128.

(19) نفس المصدر، ص122.

(20) لمعرفة ما حدث لابن علي بن يوسف- عمر يناله- من سجن ومصادرة من طرف أبيه أنظر: ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص75.

(21) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص31.

(22) محمود علي مكي، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، 1960.1959. رقم3، ص170. نقلاً عن: عبد اللطيف دندش، المرجع السابق ، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص31.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كما واصل الأمير تاشفين بن علي العمل بنفس أوامر أبيه، وسار على نهجه في مراسلة القضاة والولاة وكرَّر أوامر أبيه وجده يوسف إليهم، وكان هدف المرابطين من ذلك هو توخي العدالة والإنصاف بين الرعية عن طريق القضاة والعمال لأنهم أكثر احتكاكاً بالناس لطبيعة عملهم[23]. ومما زاد مركز القيادة ضعفا هو ذلك الخلاف الخطير الذي حدث بين إبراهيم بن تاشفين وعمه إسحاق بن علي حول السلطة في البلاد والموحدون يزحفون نحو عاصمتهم، مما أضعف مركز المرابطين وعجل بانتصار الموحدين عليهم.

٢-اضطراب الأمور في بلاد الأندلس:

بعد وفاة الأمير علي بن يوسف وتولية ابنه تاشفين الحكم سنة(537هـ/1142م)، بدأت أوضاع الأندلس تشهد نوعاً من الاضطراب خلافاً للاستقرار الذي عاشته عقب انتصار الزلاقة، وإخضاع ملوك الطوائف لحكم المرابطين على يد القائد يوسف بن تاشفين، وقد بدأ هذا الوضع في التجلي مباشرةً في فترة الانتقال القصيرة هذه؛ بحيث لم تكن هناك قيادة موحدة تعمل على تنسيق العمل وتوجيه الأوامر إلى الجند خاصةً والرعية عامة، مما تسبب في عدم احترام تلك الأوامر والعمل بها، والفساد الأكبر كما عبر عنه ابن الخطيب هو:« أنهم -أي الأمراء-كانوا اليوم يصدرون أمراً وغداً ينسخونه بأمر آخر، فيسخر جندهم ورعاياهم منهم»[24].

فكانت الأوامر تصل إلى الجند والرعية متناقضة، وساءت العلاقة بين الحاكم والرعية، ونظر الجند والرعية إلى أميرهم نظرة سخرية واحتقار وازدراء[25]، في الوقت الذي بلغ فيه تنظيم الموحدين وانضباطهم درجةً كبيرة:« إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لفعل»[26] وهو الأمر الذي أفاد منه الموحدون وعجل بسقوط المرابطين، وتسبب في اضطراب الأمور في الأندلس خاصةً بعد استدعاء الأمير تاشفين بن علي إلى المغرب، وسحبه لعدد كبير من قوات المرابطين معه للتصدي لمحاولة الموحدين السيطرة عليه وانتزاعه من المرابطين[27].

وقد انتهز النصارى كعادتهم في الأندلس هذه الفرصة، وشرعوا في الإغارة على الأراضي الإسلامية في إسبانيا، وتعددت هزائم المرابطين أمامهم بعد أن توقفت الإمدادات التي كانت

(23) نفس المرجع، ص ص31.28.

(24) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص99.

(25) الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، **تاريخ المغرب والأندلس**، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، 1990، د(ط). ص260.

(26) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص137.

(27) عبد الرؤوف الفقي، المرجع السابق، ص260.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تصلهم من المغرب لانشغالهم بمحاربة الموحدين، مما أدى إلى ضعف المرابطين في الأندلس واستهانة أهلها بهم. وفي هذا الصدد يقول ابن الخطيب:« وكان أعظم ما تأيد به عبد المؤمن على المرابطين قيام أهل الأندلس عليهم كونهم أخلوها من حماتها وأسلحتها»[28]. كما يقول ابن القطان مؤرخ الموحدين شامتاً:« وكل هذا مهد الله به أمر الموحدين أعزهم الله تعالى»[29].

٣- تسلط عدد من الفقهاء والقضاة وعمال الأقاليم:

لم يكن تسلط الفقهاء جديداً على المغرب والأندلس؛ إذ أن الفقهاء كانوا يتمتعون بمركز ممتاز في عصري الإمارة والخلافة الأموية، فكان أمراء بني أمية يستشيرونهم في شؤون الدنيا والدين، وكانوا يحتلون أرفع مكان[30]، وبما أن المرابطين كانوا قوماً متمسكين بالدِّين، شديدي الإجلال لرجاله، فإنهم رفعوا الفقهاء إلى أعلى المناصب، فأصبح القضاة منهم في بعض النواحي حكام للأقاليم، وأصبح الفقيه المشاور حاكماً مدنياً إلى جانب القائد المرابطي الذي كان حاكماً عسكرياً. ولما جعل المرابطين تولي منصب القضاة من تخصص رجال الدِّين، فقد استعاد الفقهاء والقضاة نفوذهم أثناء فترة حكم المرابطين، وعادوا إلى سابق سلطانهم وسطوتهم.

بل قد ازدادت ثروتهم ونفوذهم، وعوض محاربة البدع والشعوذة ومدعي المهدوية؛ انشغلوا بأمر لا يهم العامة وهو الخلاف حول كتب الغزالي والحديث عنها، وانصرفوا إلى مثل هذه القضايا غير المفيدة، وتركوا الأمور الشركية كالشعوذة والدروشة تنتشر في البلاد، ولم يكونوا إلا نفراً من الطامعين في السلطان والأموال والغنائم، ولم يؤثر عنهم عمل ديني في بلد دخلوه، أو إصلاح قاموا به بمجرد السلب والنهب فقط، وتلاشوا من الوجود عند نزول الموحدين[31].

فكان ذلك سبباً في ضعف الإدارة المرابطية؛ إذ فتح المجال للرشوة والاغتناء السريع، وشجع صغار الموظفين على الاقتداء بهؤلاء العمال، ونلتمس ذلك من رسالة الأمير علي بن يوسف لأحد قضاته وهي على ما يبدو رداً على رسالة للقاضي يشكو إليه تصرف بعض العمال مما جعله يأمر القاضي بإنهاء أمر أي عاملٍ يثبت عليه أي اتهام إلى أمير الناحية ونصها هو:« وأي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه، وعلمت صحة استهدافه وتصدِّيه، فإنه أمره

(28) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص99.

(29) ابن القطان المراكشي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، د(ط،س). ص154.

(30) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص25.

(31) نقلاً عن: عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص35.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

إلى صاحب البلد مستعمله ومتوليه ». ويطلب من القاضي قبل القيام بهذا الإجراء التحقق من صحة التهمة ومواجهته بالإتهامات والأدلة حتى لا يظلم أيضاً العمال ثم بعدها يعزله، فإذا تحرج من عزله فيجب عليه أن يعجل برفع أمره إلى السلطان نفسه:« وإلا فأخف ذلك إلينا في سائر ما يتوقف لديك من الأمور التي تقصر عنها يدك، وينقطع دون النفوذ فيها غايتك وأمدك لينفذ من عندنا ما يقف منازعك عنده، ويسهل لك كل صعب بعده»[32].

وعلى أية حال؛ فإن هذه الطبقة أو البيوتات الكبيرة منها التي توارثت القضاء عندما أحست بالخطر على مراكزها بانهيار دولة المرابطين، تزعموا مدنهم وأعلنوا الثورة واستقلوا بهذه المدن، وكونوا ما عرف بعصر الطوائف الثاني[33].

٤- ازدياد قوة نصارى الشمال بالأندلس:

كان لتغير الأوضاع في الممالك النصرانية وتوحد قيادتها وثبات جبهتها حوالي تسعة وعشرين عاماً متتالية بيد ألفونس الأول ملك(أراغون وقشتالة وليون)الملقب بالمحارب[35]، وتفانيه في محاربة المرابطين تفانياً أدى إلى كسر شوكتهم، والقضاء على جاههم في الأندلس برغم من أنه لقي حتفه على أيديهم، وكان مما قام به تلك الغارة الطويلة التي اجتاح فيها الأندلس من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب في مدة سنة وبضعة أشهر[36]، وقوات الأندلس مابين مرابطية وأندلسية تسير في أثاره أو تحتمي منه بالحصون، ولاشك أن هذه الغارة قد أسقطت من هيبة المرابطين وسلطانهم، وأشعرت الأندلسيين أنه بإمكانهم الوثوب وانتزاع الأمر منهم، واستهانوا بهم وانظموا إلى أعدائهم من النصارى والموحدين بهدف التخلص من حكمهم، وخصوصاً بعد أن اشتَّد الصراع بين المرابطين والموحدين[37].

وحسب ما جاء في كتاب الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، فإن النصارى قد جددوا هجماتهم في الأندلس التي امتدت من ليون إلى جبل طارق، ولما رأى الأندلسيون حكامهم المرابطين لا يتحركون لإنقاذهم من هجمات النصارى طردوهم من بلادهم، وعادت الأندلس إلى سيرتها الأولى كما كانت في عهد ملوك الطوائف، ونشأت في الأندلس مدن

(32) محمود مكي، المصدر السابق، ص173. نقلاً عن: عبد اللطيف دندش، نفس المرجع، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص45.44.

(33) عبد اللطيف دندش، نفس المرجع، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص276.

(34) نفس المرجع، ص46.45.

(36) عن هذه الغزوة أنظر:ابن الخطيب، الحلل، مصدر سابق، ص68.67./ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق،ج4، ص70.69.

(37) الفقي، المرجع السابق، ص262.261.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مستقلة عن بعضها تخضع للنصارى، ويحارب بعضها بعضاً[38].

٥- تزمت الفقهاء وتجمدهم عند الفروع وإهمالهم للأصول:

كان مما أخذ على المرابطين أنهم بالغوا في الاعتماد على الفقهاء في إدارة شؤون الدولة، باعتبار أن هذه الأخيرة قد قامت منذ البداية على الأصول الفقهية التي رسمها داعيتهم الأول عبد الله بن ياسين، وسير جل أمرائها على ذلك النهج؛ إلا أن اجتهاد هؤلاء الفقهاء قد تجمد عند كتب الإمام مالك، ولم يعودوا يرجعون إلى الأصول يستنبطون منها الأحكام، واكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة عن كتب الفروع المرتبطة بمذهب الإمام مالك رحمه الله، وجعلوا منها مرجعهم الوحيد، وفي هذا الشأن قال المراكشي:« فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونُبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله(ﷺ)، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له»[39].

وقد كان الأمير علي بن يوسف يكتب من الحين إلى الآخر إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء من علم الكلام، وتوعد كل من وجد عنده شيء من كتب علم الكلام، حتى أنه أمر بإحراق كتب الإمام أبو حامد الغزالي عندما دخلت إلى المغرب والأندلس من المشرق بإيعاز طبعاً من الفقهاء، وتقدم بالوعيد الشديد بعد سفك الدم ومصادرة المال لمن وجد عنده شيءٌ منها، وقد اشتد في تنفيذ ذلك[40].ولكن يجب أخذ هذا القول بحذر؛ لأنه قد وجد نقيض هذا الكلام في نوازل القاضي ابن رشد (مخطوط رقم1072بالمكتبة الأهلية بباريس)[41] سؤال الأمير علي بن يوسف للقاضي أبي الوليد بن رشد: ما يقول الفقيه أبو الوليد في الشيخ أبي الحسن الأشعري، وأبي الحسن الأسفراني، وأبي بكر الباقلاني، وأبي الوليد الباجي ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام ويتكلم في أصول الديانات، فأجابه ابن رشد:« هم أئمة خير، وممن يجب الاقتداء بهم...».وهذا يدل على أنه كان في هذه المرحلة حركة نشيطة لدراسة علم الكلام والخوض فيه عند ظهور داعية الموحدين المهدي ابن تومرت[42] الذي راح يناقض مذهب

(38) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص46.45.

(39) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ، ص122.

(40) نفس المصدر، ص122.

(41) نقلاً عن: عبد اللطيف دندش، المرجع السابق ، دور المرابطين...،ص133.

(42) هو عبد الله بن تومرت السوسي الهرعي المصمودي، مؤسس دولة الموحدين، ويسمى بالبربرية أمغار، وبالعربية الشيخ، وكان رجلاً فقيرًا مشتغلاً بطلب العلم وتحصيله، وارتحل إلى المشرق لطلب العلم حيث التقى بمشايخ العلم هناك وسمع منهم، وأخذ عنهم =

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المرابطين وينتقده بكل ما أوتي من قوة[43].

٦- سيطرة النساء وتدخلهن في توجيه شؤون الحكم:

وتعد من أهم الأسباب التي ذكرها المراكشي في تدهور حكم المرابطين، والتي اتخذها المهدي ابن تومرت ذريعة لمهاجمتهم؛ حيث يقول:« واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل، وصاحب خمر ومخمور »[44]. لكن وللإشارة فإن هذه الادعاءات لم ترد إلاَّ في كتاب – المعجب– للمراكشي الذي نشأ وخدم في البلاط الموحدي، مما جعل لهذه الاتهامات أغراض دعائية لصالح الموحدين وداعيتهم ابن تومرت، الذي استطاع بدهائه أن يذكي مثل هذه الإشاعات.

فأتى بعض الناس ناحية العقيدة ورمى المرابطين بكل نقيصةٍ، واعتبر انتساب بعض قادة المرابطين لأمهاتهم مثل محمد بن فاطمة وأخيه عبد الله، ومحمد بن عائشة وغيرهم كثر جرياً على عادة المرابطين نقيصة، ومعنى ذلك حسبه هو غلبة النساء على الأحوال والأمور، ولو كانت النساء المرابطيات غالبات على أمور الدولة والحكم، فكيف غفلت كتب التاريخ والتراجم ودواوين الشعر هذا الأمر؟!؛ بل أنها لم تذكر إلا نساء فاضلات تعد على الأصابع كزينب النفزاوية، وزينب بنت إبراهيم بن تيفلويت[45]وغيرهن. فكيف تمر هذه الأمور على شعراء الهجاء؟!الذين لم يجدوا نقيصةً إلا وألصقوها بالأمراء المرابطين دون تردد، ولكن سماحة المرابطين كانت تغمرهم، وكان العقاب مجرد الإبعاد عن وظيفة الكتابة[46].

= علماً كثيرا، حفظ الكثير من الأحاديث، ونبغ في علم الأصول والاعتقادات، ولازم الإمام أبو حامد الغزالي مدة ثلاثة سنوات لاقتباس العلم منه، ويقال أنه هو الذي تنبأ للمهدي بأنه سيكون له شأن عظيم في المغرب. أنظر: البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار منصور للطباعة، الرباط،1971، د(ط). ص11. / ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص111.110.

(43) نقلاً عن: اللطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين...،ص134.133.

(44) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص127.

(45) زينب النفزاوية زوجة الأمير يوسف بن تاشفين التي وصفت بأنها حازمة لبيبة ذات رأي وعقل وجزالة و معرفةً بالأمور. أنظر: ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص86. وهناك أيضاً زينب بنت إبراهيم بن تيفلويت زوج أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين التي وصفت بأنها كانت من أهل الخير والنوافل و الصالصلة، أنظر: ابن الآبار، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1956م ، رقم2876. نقلاً عن: عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص28.

(46) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص127/ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص30.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

٧- استخدام المرابطين لأهل الذمة في بعض أمور المسلمين:

بالرغم من أن أمر استخدام النصارى كان شيئاً مألوفاً في الأندلس في عصري الإمارة والخلافة وعصر الطوائف، فإن استخدام المرابطين لفرقة من النصارى ضمن جندهم كان سبباً في ثورة أهل الأندلس عليهم، وذلك حسب ما ذكرته- عصمت دندش- نقلاً عن الأستاذ كوديرا[47]، والفرقة التي تكونت كانت من بعض النصارى الذين غربوا في الأندلس، أو ممن وقعوا في الأسر، وبعد فتوى من القاضي ابن رشد، وقد عهد بقيادتها للربرتير[48] الذي اعتنق الإسلام، وأنهم سكنوا في حي خاص بهم يعيشون فيه حياتهم بحرية، لهم حوانيتهم وحاناتهم وأسواقهم التي يبيعون فيها حوائجهم من بينها الخنازير التي يربونها، ومن الممكن أن ابن تومرت كان يقصدهم بعبارته التي وجهها للقاضي ابن الأسود في مجلس الأمير علي بن يوسف:« فهل بلغك أن الخمر تباع جهارا، وتمشي الخنازير بين الناس، وتأخذ أموال اليتامى، وعدد من ذلك شيء كثير»[49].

ولا يعرف على المرابطين أنهم استخدموا أهل الذمة في الشؤون الأخرى للمسلمين رغم أن هناك من قال ومنهم ابن الخطيب أن الأمير علي بن يوسف:« هو أول من استعمل الروم بالمغرب وأركبهم وقدمهم على جباية المغارم»[50].ولم يذكر مؤرخوا الموحدين ذلك؛ بل بالعكس هناك رسالة مؤرخة سنة(535هـ/1143م) من الأمير تاشفين بن علي تؤكد على عدم استخدام أهل الذمة في شؤون المسلمين يقول فيها:« وكذلك نؤكد عليكم أتَمَّ تأكيد أمر أهل الذمة، ألا يترف أحد منهم في أمور المسلمين لأنه من فساد الدين »[51].

وقد ساهم النصارى المرتزقة في الجيش المرابطي بشكل واضح، وأول دخول لهم فيه كان في عهد الأمير يوسف بن تاشفين عند شرائه لحوالي240 فارساً نصرانياً من الأندلس، وشكل

(47) عبد اللطيف دندش، نفس المرجع، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص32.

(48)الربرتيرreverter: كان من قادة أمير برشلونة وأراغون ومن كبار رجال دولته، وقد وقع في أسر علي بن ميمون قائد الأسطول المرابطي، فأتى به إلى مراكش حيث اعتنق الإسلام، ودخل في خدمة المرابطين، ولازم الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، فولاه قيادة الفرقة النصرانية، وقد قتل في إحدى المعارك بين المرابطين والموحدين في بلاد السوس، وقد أنجب ولداً أسماه علياً دخل فيما بعد خدمة الموحدين، إلى أن قتل في معركة بين جيش الموحدين وثوار بني غانية. أنظر: ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص103./ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص102./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص32.

(49) ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص50.

(50) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص62.61.

(51) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص113./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص33.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

منهم فرقة الحرص الخاص لحمايته، ولاتقاء تمرد القبائل في المغرب، وقد ازداد عددهم بشكل واضح بعد انتصار الزلاقة(479هـ/1086م)،كما أنهم لقوا اهتماماً كبيراً في عهد ابنه الأمير علي بن يوسف الذي خصص لهم مرتبات ومكافآت كبيرة على حساب بقي العناصر المكونة للجيش المرابطي، وهو ما أشار إليه ابن عذاري المراكشي في قوله:« كان علي بن يوسف في آخر أمره امتنع الإعطاء عن أجناده حتى رجع أكثرهم يكرون دوابهم، وهو أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين في مغامراتهم ويأخذون منهم في نفقاتهم»[52]. وفي عهد الأمير تاشفين بن علي فقد تمَّ استخدام فرق النصارى بشكل كبير في الجيش، وكان ذلك واضح في أغلب المعارك التي خاضها المرابطين وبخاصةٍ ضد الموحدين[53].

٨ – تسامح المرابطون الشديد مع مثيري الفتن والشغب:

تهاون الأمراء المرابطين كثيراً في الضرب على أيدي العابثين بأمن الدولة، و لم يعرف عليهم أنهم أمروا بقتل مشاغب إلا في حالات نادرة، وقد كان أقصى عقاب عندهم هو الاعتقال الطويل الأجل فقط، ونلمس هذا التهاون في معاملة أهل غرناطة عندما ثاروا على القائد الكبير مزدلي الذي أفنى حياته في الجهاد، وكان كل ما قام به الأمير علي بن يوسف تجاه المشاغبين من أهل غرناطة هو إصدار كتاب لهم فيه تهديداً خفيفاً يقول فيه:« إذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتركوا سابقة الهوى، واسلكوا معه الطريق المثلى، ودعوا التنافس على حطام الدنيا، وليقبل كل واحدٍ منكم على ما يعنيه، ولا يشتغل بما ينصبه ويعنيه»[54]. ولو كان هذا التشغيب حدث في عهد الموحدين لكان مصير أصحابه بالتأكيد العقاب الشديد[55].

كما كانت معاملة الأمير علي بن يوسف لزعماء الصوفية فيها كثيرٌ من التسامح رغم تورطهم في زعزعة أمن الدولة، ومرد هذا التسامح أساساً إلى طبيعة وسلوك الأمراء المرابطين الذي يميل إلى السلوك الصوفي، فلم تؤخذ حركة المهدي أو حركة المريدين فيما بعد بجدية واهتمام، كما حدث مثلاً لكتب الغزالي، حتى أن الرسائل الكثيرة الصادرة من أمير المسلمين تاشفين بن علي تخلوا من أية إشارة لهذه الحركة؛ وإنما الإلحاح على الإلتزام بالمذهب المالكي في

(52) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص102.

(53) محمد غومة، المرجع السابق، ص ص11.13.

(54) محمود مكي، المرجع السابق، ص184. نقلاً عن: عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص35.

(55) عبد اللطيف دندش، نفس المرجع، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص35.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

القضاء والفتوى وكل ما يتعلق بالأحكام بين الناس، ومحاربة كتب أبي حامد الغزالي[56].

٩- انتشار التصوف وثورة المريدين والقضاة:

أخذ التصوف والزهد ينتشران في البلاد خاصةً في الأندلس، بعد أن عمَّ الفساد في المجتمع وتعرضت البلاد لهجمات النصارى، وتسلط الفقهاء على الناس وفرضوا عليهم مذهبهم وأرائهم ،وضعف الحكام المرابطين، واستفحل الفساد بين عمال الدولة وقضاتها، ولجأ الكثير من الناس إلى الانعزال عن الحياة والزهد فيها، وظهرت في الأندلس عدة فرق كان من أشهرها مدرسة المرية التي تزعمها المتصوف الكبير- أبو العباس بن العريف- الذي امتدت حركته إلى مناطق كثيرة في الأندلس كقرطبة ومرسيه وبلنسيه وغرناطة وغيرها، وأرسل مريديه إلى كل مكان.

وقد تنوعت اتجاهات وأفكار هذه الفرق فمنهم من كان يميل إلى الالتزام بالكتاب والسنة كحركة ابن عريف، ومنهم من كان يميل للباطنية، ومن كان يميل للمذهب الظاهري، وتورط بعض المتطرفين منهم في عدة اغتيالات لأعوان الدولة المرابطية كاغتيال القاضي أبي عبد الله محمد ابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة[57].والاعتداء على أبو بكر بن عربي قاضي الجماعة باشبيلية[58]. وهو الأمر الذي جعل الحكام المرابطين يتخلون عن سياسة المهادنة مع المريدين التي دعا إليها ابن عريف، والتشدد في ملاحقتهم والتصدي لهم، الأمر الذي أحدث انشقاقاً بين صفوفهم[59].

ومن ناحيةٍ أخرى تصدى الفقهاء لابن عريف وسفهوا مذهبه وأشاروا على الأمير علي بن يوسف بضرورة الخلاص منه ومن أتباعه، فأمر الأمير بنفيه إلى مراكش ليكون بعيداً عن مريديه لكنه عاد إلى الأندلس وتوفي بها سنة(536هـ/1141م)، وتزعم حركة المريدين من بعده -أحمد ابن قسي- الذي كان له توجهاً مغايراً تماماً لسلفه، فألب الناس على المرابطين، ودعا إلى نزع الحكم منهم والثورة ضدهم، مستغلاً الضعف الذي خيَّم عليهم، وتشتت قواهم وتعدد الجبهات ضدهم، من طرف النصارى في الأندلس والموحدين في المغرب، لتبدأ ثورة المريدين

(56) نفس المرجع، ص44.43.

(57) أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1،سنة1989، ج3، ص845.844./ابن عذاري المراكشي ، المصدر السابق، ج4، ص93.

(58) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص93./ دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين..،ص65.64.

(59) الفقي، المرجع السابق، ص262.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الدينية والسياسية فعلاً ضد المرابطين سنة(539هـ/1144م)[60].

فعندما كثر أتباعه أخذ ابن قسي في مهاجمة الحصون المرابطية وطرد الحاميات الموجودة بها، لكن أمير جند المرابطين بقرطبة وهو ابن غانية استطاع أن يتصدى لثورتهم ويلحق بهم هزائم كثيرة، بيد أن ذلك لم يثني من عزيمة ابن قسي الذي تحالف مع الموحدين بحجة أنه يؤمن بالعقائد نفسها التي جاء بها ابن تومرت، فعينه عبد المؤمن والياً على غرب الأندلس، الأمر الذي ألب عليه أنصاره الذين تحولوا عنه إلى المرابطين[61]. ثم ثار بعدها ما تبقى من أنصاره في شلب بغرب الأندلس ضده، وقتلوه بعدما تحالف مع ألفونس السابع ضد الموحدين، وبذلك تنتهي ثورة المريدين التي كانت تستهدف الخلاص من حكم المرابطين[62]،وكان ذلك في حدود سنة (551هـ/1156م)[63].

أما بالنسبة لثورة القضاة فقد استغل العامة في قرطبة ابتعاد القائد المرابطي ابن غانية عن المدينة لمحاربة المريدين وثاروا بقيادة القاضي أبي جعفر بن حمدين، وخلعوا ابن غانية وولوا ابن حمدين عليهم وطردوا المرابطين خارج المدينة، ثم لم يلبث أن ثار الناس بابن حمدين وولوا سيف الدولة بن هود عليهم، والذي كان عميلاً لألفونس ملك قشتالة يحرضه ضد المسلمين، يستخدمه أداة ضدهم وفي إشاعة الفرقة بينهم، وانتزاع ما يستطيع من أراضيهم، وكان يعاونه بالمال والجند لبلوغ أهدافه، وسرعان ما قتل ابن هود وتولى ابن مردنيش أمور شرق الأندلس مكانه، وواجه الموحدون مقاومة عنيفة منه، واستمر مسيطرًا على شرق الأندلس حتى عام (567هـ/1171م)، أما زعماء غرب ووسط الأندلس فقد استسلموا للموحدين ودخلوا في طاعتهم[64].

ومن العوامل المساعدة على تحلل عصبية المرابطين: نجد كذلك:

أ- تخاذل الجند وتخليهم عن روح التقشف والجهاد:

وهي السمات التي تربوا عليها وذلك لتأثرهم بحياة الترف الأندلسية، كما أن الحروب المستمرة في جبهة الأندلس استنفذت جزءاً كبيراً من طاقة المرابطين الحربية مما أسهم في هزائمهم

(60) نفس المرجع، ص263.

(61) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص170/ الفقي، المرجع السابق، ص264.

(62) الفقي، نفس المرجع، ص271.

(63) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص171.

(64) الفقي، المرجع السابق، ص264.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المتكررة أمام الموحدين، ويضاف إلى ذلك كثرة الإنفاق الحربي الذي استنزف كثيرًا من المال، وأدى إلى التدهور الاقتصادي الذي عانته البلاد في أواخر أيامها[65].

ب- وقوع الخلاف بين قبائل المرابطين:

كانت دولة المرابطين تقوم على ثلاث قبائل كبرى هي أصل أعياصهم هي لمتونة ومسوفة وجدالة، ولذلك عندما وقع الخلاف بين جدالة ولمتونة سنة(454هـ/1026م)سارع الأمير أبي بكر ابن عمر بالعودة إلى الصحراء ليصلح بينهما[66]، وحتى لا يدع لمثل هذه المنازعات المجال مرة أخرى، وجه نشاط هذه القبائل إلى الجهاد في بلاد السودان[67]. وأشارت الباحثة – دندش- لذلك الخلاف بقولها:« وامتد الخلل إلى الصحراء، فانبثقت الحزازات القبلية فيها والتي كان المرابطون قد أضعفوها، فانتهزت قبائل الملثمين هذه الفرصة إذ رفضت قبيلة مسوفة العمل تحت رئاسة أي من زعماء لمتونة، فكان ذلك التمرد بمثابة كارثة تهدد الدولة المرابطية في الجنوب باعتبار أن مسوفة ولمتونة تشكلان العمود الفقري للجيوش المرابطية، وهو ما يهدد قوة المرابطين حتى في الشمال باعتبار أن الإمدادات بالجند منهما ستتوقف، وانتهزت الفرصة أيضاً قبيلة جداله التي كانت دائمة التمرد منذ بداية حركة المرابطين، فكلما أحست بانشغال المرابطين في جبهة من الجبهات حاولت الانقضاض على القبائل الملثمة الأخرى»[68].

وانتهزت بلاد السودان أيضاً ذلك الخلاف بين القبائل الأساسية في الدولة وأعلنت استقلالها، فاستقلت مملكة غانا وأصبح ملكها يخطب لنفسه تحت طاعة أمير المسلمين العباسي في بغداد[69].

ج – إحراق كتب الإمام الغزالي:

وقد تمَّ ذلك في عهد الأمير علي بن تاشفين عملاً بنصيحة وإشارة من الفقهاء يتقدمهم ابن حمدين، وقد استغلها داعية الموحدين ابن تومرت للنيل من المرابطين والدعاية ضد حكمهم رافعاً شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وستكون لنا عودة وتفصيل لهذه النقطة لاحقاً.

---

(65) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص44.43.

(66) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص12./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص86.

(67) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين في نشر الإسلام...،ص101.

(68) نفس المرجع، ص135.

(69) الإدريسي الشريف، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، طبع بمدينة إيدن، مطبعة بريل، عام1866، د(ط). ص6. / عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين...،ص137.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

د – قوة ودهاء شخصية المهدي ابن تومرت:

بجانب ذلك كله وجود شخصية ذكية لعبت دورها بدهاء على مسرح الأحداث لاجتذاب أكبر عدد ممكن من الأتباع وهي شخصية عبد الله بن تومرت الذي تجول في العالم الإسلامي، واستغل ذكاءه وعلمه في نشرد دعوته الدينية التي كانت مضادة لمبادئ المرابطين الدينية، واستخدم كل الوسائل الممكنة في التأثير على أتباعه ومريديه، ثم تلك القيادة العسكرية الحكيمة المتمثلة عبد المؤمن بن علي خليفة ابن تومرت في قيادة الموحدين، والذي استخدم مقدرته وذكائه في محاربة المرابطين وعدم توفر ذلك للمرابطين، حيث يذكر ابن الخطيب:«كان الموحدون يسيرون في الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة، وكان تاشفين يترل البسائط فلا يجد من البرابرة من يواصله ولا من يستعين به ويداخله، وذلك بسبب الإدبار، وانقطاع الدولة والأنصار»[70].مع استناد الموحدين في دعوتهم إلى قبائل المصامدة الكثيرة العدد، وقدم عداوتهم للملثمين[71]. وسوف نعود لهذه النقطة عند التطرق لصدام الدعوة المرابطية مع الموحدية.

هـــ– تدهور أحوال الزراعة ونقص الأموال:

عرفت الزراعة نوعاً من التدهور في أواخر عهد المرابطين مما زاد من حاجة الدولة إلى المال لمدافعة ثورة ابن تومرت والموحدين بالمغرب والنصارى في الأندلس، فرفعت الضرائب على الفلاحين، وتعسف الجباة والخراص[72] في جباية أعشار ثمار الزيتون ومختلف الزروع، مما جعل الكثير من الفلاحين يهملون زراعاتهم ويهجرون ضياعهم، وكثرت الشكايات خصوصاً من أهل الأندلس؛ حتى أن أهل مالقة وأحوازها التي تعتمد على زراعة الكروم والتين ألَّفوا من بينهم وفوداً توجهت بتظلماتها إلى مراكش لعرض الأمر على الأمير علي بن يوسف نفسه، الذي أصدر أوامره إلى القضاة لبحث هذه الشكاوي والتحري عنها والعمل على إزالة أسبابها، من بينها ما جاء في قوله:« وقد تجمعت الآن بهذه الحضرة عصائب الشاكين وكثرت رقائع المتظلمين ، فوكلنا ذلك إلى قضاة البلدان، وألزمناهم القيام به، والفحص عنه في الحين»[73].

والذي زاد الطِّين بلة هو تعرض بلاد الأندلس سنين متوالية لغارات الجراد التي أتت على

(70) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص97.96.

(71) الميلي المبارك، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د(ط٨ س)، ج2، ص228./ حسن علي حسن، المرجع السابق، ص44.

(72) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص168.

(73) محمود مكي، المرجع السابق، ص171. نقلاً عن: عبد اللطيف دندش، نفس المرجع، الأندلس في نهاية المرابطين..،ص168.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

معظم المحاصيل الزراعية وأتلفت الخضروات وغيرها، وقد أعلمنا ابن القطان بتلك السنوات التي فتك فيها الجراد بالحقول الزراعية وهي مابين سنة(535و541هـ/1132و1138م)[74]. هي ستة سنوات محا فيها الجراد ما على الأرض من زرع وكلأ أضَّر بالبلاد ضرراً جسيماً، وأثر على معاش الناس ودخل الدولة[75]،حتى أصبح هذا المشكل من المشاغل المهمة عند أمراء الدولة المرابطية. ومما زاد في خراب الأرض والديار هو توالي هجمات ألفونس ملك قشتالة وغيره من ملوك النصارى كل على الأراضي المجاورة له، فخربوا القرى وانتسفوا الزروع، وأثخنوا في الحدائق والحقول والقرى والناس والدواب، وأضرموا النار في المحاصيل[76].

ب – الجوانب والمظـــاهر:

بداية إذن من فترة حكم الأمير علي بن يوسف أخذت عصبية المرابطين الدينية في التحلل والأفول، ومن بين المظاهر الدالة على ذلك مايلي:

١ – ازدياد نفوذ وتحكم الفقهاء المالكيين في الدولة المرابطية:

بما أن المرابطين كانوا قوماً متمسكين بالدِّين ممجدين لرجاله، فقد ظَّل فقهاء المذهب المالكي يحكمون قبضتهم على دواليب السلطة في دولة المرابطين وذلك منذ عهد عبدالله بن ياسين، حتى أن المرابطين كانوا بعد موته لا يبرمون أمراً من أمور دولتهم دون استشارة الفقهاء، ومن أكبر الأدلة على نفوذهم أيضاً أن الأمير يوسف بن تاشفين حين همَّ بمساعدة مسلمي الأندلس ضد النصارى، لم يرى بُداً من الرجوع إلى رأي الفقهاء الذين أفتوه بوجوب حرب النصارى، ثم أملوا عليه الكتاب الذي وجهه إلى ألفونس السادس في الأندلس، وكانت هذه الرسالة على نمط الرسائل التي كان يرسلها النبي والخلفاء الراشدين من بعده إلى الملوك، ومما يدُّل كذلك على نفوذهم ما ذكره المراكشي:« أن علي بن يوسف بن تاشفين كان لا يقطع أمراً دون مشاورة الفقهاء»[77].

كما لا ننسى أن الفقهاء في الأندلس هُم الذين طلبوا من يوسف بن تاشفين القدوم إلى بلدهم وأفتوه بخلع ملوك الطوائف، وأن علي بن يوسف لما فكر في تسوير مدينة مراكش سنة (519هـ/1128م) استفتى الفقهاء كذلك، وقد اشترك ابن رشد الأندلسي في مجلس الأمير

(74) ابن القطان، المصدر السابق، ص ص228..252. بتصرف.

(75) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص169.

(76) نفس المرجع، ص171.

(77) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص122.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

علي وأفتى بصحة هذه الفتوى، وأفتاه كذلك بابعاد النصارى المعاهدين بغرناطة إلى المغرب لمساعدتهم(ابن روذمير) وغدرهم بالمسلمين، فتَّم ترحيلهم إلى المغرب إلى مكناسة وسلا[78].

وعليه قد قويت سلطة فقهاء المذهب المالكي في عهد المرابطين وخاصةً في بلاد الأندلس؛ إذ لجأ المرابطين إلى استشارة الفقهاء في كل أمور السياسة والحكم الأمر الذي أضعف أداة الحكم لديهم لأن رجال الدين ليسوا هم أهل سياسة، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى سخط الأهالي على حكومة المرابطين[79]، وقد نال الفقهاء من ذلك النفوذ مكاسب كبيرة وثروات ضخمة، أثارت حفائظ الشعب تجاههم، وكان من الطبيعي أن ينتهز الفقهاء فترة ضعف دولة المرابطين ويكونون أول المغامرين، ويعلن كل واحد منهم الاستقلال في بلده[80].

وعلى هذا الأساس؛ نلاحظ أن دولة المرابطين لما كانت أساسها ديني وملوكها الثلاثة ذووا زهد وعبادة، فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء ليمنحوا الدولة الصبغة الدينية التي يؤثروها، فأرتفع شأن هؤلاء أكثر من ذي قبل، فكان علي بن يوسف:« لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، وكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً، ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بحضور أربعة من الفقهاء، فبلغوا في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس»[81].

٢- مشاركة المرأة المرابطية في مختلف المجالات(الحكم والأدب والعلم):

فقد أدت المرأة المرابطية على الصعيد السياسي دوراً قلَّ نظيره؛ إذ كان لها ضلع واسع في نشأة الدولة المرابطية، وأكبر دليل على ذلك الدور الذي لعبته زينب النفزاوية زوجة الأمير يوسف بن تاشفين بما كان لها من الحنكة والذكاء[82] جعلها تتفوق حتى على الرجال:« وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده »[83]. فلعبت دور المستشار ليوسف بن تاشفين، وكان كلما واجهته مشكلة لجأ إليها، بل ويعود لها الفضل في تدبير فتح المرابطين للمغرب، فاستقامت له الدولة وترسخت جذورها بفضل حنكتها وذكائها، وهذا ما جعل البعض يشبه دورها

(78) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص70./ حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج4، ص432.

(79) عبد الرؤوف الفقي، المرجع السابق ، ص260.

(80) عباس إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين**، دار الشروق، عمان، الأردن، سنة1997، د(ط)، ص38./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين في نشر الإسلام...، ص133.

(81) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص122./عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين...، ص133.132.

(82) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص48.

(83) ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص125.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بالدور الذي قامت به زوجات النبي(ﷺ) خديجة وعائشة في التمكين للدعوة الإسلامية[84].

وتجلى دور المرأة بوضوح في تدخلها في ولاية العهد وعزل الولاة والقضاة وردِّهم إلى مناصبهم؛ بل أن إحداهُنّ قد تزعمت إحدى قبائل مسوفة في منطقة تغاره بالجنوب المغربي، وتشير المصادر أن إحدى المرابطيات وهي-تماكونت ابنة ينتيان بن عمر- تمكنت من إقناع عبد المؤمن بن علي عندما اجتاحت الجيوش الموحدية مراكش من أن يطلق سراحها مع كل النِّساء اللائي كنَّ معها، وقد بلغ عددهنَّ1500. فأمتثل الخليفة الموحدي لطلبها، وأطلق سراحهنَّ مكرمات معززات[85].

ونظراً لما تمتعت به المرأة من دور سياسي فقد تغنى بفضائلها الشعراء، وأنها لم تقل شأناً عن الأمراء في رعاية الشعراء وإجزال العطايا لهم، فأصبحت مقصدًا لذوي الحاجات لشفاعتها، تهب المنح وتعفوا عن المساجين، وترد المنكوبين إلى مناصبهم، ويذكر في هذا الصدد أن الشاعر ابن خفاجة قد كتب إلى الأميرة - مريم بنت أبي بكر بن تيفلويت- قصيدةً يتشفع فيها لزوجها الأمير - أبي الطاهر تميم-، فنفذت عهده بأجمل وجوه البر والمكرمات[86].

وعلاوةً على دور المرأة في الحياة السياسية، فإنها قامت بدور هام على المستوى الحربي، فكانت تشارك إلى جانب الرجال في المعارك، ومنهنَّ مثلاً زوجة تاشفين بن علي التي خرجت مع زوجها على الفرس نفسه إبان المواجهة الأخيرة مع الموحدين في وهران، وشهد البيذق[87] نفسه رغم عدائه للمرابطين ببسالة- فانو بنت عمر بنت ينتيان- التي قاومت الموحدين في هيئة رجل، واستطاعت أن تنتزع إعجاب قادة الجيش الموحدي،كما لا يقل شأن المرأة في المجال الثقافي إذ أنها تعاطت العلوم والمعرفة بشكل ملفت للانتباه، وساهمت في مجالس العلم وروَّينَّ الحديث، وقرأنَّ على الشيوخ[88].

ونخلص مما سبق أن المرأة المرابطية، قد اضطلعت بمهام كبيرة، وكانت لها أدوار طليعة في شتى المجالات، وهو ما يفسر اعتزاز بعض الرجال بالانتساب إلى أمهاتهنَّ أمثال إبراهيم بن يوسف بن

(84) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص49 .

(85)حسن علي حسن، المرجع السابق، ص355./البيذق، المصدر السابق، ص92.91./ القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص49.

(86) ابن خفاجة، **ديـــوانه**، تح: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط1، سنة2006، ص290./ القادري بوتشيش، نفس المرجع، ص49.

(87) البيذق، المصدر السابق، ص64.

(88) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص50 .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تاشفين، الذي عرف بابن تعيشت اسم أمه[89]، واشتهر الأمير محمد بن عبد الله بن ينغمر اللمتوني باسم ابن حواء[90]، كما انتسب بعض الولاة والقادة إلى أمهاتهم كذلك مثل والي بلنسية محمد بن فاطمة[91] وأخيه عبد الله بن فاطمة، وعرف أحد ولاة قرطبة باسم ابن جنونة، واشتهر القائد ابن عائشة بقيادة الجيوش المرابطية[92]، والأمثلة كثيرة في ذلك.

٣- تأثر المرابطين بالأندلسيين وانغماسهم في حياة الترف والنعيم:

تعد فترة حكم الأمير علي بن يوسف شاهداً على الصبغة الأندلسية الشديدة في دولة المرابطين بحيث لم تؤثر الأندلس في المغرب من عدة نواحي فحسب؛ وإنما قصد مراكش عدد كبير من الأندلسيين ليقيموا في عاصمة الأمير، وقد أوضح لنا المراكشي ذلك بقوله:« و لم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي[93] أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك»[94].

ولا شك أن الأندلسيين كانت لهم كلمة مسموعة عند الأمراء المرابطين، وقد ساهموا بشكل كبير في الإصلاحات التي قاموا بها، وذلك منذ عهد الأمير يوسف بن تاشفين، كما إنهم لم يكونوا بمعزل عن القرار الذي اتخذه الأمير علي بن يوسف بأن يحيط نفسه في مراكش بفرقة من الجند المسيحيين، وبتكليف بعض الضباط منهم بأعمال هامة من بينها جباية الضرائب، فأعتبر بذلك الأمير علي بن يوسف أول من استعمل الروم بالمغرب وأركبهم وقدمهم على جباية الضرائب[95]. ويبدوا أن لنشأة علي بن يوسف الأندلسية تأثيرٌ كبير عليه، فهو لم يكن صحراوياً قُحاً مثل أبوه من قبل و لم يولد في الصحراء، وإنما ولد على ضفاف البحر المتوسط في مدينة سبتة من أم مسيحية من السبَايَا، وتلقى ثقافة أندلسية بحتة منذ نعومة أظفاره[96].

وبدأ المرابطون ينغمسون في التمتع بكل مباهج الحضارة الأندلسية فعاشوا أقرب ما يكونون

(89) ابن القطان، المصدر السابق، ص130./ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن القضاعي البلنسي المعروف بـــ:ابن الآبار: ت(658هـــ). **المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي**، ص33. كتاب إلكتروني من موقع مكتبة: www.al-mostafa.com .

(90) البيذق، المصدر السابق، ص64.

(91) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص42.

(92) نفس المصدر، ج2، ص79./ القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص51.52.

(93) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين...،ص131.

(94) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص124.123.

(95) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص61.

(96) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص102.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بملوك الطوائف، وتجلى ذلك بوضوح في بناء القصور وٱلْمَنِيَاتْ فضلاً عن التأنق في المأكل والملبس، وكان بناء القصور وٱلْمَنِيَاتْ سواء في المغرب أو الأندلس قد شاع في عهد الأمير علي ابن يوسف بن تاشفين، وليس أدل على ذلك من القصر الذي بناه لنفسه في مدينة اشبيلية وكان يترل فيه عند زيارته للمدينة، وأقام أمير المسلمين قصراً آخر في مدينة مرسيه، وقد حذا الأمراء حذو الأمير علي بن يوسف فعاشوا في ولاياتهم حياةً مترفةً وتأنقوا في المأكل والملبس وتشييد القصور[97]. وقد أشار الإدريسي إلى كثرة قصور الأمراء والقادة في مراكش حاضرة الدولة بقوله:« وكان بها- أي مراكش- أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدم الدولة»[98].

وعلى الرغم من نشأتهم الدينية في الصحراء وتأثرهم بتعاليم الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين، لم يستطع المرابطون مقاومة مباهج الحضارة الأندلسية بكل مظاهرها ومفاتنها، ولا سيما فن الغناء والموسيقى والطرب، وإذا كان ذلك قد ظهر واضحاً في عصر الأمير علي بن يوسف إلى أن البوادر الأولى لذلك كانت في عصر يوسف بن تاشفين نفسه؛ إذ يؤكد الدكتور-حسن أحمد محمود- بأن الأمير يوسف كان يستمع الغناء ويطرب له، فقد أهداه المعتمد بن عباد جارية له حسنة الصوت جيدة الغناء سمع منها وطرب لغنائها[99].إلا أن عصر علي بن يوسف كان عصر انغماس بمباهج الحضارة الأندلسية، فقد شغُف بمجالس الغناء والطرب وتجلى ذلك في المجلس الذي حضره، والذي قال فيه الوزير أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري:

لا تلمني إذا طربت لشجــوٍ *** يبعث الأنس فالكريم طروب

ليس شَقُّ الجيوب حقٌ علينا *** إنما الحق أن تُشَقَّ القلــوب[100].

وكانت مجالس الأنس والطرب من الأمور المألوفة في حياة أمراء الأندلس، فقد كانوا يعقدون مجالس الطرب في قصورهم ومَنِيَاتِهم، ويصف ابن خفاجة البلنسي مجلساً من تلك المجالس في بلنسية فيقول: فكم يوم لهو قد أردنا بأقفــه *** نجــوم كؤس بين أقمار ندمــان

وللقضيب والأطيار ملهى يجزعه*** فما شئت من رقص على رجع ألحان[101].

(97) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص344.

(98) الإدريسي الشريف، المصدر السابق، ص68.

(99) حسن محمود، المرجع السابق، ص442.

(100) المقري أحمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، د(ط). ج3، ص232.

(101) سالم عبد العزيز، **قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، سنة1997، ج2، ص110. د(ط)./ حمدي عبد المنعم، المرجع السابق ، ص341.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وكان انغماس المرابطين في حياة الترف والنعيم سبباً في فقدان خصائصهم البدوية، وخضعوا للنساء وانغمسوا في الشهوات والملذات، فضعف أمرهم واختلت أحوالهم.

٤- انتشار الفساد وتحلل الأخلاق:

ما ميز الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس أثناء فترة المرابطين كذلك هو انتشار بعض العادات المحرمة كشرب الخمر، فرغم التحفظ على مزاعم ابن تومرت التي ذكرناها من قبل بسبب معاداته للمرابطين، والتي قال فيها بأن الخمور كانت تباع وتشترى علناً في الأسواق [102]. إلا أن هناك نصوصا أخرى مرابطية تؤكد ذلك، ولكن ليس بالشكل الذي ادعاه ابن تومرت، فقد وردت بعض الرسائل تشير إلى انتشار هذه العادة السيئة، كما تنبه وتطالب ولاة الأمور من التدخل لوضع حدٍلها، فقد كتب الفتح بن خاقان[103] رسالةً إلى أحد القضاة يناشده العمل على الحد من انتشار هذه العادة الذميمة التي عمت المنازل(أصبحت الخمور تصنع في المنازل نتيجة الرقابة ومنع المرابطين المحلات بيعها)،و لم يسلم منها حتى هو نفسه أي-ابن خاقان- ، وحسبنا أن القاضي عياض قد أقام عليه الحد حين دخل إلى مجلسه مخموراً[104].

وتعكس إحدى الرسائل المرابطية الرسمية الموجهة إلى أهل بلنسية هذه الحقيقة، وقد تضمنت أمراً بقطع مادتها وإراقتها ومنع ذيوعها بين الناس[105]. لكن هذه الأوامر لم تكن من الحزم والشِّدة التي تسمح باستئصال شأفة هذه العادة التي أصبحت ترمز عند متعاطيها من الوجهاء إلى الترف والتفسخ الأخلاقي الذي وصلوا إليه، أما طبقة العامة فلم تفعل ذلك إلا لتغطية المشاكل التي تعترضتها في حياتها، فعندما استفسر القاضي ابن حمدين أحد السكارى الذين ألقى عليهم القبض عن سبب شربه للخمر علناً علل ذلك:« بفساد الزمان ومجافاة الإخوان»[106].

وسجلت الروايات عدداً من الحالات ضبط فيها أعوان الشرطة بعض العوام يحملون زجاجات الخمر، فقد عثروا على رجل متلبس ساقوه إلى القاضي أبي بكر بن العربي، فأدعى الرجل أنه يحمل الخمر لخادمة رومية توجد عنده بالمنزل، فاكتفى القاضي بلعنه[107].

---

(102) الناصري، المصدر السابق، ص76./ ابن خلكان، المصدر السابق، ج5 ، ص50.

(103) محمود مكي، المرجع السابق، ص189. نقلاً عن: القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص97.

(104) الونشريس، المصدر السابق، ج2، ص411.410.

(105) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص113/ القادري بوتشيش، المرجع السابق،ص97.

(106) الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص410./ القادري بوتشيش، نفس المرجع، ص98.97.

(107) مجهول، **طبقات المالكية** (مخ)، الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات، الرباط، رقم د3928، ص308.نقلاً عن: القادري بوتشيش، نفس المرجع، ص98.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ولعل أقصى ما وصلت إليه عقوبة شارب الخمر تمثلت في جلده بعد رجوعه إلى رشده، وهو ما يزكيه قول ابن عبدون:« إنه يجب ألا يجلد سكران حتى يفيق »[108].

ويضاف إلى عادة شرب الخمر عادة اجتماعية لا تقل خطورة عنها وهي عشق الغلمان التي انتشرت في أوساط الخاصة دون إنكار وجودها في أوساط العامة لكن في حدود ضيقة، مما يعكس أثر الوضع الاجتماعي على العادات والأخلاق، فرغم ما عرف عن عبد الله بن عائشة من ورع وزهد إلا أنه ظَّل يعشق فتى ويهواه[109]. وتترد في كتب السير والتراجم عادة عشق الغلمان من طرف أعلام الحقبة المرابطية وفقهائها بكثرة، وقد وصل الحد بأحدهم إلى أنه هوى غلاماً فكان:« لا يتصرف إلا في صفاته ولا يقف إلا بعرفانه، ولا يؤرقه إلا جواه»[110]. ويتبين من إحدى النوازل أن دور الخاصة والأعيان قد اكتظت بهم، وأنهم كانوا يورثون[111].

وبجانب ذلك انتشرت مجالس اللهو والغناء خاصة في الأندلس؛ إذ اشتهرت بعض المدن بكثرة ملاهيها وأمـــاكن الدعارة مثل برشانة وأبذة[112]،وكان يضرب المثل باشبيلية في الخلاعة[113]،مما جعل بعض المحتسبين يحاربون الملاهي[114] لكن محاولاتهم ظَّلت صيحة في واد؛ لأن بعض الأمراء المرابطين أنفسهم قد شغفوا بمجالس اللَّهو، وحسبنا أن يوسف بن تاشفين رغم تقواه كان يسمع الغناء، وقد أهداه المعتمد بن عباد كما رأيناه جارية حسنة الصوت، جيدة الغناء[115].

أما ابنه علي الذي فتن بمباهج الحضارة الأندلسية وتعلق بمجالس الطرب أحياناً، وأنه كان يقبل على الغزل رغم ورعه وتقواه وطرب له، ومن ذلك أنه أرسل إلى الشاعر ابن خفاجة وزيراً يقول له:(إن السلطان يريد أن تقول شعراً تفتحه بالغزل)، فلبى ابن خفاجة طلبه وكتب

(108) التجيي ابن عبدون محمد بن أحمد، **رسالة في الحسبة**، تح: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، د(ط). ص49.

(109) ابن خاقان أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي، **مطمح الأنفس ومسرح الأنس في ملح أهل الأندلس**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، سنة1983، ص346.

(110) نفس المصدر، ص369./ القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص99.

(111) محمد بن عياض، **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**(مخ).الخزانة الحسنية، رقم4042، ورقة158.نقلاً عن: القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص100.99.

(112) المقري، المصدر السابق، ج3، ص217.

(113) نفس المصدر، ج1، ص159.

(114) ابن المناصف، **تنبيه الحكام** (مخ).ص21. نقلاً عن: القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص100.

(115) حسن محمود، المرجع السابق، ص442.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

قصيدةً في الغزل رفعها إليه[116].

و لم يكن المغرب بمعزل عن هذا المناخ العام فقد أكد البيدق عند حديثه عن الطريق التي سلكها ابن تومرت في طريق عودته إلى مراكش أنه شاهد:« الحوانيت مملوءة دفوفاً وقراقر، ومزامر وعيداناً، وروطاً وأربيه وكيتارات، وجميع آلات اللَّهو»[117].وهو ما حمل المهدي على تكسيرها وتخريب ما بقي منها رغم ما تحمله هذه الـــرواية من تعصب[118]وحقد على المرابطين[119]. وفي هذه البيئة الفاسدة التي صاحبت هرم الدولة وتفسخها انتشرت عادات اجتماعية شاذة، كاستشراء الفساد والزنا الذي صار مشكلةً اجتماعية حطت بثقلها على المجتمع وطرحت على الفقهاء، فقد أشارت إحدى النوازل إلى امرأة(حملت من الزنا مرتين وأنها قتلت ما ولدت)[120].

٥- العجز عن القيام بالدفاع عن الأندلس:

كان مما ظهر على المرابطين في آخر أيام علي بن يوسف العجز عن الدفاع عن الأندلس، وكان هذا العجز نتيجة للتضحيات المتوالية التي تحملها المرابطون في الجهاد ضد الممالك المسيحية وفقدهم فيها الكثير من كبار قادتهم[121]، وكان لظهور حركة الموحدين بزعامة ابن تومرت ومهاجمتهم لأملاك المرابطين في المغرب الدور الرئيسي في إضعاف قوة المرابطين وشغلهم على الدفاع عن الأندلس، وعبر ابن أبي زرع عن ذلك بقوله:« وفي سنة(514هـ/1119م) ظهر المهدي الموحد بالمغرب واجتمع في طريقه من المشرق بعبد المؤمن بن علي، وفي سنة (519هـ/1124م) ضعفت الدولة اللمتونية وظهر فيها الخلل، واشتغلوا بحرب المهدي والموحدين القائمين عليهم بجبل درن وعجزوا عن نصرة الأندلس، وضعف أحوالهم واشتغلوا بأنفسهم عنها، وقوى أمر الموحدين، وملكوا بلاد كثيرة من بلاد المغرب حتى ضاقت الأرض

(116) ابن خفاجة، المصدر السابق، ص294./ حسن محمود، المرجع السابق، ص442.

(117) البيذق، المصدر السابق، ص24.23.

(118) رغم هذا التعصب فإن معظم المؤرخين قد تناقلوا هذه الرواية أنظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تح:أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء ،المغرب، 1964، د(ط).ج3، ص267. / ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص111.

(119) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص101.100.

(120) ابن الحاج، **النـــوازل**، الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات، الرباط، رقم ج55، ص87./ابن رشد، **النـــوازل**، الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات، الرباط، رقم ك731، ص69. نقلاً عن: القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص101.

(121) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص45.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

على المرابطين»[122].

ولا شك أن الأزمة المالية التي اشتدت مع قيام ثورة ابن تومرت قد ضاعفت من الالتزامات العسكرية للدولة، وساعدت على توقف الزراعة وما رافق ذلك من جذب حتى جفت الأرض وقلّت المجابي، وكثرت الضرائب على الرعايا من العدوتين والتي كانت سبباً في الثورة، فالوسائل التي أتبعت في جمعها كانت سبباً في تذمر الناس وثورتهم[123].

٦- انهيار قاعدة الجهاد التي قامت عليها دولة المرابطين:

لما كانت دولة المرابطين قائمة على قاعدة الجهاد فقد كانت تكاليف الحرب تأتي على معظم دخل الدولة علاوةً على أن أمراء المرابطين لم يكونوا مثل أمير المسلمين في تعففه عن أموال الناس، ويظهر ذلك مما كتبه ابن عبدون[124]؛ إذ يأسف ويقول:« إن الرئيس العادل الساعي إلى الخير،المرتبط بالناموس أصبح يلتمس، فلا يوجد »[125].

ووصل الأمر إلى استبداد بعض المرابطين في وظائفهم وكان يخشى محاسبتهم، ولذلك نصح ابن عبدون في رسالته أن تكون هناك طبقة من الموظفين منهم صاحب المدينة وصاحب المواريث والقاضي والمحتسب بأن يكونوا من أهل البلاد:« فإنهم أعرف بأمور الناس وطبقاتهم، وهم أيضاً أعدل في الحكم، وأحسن سيرة من غيرهم، وهم أنفع للسلطان وأوثق؛ لأن الرئيس يستحي أن يحاسب في عمله مرابطاً، أو ينكر عليه شيئاً مما قد فشا له عنده في الخطة التي ولاه»[126]. ويبين كلام ابن عبدون مدى النفوذ الذي كان يتمتع به الموظف المرابطي[127].

وهكذا انهارت القاعدة الجهادية التي قامت عليها دولة المرابطين، وابتعدت المسافة بين فئتي الإدارة العليا التي يمثلها أمير المسلمين الصالح الزاهد علي بن يوسف بن تاشفين وحوله الفقهاء، والفئة الثانية التي يمثلها الولاة إما مستبدون أو ضعاف تتصرف النساء في شؤون ولاياتهم، وكان معنى ذلك أن أية ريح قوية تهب على الدولة فسوف تعصف بها وتقضي عليها.

---

(122) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص110.

(123) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص45.

(124) نفس المرجع، ص135.

(125) ابن عبدون التجيبي، **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تح: ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ط1، سنة 1955 ، مج2 ، ص5/ إحسان عباس ، المرجع السابق،ص38.

(126) ابن عبدون، المصدر السابق، رسالة في الحسبة، ص14./ ابن عبدون، المصدر السابق، ثلاث رسائل أندلسية، مج2، ص16.

(127) إحسان عباس، المرجع السابق، ص31./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق ، دور المرابطين...،ص136.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الثاني

الصراع بين العصبية المرابطية والعصبية الموحدية

١- ظهور الدعوة الموحدية بقيادة المهدي بن تومرت:

بعدما استوفى عبد الله بن تومرت دراسته في المشرق عزم على العودة إلى وطنه ببلاد المغرب، ليبدأ دعوته الإصلاحية القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]، فبعد مروره بمصر نزل بتونس ومنها إلى قسنطينة ثم إلى بجاية؛ حيث تعرف خلال الدروس والمواعظ التي كان يقدمها للناس على عبد المؤمن بن علي الكومي الذي لازمه أينما حل وآزره في دعوته وشاطره مصيره[2]،ليغادر بعدها ابن تومرت وصحبه بجاية متوجهين إلى تلمسان ومنها إلى فاس، فنزل بعدة مساجد بها واعظًا، فأخذ الناس يهرعون إليه لينهلوا من علمه، وفي فاس أمر طلبته بمهاجمة حوانيت الطرب وتحطيم كل ما بها من آلات[3]،ولما بلغ والي المدينة المرابطي أمره، جمعه مع نفر من فقهاء فاس للمناظرة فتفوق عليهم ابن تومرت، فأشار الفقهاء على الوالي إخراجه من المدينة حتى لا يفسد عقول العامة، فأخرجه منها[4]، ومضى منها إلى مكناسة[5].

وفي مكناسة واصل دعوته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والأذى، فاضطر إلى السير إلى مراكش التي وصلها هو وأصحابه في منتصف ربيع الأول من سنة(515هـ/1120م)[6]حيث نزل بمسجد صومعة الطوب[7]مواصلاً بها دعوته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإراقة الخمر وتكسير آلات الطرب[8]. وفي الجمعة الأولى لوصوله لمراكش توجه إلى المسجد الجامع الذي اعتاد الأمير المرابطي علي بن يوسف أداء صلاة الجمعة فيه، فركع في الصف الأول على مقربة من المنبر، فحاول سدنة المسجد إقناعه بضرورة

---

(1) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص86.

(2) نفس المرجع، ص92.

(3) البيذق، المصدر السابق، ص24.23./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص111.

(4) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص132.

(5) مكناسة: مدينة بالمغرب قرب فاس، عبارة عن مدينتين صغيرتين اختط إحداهما يوسف بن تاشفين، وهي مشهورة بأشجار الزيتون ولذا سميت بمكناسة الزيتون، أنظر: الإدريسي الشريف، المصدر السابق، ص76./شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت،1977، د(ط). ج4، ص181،

(6) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص73.

(7) المراكشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تونس، عام1289هـ د(ط).، ص3.

(8) البيذق، المصدر السابق، ص27./ حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص94.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ترك هذا الموضع المخصص لأمير المسلمين، فأبى أن يتركه وتلا عليهم الآية:﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ** ﴾[9]. [10]. وعندما وصل الأمير علي بن يوسف قام إليه الحاضرون بينما بقي ابن تومرت في مكانه، ولما قضيت الصلاة سارع إلى مصافحته وأمره أن يغير المنكر ببلاده لأنه المسؤول عن رعيته، فلم يجبه أمير المسلمين ولكنه لم يكد يدخل إلى قصره حتى أرسل إليه يسأله إن كانت له حاجة خاصة يقضيها له، فأبدى ابن تومرت زهده في طلب أي شيء وأن لا حاجة له سوى تغيير المنكرات[11].

كما حدث ذات يوم أنه قابل الأميرة- صورة-أخت الأمير علي بن يوسف في موكبها رفقة جواريها سافرات على عادة المرابطين، فأنكر عليهنَّ سفورهنَّ وتبرجهنَّ وضرب هو وأصحابه دوابهنَّ فسقطت أخت الأمير عن دابتها[12]،فوقع الهرج والاضطراب، ورفع الأمر إلى الأمير علي بن يوسف فجمع الفقهاء وشاورهم في أمره، فأشاروا عليه بدعوته إلى المناظرة معهم[13].

فاستقدمه الأمير كما استقدم فقهاء مراكش وطلبتها وأشياخ لمتونة والمرابطين في مجلسه، وقال لهم:(إنما بعثت لكم لتختبروا أمره؛ فإن كان عالماً اتبعناه، وإن كان جاهلاً أدبناه).وعندئذٍ طلب ابن تومرت منهم أن يختاروا من ينوب عنهم في مناظرته فقدموا من اختاروه، فسأله ابن تومرت عن طرق العلم وهل هي منحصرة أم لا؟ فأجابه مقدمهم:« نعم هي منحصرة في الكتاب والسنة والمعاني التي نبهت عليها ». فقال ابن تومرت:« إنما سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا، فلم تذكر إلا واحداً منها، ومن شروط الجواب أن يكون مطابق للسؤال»، فلم يفهم قوله وعجز عن الرَّد، ثم سأله ابن تومرت عن أصول الحق والباطل ما هي، فعاد إلى جوابه الأول، فلما رأى ابن تومرت عجزه وأصحابه عن فهم السؤال ومعرفة الجواب[14]، أخذ يوضح لهم طرق العلم فبهرهم بعمق معارفه واتساع ثقافته، وفضح جهلهم وعجزهم[15].

وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء من علماء الفروع الجاهلون بعلم الأصول

---

(9) سورة الجن، جزء من الآية:18.

(10) ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص196./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص110.

(11) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص73./ حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص ص93.95.

(12)ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص196./ابن خلدون، المصدر السابق، تاريخ ابن خلدون، ج6،ص228./محمد عبد الله عنان، **دولة الاسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1990،ج1، ص169.

(13) ابن خلدون، نفس المصدر، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص228./ ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص112.

(14) ابن أبي زرع، نفس المصدر، ص112./ حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص95.

(15) حمدي عبد المنعم، نفس المرجع، ص96.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

القائم على دراسة الشريعة واشتقاقها من الكتاب والسنة، ودراسة النصوص الشرعية والأدلة العقلية، وتفاصيل العقائد وأصول الفقه، ومعرفة النبوة والرسالة وكل ما يتعلق بذلك [16]، في حين تقتصر معارفهم على علم الفروع الذي يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها والحدود والأقضية؛ أي على دراسة الجانب العلمي والدنيوي من الشريعة[17].

وكان من أخص ما تميزت به هذه المناظرة هو أن ابن تومرت قد أبدى في مناقشته تمسكه بأصول الشريعة إزاء الفقهاء المرابطين وهم أقطاب علم الفروع، وأراد أن يبين جهلهم بمناهج الشريعة الحقيقية، فجعل المناقشة تجري على الأصول لا على الفروع، وأبدى في عرضه أنه يرجع إلى الأصول الشرعية خاصةً القرآن والسنة ولا يرجع لقول مستخرج، ولا يعتبر الاجتهاد مرجعاً من مراجع الشريعة[18]، بينما كانت الدراسات المفضلة عند المرابطين هي علم الفروع.

ويقول المراكشي في هذا الصدد:« و لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِمَ عِلْمَ الفروع – أعني فروع مذهب الإمام مالك– فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب والعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نُسِيَ النظر في كتاب الله وحديث رسول الله (ﷺ)، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء »[19].

٢– إعلان ابن تومرت عن إمامته والدعوة ضد المرابطين:

لم يكن بين فقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت وتبحره في علوم الدين سوى فقيه أندلسي هو– مالك بن وهيب الاشبيلي– الذي كان من كبار العلماء والأدباء، فنبه الأمير إلى خطورة ابن تومرت وتعاليمه قائلاً له:« هذا رجل لا يبغي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه يبغي تضليل العامة، وإثارة الفتنة والوصول إلى السلطان ». وأشار عليه بقتله، ولما رفض الأمير ذلك أشار عليه بسجنه حتى يموت؛ لكن الأمير رفض كذلك وقال له:« عَلاَمَ نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه و لم يتعين لنا عليه حق؟، وهل السجن إلا أخو القتل؟، ولكن نأمره أن يخرج عنَّا من البلد وليتوجه حيث شاء»[20].

فخرج ابن تومرت وصحبه من مراكش وأقام في خيمة بالجنانة القريبة من المدينة، وانهال

(16) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص112.

(17) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص96.

(18) نفس المرجع، ص96.

(19) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص123.

(20) نفس المصدر، ص133./ حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص97.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الناس والطلاب عليه فكثر أتباعه ومريدوه، وعندئذٍ أخذ يتهم المرابطين بالتجسيم ويحثهم على قتالهم لأن قتالهم واجب على كل مؤمن[21]حسب اعتقاده، فبلغ الأمير علي بن يوسف ذلك وتبين له صحة ما قاله له الفقيه مالك بن وهيب من خطورة الرجل ودعوته، فعزم على قتله وأرسل من يأتيه برأسه، فسمع بذلك أحد تلامذته فأتاه مسرعاً بالقرب من خيمته ونادى بأعلى صوته:(يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين). وكرر النداء ثلاثة مرات ثم سكت، ففطن ابن تومرت لندائه وبادر بالخروج متخفياً[22] إلى أغمات[23].

ونزل ضيفاً على الفقيه المصمودي- عبد الحق إبراهيم-،فلما أخبره ابن تومرت بمقصده وما جرى له مع أمير المسلمين وفقهاء المرابطين، نصحه عبد الحق بترك أغمات والتوجه إلى تينملل؛ لأنها الأكثر حصانة ومنعة، فلما سمع ابن تومرت بهذا الاسم تذكر اسم هذا الموضع في كتاب الجفر الذي كان قد طالعه، ويتعلق بعلوم أهل البيت، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس من ذرية رسول الله(ﷺ) يدعو إلى الله يكون[24] مقامه ومدفنه بموضع من المغرب اسم هجاء حروفه(ت ي ن م ل)[25]، فعزم ابن تومرت على قصده.

وواصل مسيرته إلى بلاد السوس فوصل إلى جبل- إيجليز- من بلاد هرغة موطن قومه وعشيرته، فلما استوثق من قبيلته ومنعة موضعه اعتزم أن يعلن عن إمامته، وفي اليوم الخامس عشر من رمضان من سنة(515هـ/1121م) قام خطيباً في أصحابه وأعلن أنه المهدي المنتظر الذي بشربه رسول الله(ﷺ)[26]، ولما فرغ من خطبته جلس في ظِّل شجرة خروب ليتلقى البيعة من أصحابه، فهرع عشرة من أخلص أصحابه وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والمعصوم وكان أولهم عبد المؤمن بن علي، وقد أطلق على هؤلاء العشرة اسم أهل الجماعة، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجل فسموا أهل الخمسين، ومن بعدهم سبعون فسماهم أهل السبعين[27]، وهذه

(21) حمدي عبد المنعم، نفس المرجع، ص97.

(22) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص113./ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص133.

(23) أغمات مدينة صغيرة جنوب مراكش، كانت من أشهر المراكز الحضارية والثقافية في المغرب الأقصى قبل بناء مراكش، ويصف ياقوت الحموي أغمات قائلاً: "وليس في المغرب بلاد أجمع لصفات من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظاً ولا أخصب منها". أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص225./ الإدريسي، المصدر السابق، ص66،67./ البكري، المصدر السابق، ص153.

(24) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص98.

(25) ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص48.

(26) ابن القطان، المصدر السابق، ص88.89.

(27)حول أصحاب المهدي العشرة أنظر: ابن القطان، المصدر السابق، ص82.83./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص113.114.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الطبقات تمثل النواة الأولى لنظام الحكم والإدارة لدولة الموحدين[28].

وقد أطلق ابن تومرت على أتباعه تسمية الموحدين إشارة إلى أنهم هُم الذين يوحدون الله حقاً، ويفسر ابن خلدون اتخاذه لهذا الاسم تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم[29]، ولتسميتهم لأتباعه بالخوارج والمبتدعة، وأحلَّ قتالهم باعتبارهم حسب رأيه غير موحدين، وذلك عملاً بقوله سبحانه وتعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ** مِّنَ **الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ** أَنَّ **اللّهَ** مَعَ **الْمُتَّقِينَ**﴾[30].[31].وأطلق عليهم اسم الزراجنة تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن، أبيض الريش، يقال له(الزرجان)؛ لأنهم بيض الثياب، سود القلوب حسبه[32].وبلغت طاعة الموحدين للمهدي إلى حد أنه إذا أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء[33].

٣- دهاء ابن تومرت واستثماره في أخطاء المرابطين:

لا شك أن من أقوى الأسباب في نجاح دعوة ابن تومرت هو استغلاله عصبية قبائل مصمودة ضد قبائل المرابطين الصنهاجية، وتعمق العداوة بينهما منذ زمن بعيد نتيجة الاختلاف في نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية بين هذه القبائل، ومن خلال المصادر يتبين لنا أن المرابطين لم يصادروا أملاك مصمودة المتحالفة معهم ضد قبائل زناتة عدوهم المشترك، مما ساعد الملثمين على تسيير مهمتهم في اجتياح إقليم السوس الأقصى بنجاح، فأقرَّهم المرابطون على أراضيهم مكافأة لهم على تعاونهم معهم[34]. فقد ابتعد الأمراء المرابطين عن إثارة هذه القبائل وأحسنوا معاملتها، لذلك لم يكن السبب في ثورة المصامدة عليهم في أواخر أيامهم غير الضرائب الكثيرة التي فرضها المرابطين عليهم والطريقة المجحفة في جبايتها.

ويتأكد هذا الرأي من وضعية المنخرطين الأوائل في دعوة ابن تومرت وهم البسطاء من قبائل مصمودة دون أشياخها ورؤسائها، وبالتالي؛ فإن ابن تومرت قد استغل ذلك لصالح دعوته

---

(28) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص99.

(29) ابن خلدون، المصدر السابق، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص229./ حمدي عبد المنعم، نفس المرجع، ص100.

(30) سورة التوبة، الآية:123.

(31)حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص282.

(32) ابن القطان، المصدر السابق، ص132. / حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص100.

(33) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ، ص137./ حمدي عبد المنعم، نفس المرجع، ص100.

(34) ابن عذاري المراكشي، نفس المصدر، ج4، ص19./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص36.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

التي يقول أنها هادفة إلى رفع المظالم والمناكر والمغارم عنهم، وهو فقير وأصحابه مثله، فكان يشدد على هذا الفقر في خُطَبِهِ، متخذاً من مفاسد الطبقة العليا من الحكام والفقهاء مادةً لوعظه ، معتبراً جهادهم أعظم من جهاد الروم، وعلى الرغم من أن ابن تومرت لا ينتسب إلى إحدى القبائل المصمودية الكبرى إلا أنه استطـــاع بذكائه وقدرته وبعد نظره[35] أن يسيطر على مجموعات قبائل مصمودة الكثيرة العدد، واستطاع بواسطة هذه القبائل أن يحارب المرابطين وكأنهم كفرةً مارقون عن الدين[36]، ومن أخطاء المرابطين التي أحسن ابن تومرت استغلالها لصالح دعوته كذالك قضية:

٤- إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبو حامد الغزالي:

لقد استغل ابن تومرت قضية إحراق كتاب الإحياء للغزالي أحسن استغلال وجعلها قميص عثمان، فهاجم المرابطين والفقهاء رغم أن مسألة إحراق الكتب كان أمراً مألُوفاً في الأندلس على الأقل، فقد أحرقت من قبل كتب ابن حزم الظاهري ومعظم كتب مكتبة الحكم المستنصر و لم تحدث تلك الضجة التي حدثت مع إحراق كتاب الإحياء، وذلك ما يدُّل على ضلوع ابن تومرت في القضية، وإثارتها وحسن إستغلالها لصالح دعوته ضد المرابطين وفقهائهم وكأنهم أحرقوا كتاباً مقدساً. يقول ابن القطان:« وقد كان إحراق هؤلاء الجهلة لهذا الكتاب العظيم الذي ما أُلِفَ مثله سبباً لزوال ملكهم، وانتشار سلكهم، واستئصال شأفتهم على يد هذا الأمير العزيز القائم بالحق المظهر بالسنة المحيي للعلم »[37].

وإذا كان إحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالي قد أوجد خلافاً حولة بين الفقهاء بين معارض ومؤيد[38]؛ فإن الأمير علي بن يوسف قد نفذ في إحراقه فتوى أجمع عليها الفقهاء في

(35) وقد اعتبر لاجاردlagardere سفر ابن تومرت إلى الأندلس، وأخذه العلم على شيوخها بعض الوقت، وتعرفه على الحالة الأندلسية عن كثب، قد كان له دوراً في إعداده للقيام على المرابطين، وقد ذكر ابن القطان أن ابن تومرت ذهب إلى قرطبة لتلقي العلم، ثم سافر إلى المرية ومنها إلى المشرق، فربما يكون خلال إقامته في قرطبة أو المرية قد احتك بالصراعات الفكرية، واستمع إلى وجهات النظر المختلفة بين مدرسة قرطبة ومدرسة المرية تجاه مختلف الأفكار خاصةً ما كان يدور في ذلك الوقت حول كتب الغزالي. أنظر: ابن القطان، المصدر السابق، ص62./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص38.37.

(36) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص37.

(37) ابن القطان، المصدر السابق، ص72.71.

(38) كان إحراق كتاب الإحياء قد أوجد خلافاً حوله بين الفقهاء بين معارض ومؤيد، فقد صدرت أوامر أمير المسلمين علي بن يوسف بحرق كتاب الغزالي بناءً على إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها، وذلك في أول عام (503هـ/1129م) حسب ما ذكره ابن القطان في نظم الجمان، ص71.70./ حسن علي حسن، المرجع السابق، ص451. وقد لقي فعل الإحراق هذا معارضة من بعض الفقهاء والمتصوفين ومنهم أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بالنحوي، الذي أقام بفاس=

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

قرطبة وعلى رأسهم قاضي قضاتها عبد الله بن محمد بن حمدين، الذين اعتبروه كتاب ضلال وبدعة[39]. ورجح الدكتور حسن إبراهيم حسن صدور فتوى فقهاء المالكية بالأندلس لسببين الأول: إن كتاب الإحياءكتاب صوفي في روحه يسير على الفلسفة الكلامية التي ينفر منها المالكية ويخشون منها على مذهبهم.

والثاني: هو إن الاتجاه الفقهي في هذا الكتاب يسير على المذهب الشافعي[40].

وعلى أية حال فإن الضجة التي افتعلها ابن تومرت ضد المرابطين بسبب حرق كتب الغزالي كانت مجرد ستار؛ فهو لم يعمل بآراء الغزالي و لم ينتفع بها؛ بل كان مخالفاً لها على طول الخط، فمبدأ الاجتهاد الذي يعلق عليه الغزالي أهمية كبيرة في استنباط الأحكام، والذي يتفق عليه أئمة المذاهب السنية ينكره ابن تومرت كمصدر من مصـــادر الشريعة، ومعارضته أيضاً لجهود المجتهدين في تجديد الشريعة؛ لأنه يتشح بثوب الإمام المعصوم الذي لاتبحث أراؤُه ولا تُناقش أحكامه، ونظرية الإمام المعصوم من أكثر ما عارضه عليها الغزالي وسخر منه[41].

وأما إحراق كتاب الإحياء للغزالي في أيام علي بن يوسف، فلا يسأل عنها الرجل؛ وإنما يسأل عنها فقهاء ذلك العصر ومعظمهم أندلسيون، وكانوا فروعيين يكتفون من العلم باليسير دون الرجوع إلى الأصول، وقد هاجم الغزالي هذا الطِّراز من الفقهاء المتكسِّبين بالفقه في كتاب الإحياء، فسخطوا عليه وما زالوا بعلي بن يوسف حتى أمر بإحراق الكتاب[42].

وقد انطلق المهدي بن تومرت[43] لتقويض حكم المرابطين من رفعه لشعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[44]، واستغل سماحة المرابطين تجاه رجال الدين، وكان إرتحاله إلى مدينة

= ومات بها سنة(513هـ/1119م)، والذي أعلن عن رأيه ببطلان فتوى الإحراق، والعالم أبو محمد عبد الله المليجي من أغمات وريكة ومات بها قبل سنة (540هـ/ 1145م)، والذي كلما سُئل عن أحد من الذين أفتوا بإحراق كتب الغزالي دعا عليهم وقال:لا يصلح هؤلاء الأشقياء أبداً، فما انقضى شهراً حتى مات جميع أولئك الفقهاء. أنظر: التادلي، المصدر السابق، ص(95) و(145). /حسن علي حسن، المرجع السابق ، ص453.

(39) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق ، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص38.

(40) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق ، ج4 ، ص432.

(41) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق ، الأندلس في نهاية المرابطين...، ص40.39.

(42) المراكشي عبد الواحد، **وثائق المرابطين والموحدين**، تح:حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، سنة1997، ص58.

(43) بدأ ابن تومرت من أول وهلة كرجل ثائر على الحكم في عصره، وعلى التقاليد والأخلاق السائدة في المجتمع الإسلامي قبل أن يعود إلى المغرب من المشرق، وفي أثناء عودته كان يتوقف في كل بلد وفي كل مدينة يمر بها، وحتى داخل السفينة التي أقلته كان يلقي المواعظ المؤثرة والمثيرة دون أن يخفل بما يتعرضه من مطاردة واضطهاد. انظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص ص50.45./ ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص83./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص40.39.

(44) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، المعجب، ص128.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مراكش دار مملكة المرابطين لعلمه أنه لا يظهر أمره إلا منها[45]،وفيها تمكن من أن يحلل الأوضاع السائدة في دولة المرابطين بذكاء كبير، وأن يضع يده على نقاط الضعف فيها، والمطاعن التي يمكن أن ينفذ منها إلى نقد المرابطين والتنديد بهم على مستوى الدين والأخلاق.

فهو كان يعلم أن الحكم المرابطي يستند إلى بنية قوية تتركز على التمسك بالمذهب المالكي، والاعتماد على علماء المذهب كهيئة لها جُذورها في الدولة المجتمع، لذلك كان هدفه الأول هو زعزعت وتقويض تلك البنية، ويقدم الدليل على ترامیها على الدنيا ومتاعها، ويبين أنها بعيدة عن الحكام والمحكومين، فيكشفها أمام الناس الذين اعتادوا أن يؤمنوا بتفوقها العلمي، ويفضح دعواها في الزهد، ويقيم جل همها هو منصب رفيع أو سلطة وجاه تتمرغ فيه[46].

٥- التهم التي وجهها ابن تومرت للمرابطين:

إن من يقرأ كلام ابن تومرت في المرابطين يتعجب للعنف المتجلي في كلامه نحوهم، كون أن الرجل قد أذهله طموحه السياسي عن كل حقيقة حتى تخطى كلامه أخلاقيات الإسلام التي لا تعرف مثل هذا اللَّدد في الخصومة، وإلا فكيف يقال في المرابطين الذين قامت دولتهم على أساس ديني قوامه العمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، إنهم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ولا يأمرون إلا بالباطل والفساد والضلال، وهلاك الحرث والنسل[47].

إذ يقول:« وقالوا لهم أي أن المرابطين قالوا للناس لا تلزمكم طاعتهم(طاعة الموحدين) في ذلك كله، إتباعاً لأهواء الكفرة وافتراء على الله، وبغضوا إليهم التوحيد، وحذروهم من الرجوع وسلوك سبيلهم، وحاولوا تبديل الكلام، وتحريف القول بالزور والبهتان، وتقولوا علينا بما لم نقل تهجيناً وتبغيضاً للحق عند العوام حتى لا يصغوا إليه ولا يقبلوه، وعددوا لهم جملاً من الأبواب، ونسبوا ذلك كله إليه، وأنهم أحدثوا من المناكر والمغرم، وتقلبهم في السحت والحرام، يأكلون منه ويشربون ويغدون ويروحون»[48].

ثم اتهم المرابطين بالكفر وقال:« إن من يؤيدهم على كذبهم وأعانهم على ظُلمهم فليس مني، ولست منه ولا يرد على الحوض »[49]،كما اتهم ابن تومرت جميع من أيد المرابطين

(45) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين...،ص41.

(46) نفس المرجع، ص42.

(47) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، وثائق المرابطين ...،ص80.

(48) ابن القطان، المصدر السابق، ص94./ عبد الواحد المراكشي، نفس المصدر، وثائق المرابطين...،ص81.

(49) من حديث موضوع استخدمه ابن تومرت. نقلاً عن: عبد الواحد المراكشي، نفس المصدر، وثائق المرابطين...،ص81.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بأنهم:« باعوا دينهم بعرض من الدنيا، يصبح أحدهم مؤمناً ويمسي كافراً يبيع أحدهم دينه بدنيا غيره»؛ بل رماهم بالارتداد عن الدين والتبديل والتغير، وذهب إلى أدنى من ذلك فوصف المرابطين بلفظ الزراجنة مثلما رأينا، وسماهم أيضًا المجسمين؛ لأنه ألزمهم في المذاكرة(أي في الدعوة وتذكير الناس بفضائل الموحدين ونقائص المرابطين)، أنهم يقولون بالتجسيم والمكان، ويسمون بالحشم للثامهم كما يفعل النساء المحتشمات(50).

ولا يعقل أن ابن تومرت كان جاهلاً بأن اللِّثام تقليد من تقاليد صنهاجة الصحراء، فكيف يُسوغ أن يتخذ منه وسيلة للنيل من المرابطين والحط من شرفهم وشبههم بالنساء، ولا يكتفي ابن تومرت بذلك؛ بل يمضي فيتهم المرابطين بأنهم كفار طاعتهم حرام، ومنافقون ومتبعون للهوى ومعتدون ومفسدون وجاهلون، ثم يدعو إلى قتالهم على اعتبار أنهم كفار، وقد وظَّف آيات قرآنية وأحاديث في تحريم طاعة الكفار، ويسمي حربهم جهاد ويقول:« فكل من منع فريضةً من فرائض الله عز وجل، فحق على المسلمين جهاده حتى يأخذوها منه فكيف بمن منع الإيمان والدين والسنة»(51).

ولم تكن هي تلك المآخذ الوحيدة لابن تومرت على المرابطين؛ إلا أن أشُدَّها في رأيه وهو مسألة التجسيم؛ أي جعل لله تعالى صفات جسمانية، وكان منشأ ذلك الخطأ في نظر ابن تومرت أن فقهاء المغرب في عهد المرابطين خلافاً لزملائهم في المشرق الذين بلغوا في ذلك الوقت من التطور غايته فيما يتعلق بعلم الكلام، ومع ذلك ظلوا يلتزمون في الآيات القرآنية التي فيها ذكر لصفات الله النَّص الحرفي لها فيما يفضي إلى التجسيم للذات الإلهية وإلى إثبات صفات جسمانية لله تعالى، والمعلوم هو أن فقهاء المرابطين لم يثبت عنهم مسألة التجسيم، وقد كان ابن تومرت وراء هذه التهمة للمرابطين رداً على اتهام المرابطين لأتباعه من الموحدين وتسميتهم بالخوارج(52).واستغل ابن تومرت كل هذه المآخذ عن حكم المرابطين وأخذ يشيع دعوته بين القبائل، فالتف حوله عدد كبير من الأتباع خاصةً من قبائل المصامدة(53).

ورغم أن نقده للمرابطين في مجموعه كان على غير حق؛ إلا أنه كان رجلاً جريئاً لا يخاف السلطة ورجالها، وكان مغامراً يطلب الكثير ويهون عنده الكثير في سبيل ذلك، فمضى يقول

(50) ابن القطان، المصدر السابق، ص97./ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، وثائق المرابطين...،ص81.

(51) ابن القطان، نفس المصدر، ص99.98./ عبد الواحد المراكشي، نفس المصدر، وثائق المرابطين...،ص82.

(52) عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، دور المرابطين...، ص134..

(53) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص114.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كلاماً يرمي من ورائه إلى إثارة غضب رجال الدولة حتى يتعرضوا له بالحبس والأذى والإخراج من البلاد، فيزداد صيته ويكثر جمعه؛ لأن الناس آنذاك يستهويهم أمثاله، ويسرهم أن يجدوا شخصاً يتحدى الحكومة ورجالها، سواء كان على حق أم على باطل؛ لأن مهما كانت الفكرة التي في أذهانهم أن رجال الحكومة دائماً على باطل، وأي ناقد لهم يكون على صواب[54]. على أن علماء المغرب المرابطين لم يتقبلوا مذهب ابن تومرت؛ بل قاوموه بعنف حتى لقي كما قال ابن خلدون:« إذايات في نفسه اعتبرها من صالح عمله »[55].

٦- الصراع بين المرابطين والموحدين ونهاية حكمهم في المغرب والأندلس:

يعد ظهور الدعوة الموحدية بدايةً نهاية الدولة المرابطية، ففي سنة(512هـ/1117م) بدأ ابن تومرت يناوئ سلطان المرابطين في المغرب، وقد وقعت بين الطرفين عدة معارك أهمها معركة -البحيرة- التي كان فيها جيش الموحدين بقيادة محمد البشير الونشريسي الذي قتل في هذه المعركة، والتي فقد فيها ابن تومرت أكثر أصحابه العشرة وآلافاً من خيرة جنوده، واشتد به المرض فمات في عام(524هـ/1129م)[56]، وخلفه عبد المؤمن بن علي الذي كان سياسياً محنكاً وقائداً ماهراً، استطاع أن يعيد إلى الموحدين قوتهم ويرد إليهم هيبتهم، فاستولى على الكثير من بلاد السوس في حياة الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين.

وعند وفاة الأمير علي بن يوسف سنة(537هـ/1142م) ولي من بعده ابنه تاشفين، فأستخلف هذا الأخير على مراكش ابنه إبراهيم وأخذ يحارب عبد المؤمن ويتعقبه في كل مكان ؛ وقد سار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها ثم قدم عبد المؤمن لقتاله، واتخذ الجيش المرابطي مواقعه في السهل وربض الجيش الموحدي في الجبال المحاذية له، وعقب المعركة فرَّ تاشفين إلى مدينة- وهران في الجزائر - ليتخذها حاضرةً لدولته فحاصره الموحدون، ولَّما اشتد الحصار على تاشفين صعد إلى ربوة تشرف على البحر في ظاهر المدينة وفي أعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون. وعلم أبو حفص بن عمر بن يحي صاحب المهدي بن تومرت بمكانه فلحق به وأصحابه وحاصروه وأحرقوا باب الرباط، فخرج تاشفين راكباً فرسه فأسرع الفرس لينجوا طالباً النجاة فصادفته صخرة فهوى تاشفين بفرسه من فوقها فقتل وقتل من كان معه من خاصته، واحتز

(54) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، وثائق المرابطين...،ص73.

(55) ابن خلدون، المصدر السابق، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص227.

(56) ابن الخطيب، المصدر السابق، الحلل، ص86.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الموحدون رأسه وحمل إلى تينملل مركز الدعوة الموحدية،كان ذلك في يوم27 من شهر رمضان سنة(539هـ/1144م)[57]، فولى المرابطون بعده أخاه إسحاق بن علي بن يوسف[58]. وبعد أن استولى عبد المؤمن بن علي على تلمسان سار إلى فاس، فملكها و لم يبق له من ملك المرابطين في المغرب سوى العاصمة مراكش التي حاصرها في عهد الأمير إسحاق بن علي الذي استنجد بجيش من النصارى، لكن ذلك لم يمنع من سقوط مراكش في يد عبد المؤمن سنة(542هـ/1139م). وهكذا تمكن الموحدون من الاستيلاء على المغرب وقضوا على حكم المرابطين فيه[59].

وأما بالنسبة للأندلس فإن استدعاء الأمير علي بن يوسف لابنه تاشفين من الأندلس لمواجهة خطر الموحدين في المغرب يمثل بداية اضمحلال حكم المرابطين فيها، ولهذا كان من الطبيعي وقد رحل إلى المغرب مصطحباً معه خيرة الجنود، أن تضطرب الأحوال وتقوم الثورات من جديد في الأندلس[60]، وأن تزداد حدتها بعد وفاته شرقاً وغرباً، فأصبحت الأندلس عبارة عن دويلات تقاسمها الثوار بينهم معلنيين انفصالهم عن حكم المرابطين، والدخول في دعوة الموحدين ضدهم، فلم تنفعهم ثوراتهم وأسرعوا ببلادهم إلى الزوال.

وكان على رأس هؤلاء القاضي عياض الذي استقل بشرق الأندلس، والقاضي أحمد بن حمدين بقرطبة، والقاضي أحمد بن قسي في غرب الأندلس وغيرهم. وفي هذه الظروف التي تمر بها الأندلس وجه عبد المؤمن بن علي نظره إليها فوجد ثوارها قد أطاحوا بمعظم ولاة المرابطين، ووجدهم قد مهدوا له الطريق للنفوذ إليها. وفي سنة (541هـ/1138م) عبر ابن قسي البحر إلى عبد المؤمن بن علي بمراكش ورغبه في إمتلاك الأندلس، فجهز هذا الأخير جيشاً عظيماً عبر به البحر ونزل به الأندلس مقتحماً مدنها الواحدة بعد الأخرى، ويلاحظ أن بعض الذين أعلنوا الولاء لعبد المؤمن بن علي حين اقتحم مدنهم سرعان ما ارتدوا ناكثين عهودهم في الطاعة للموحدين، ولكن عبد المؤمن استطاع بعد أن اخضع ملك المرابطين له في المغرب من أن يعبر إلى الأندلس سنة(551هـ/1148م)، فيملكها ويخضعها لحكم الموحدين[61].

---

(57) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص108.

(58) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج4، ص124.

(59) الجيلالي سلطاني، المرجع السابق، ص31.30.

(60) عبد الله عنان، المرجع السابق، ج1، ص30.29.

(61) ابن خلدون، المصدر السابق، تاريخ إبن خلدون، ج6، ص238./ الجيلالي سلطاني، نفس المرجع، ص33.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المبحث الثالث

نظرية العصبية عند ابن خلدون – الأحكام والانتقادات –

1– مناقشة نظرية العصبية:

أ– العصبية والدعوة الدينية:

وجهت عدة انتقادات لنظرية العصبية عند ابن خلدون، ويبقى أخطر الموضوعات المرتبطة بنظرية العصبية حسب ما أورده– مصطفى الشكعة– هو الفصل الذي جعل ابن خلدون عنوانه :« أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم »[1]؛ لأن الدعوة الدينية يندرج ضمن وسائلها من المعجزات والخوارق ما لا يندرج تحت طلب الملك والحفاظ عليه، ففي الدعوة الدينية تأييد سموي ووحي وكتاب ومعجزات خاصة بالأنبياء منذ نوح(عليه السلام) وانتهاءً بالنبي محمد(ﷺ)، وابن خلدون حينما أقرَّ بملازمة الدعوة الدينية للعصبية، قد استشهد بدعوة الرسل والأنبياء وبالحديث النبوي الذي وظَّفه:« ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه». ومعناه أن تكون للنبي والرسول عصبةٌ تمنعه من أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه، ويتم مراد الله تعالى من إكمال دينه وملته[2].

وبالنسبة لنبينا محمد(ﷺ) قد حدثت له المنعة من بعض قومه من أعمامه أبو طالب وحمزة وبعض العشيرة، ولكن العشيرة أو القوم لا تشكل العصبية؛ وإنما العصبية تكون من القبيلة، ومعروف لقبيلة قريش مواقفها العدائية من دعوة الرسول(ﷺ)وإلحاق الأذى به وبأتباعه، وقد حدث ذلك لرسل آخرين مع أقوامهم. يقول الله تعالى:﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ اَلْمُراسَلِينْ**﴾[3]، فلم يكن إذن للعصبية شأنٌ في الدعوة المحمدية؛ وإنما كان الشأن للقرآن الكريم وأثره في نفوس العرب وعقولهم، ولشخصية النبي(ﷺ) وتأثيره في أصحابه بتأييد من المولى(عز وجل) له[4]، ومن ثمَّ فإن الدعوة الإسلامية لم تقم على العصبية.

وأما أثر العصبية في الفتوح الإسلامية الكبرى فهو غير منكر، فقد تحمَّل العرب الفتوح كلها من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وهذا ما يبين لنا الفرق بين الدعوة التي جاء بها النبي (ﷺ) وتولى إبلاغها كرسول للناس كافةً، وبين الفتوح التي بدأت بعد أن اكتملت الدعوة طبقاً

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص159.

(2) نفس المصدر، ص93./ مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص156.

(3) سورة الشعراء، الآية:105.

(4) مصطفى الشكعة، نفس المرجع، ص157.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

لما أراده الله رب العالمين،كما أن أمر العصبية وانتفاء أثرها في الدعوة الدينية لا يقف عند الدعوة المحمدية وحدها؛ بل يمتد إلى بقية من نعرف من الأنبياء والرسل. فإبراهيم(عليه السلام) مثلاً قد لقي من قومه بلاءً كبيرًا قال عنه تعالى:﴿ **قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانْصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ**﴾[5].

فقدكان نصر إبراهيم(عليه السلام) وجميع الأنبياء والمرسلين من سبيل المعجزة السماوية، وكان نصرٌ من عند الله وليس من باب العصبية[6]، ونفس الشيء ينطبق على ما وقع للنبي موسى (عليه السلام)، فرغم أنه كان صاحب عصبية قوية العدد كما هو معروف تاريخياً وقرآنياً؛ إلا أن ذلك لم ينفعه أمام طغيان فرعون وتربصه به لولا أن خلَّصه الله منه ونصره عليه، وفي ذلك يقول الله تعالى:﴿ **وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ .ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ .إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[7]. فالدعوات الدينية دعوات سماوية وإتمامها لا يكون بالعصبية، فما نفعت العصبية أحداً من الأنبياء في دعوته وإنما كان إتمامها بالمعجزات أولاً ثم بالمؤمنين ثانياً، وقد تولى القرآن الكريم توثيق هذا المبدأ في كل المواقف وبآيات كثيرة في سور عديدة[8].

إلا أن ابن خلدون سرعان ما يطرح رأيا آخر، يبدو أنه مناقض لما ذهب إليه في شأن العصبية، وذلك عندما يقول:« أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين»، فيقلل بالتالي من شأن العصبية ويرفع من شأن الدين وأثره في النفوس، وتجميع القلوب وصرفها إلى الحق، ورفض الباطل والإقبال على الله، فهو بالتالي يقلِّل من شأن العصبية في تكوين الملك الذي يعتمد على الدين دون غيره[9].

وابن خلدون عندما يُقِّرُ بدور العامل الديني في قيام الدول والملك؛ فإنه لا يفكر في دولة العرب فقط؛ بل يفكر أيضاً في كل أولئك الذين أطلق عليهم لفظ العرب ومن في معناهم من زناتة والأكراد والتركمان، وأهل اللِّثام من صنهاجة وبلاد العرب، وما وراء فارس وشمال العراق وسوريا من بلاد الترك وغيرهم، ثُّم إن جميع الدول التي أقامها سكان هذه المناطق كانت تعتمد على دعوة دينية معينة، أو على الأقل تستتر بستارها مثل المرابطـــون، الموحدون،

(5) سورة الأنبياء، الآيات:70.68.

(6)مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص158.

(7) سورة الشعراء، الآيات:67.65.

(8) مصطفى الشكعة، نفس المرجع، ص160.159.

(9) نفس المرجع، ص160.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الحفصيون، ومن قبلهم العبيديون في المغرب الإسلامي، ودول الشيعة، ورد الفعل السني كالسلاجقة والأتراك في المشرق. فابن خلدون يقرر وبكل وضوح أن الدين كان شرطاً ضرورياً لقيام دولة العرب، وهذا ليس وحده وإنما بمساعدة عصبية قوية جامعة[10].

فالدعوة العلوية العباسية لم تنجح في تأسيس الدولة إلا بعد أن استندت إلى عصبية الفرس ضد العصبية العربية التي اعتمد عليها بنو أمية قبلهم، والدعوة المرابطية التي قام بها عبد الله بن ياسين لم تنجح في تأسيس الدولة إلا بعد تمكنها من توحيد القبائل الصنهاجية الصحراوية، وكذلك الحال بالنسبة إلى الدعوة الموحدية التي لم تستطع القضاء على دولة المرابطين وتأسيس دولةٍ جديدة، إلا بعد استنادها إلى القبائل المصمودية بالأطلس الجنوبي.

ولتبرير رأيه هذا أكد ابن خلدون أن الدعوات الدينية الإصلاحية التي كانت تقوم بدون الاعتماد على أي من العصبيات فقد كان مآلها جميعاً الفشل الذريع، ونتذكر في هذا الصدد الانتقاد اللاذع الذي وجهه لمثل هذه الدعوات، وسخريته من دعاة الإصلاح المخلصين منهم أو الموسوسين الذين:« يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية، ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم »[11]. [12].

وكي يدعم رأيه هذا أكثر قدم لنا ابن خلدون أمثلة واقعية ومنها قوله:« وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية الذي ثار بالأندلس داعياً إلى الحق وسمي أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي، فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين، و لم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدعونه عن شأنه، فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم، وتابعهم من معقله بحصن أركش، وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالأندلس»[13]. فهل قصد ابن خلدون بذلك التملص مما قرره بشأن العصبية؟. وربما يكون جواب ذلك بالنفي إذا عدنا إلى قوله:« إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت من عددها»[14].

(10) الجابري، المرجع السابق، ص256.255.

(11) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص172.

(12) الجابري، المرجع السابق، ص 256.

(13) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص171.170.

(14) نفس المصدر، ص157./ مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص161.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ب– العصبية والخلافة(النسب القرشي):

لقد بنى ابن خلدون نظريته في الحكم على العصبية، وبما أن الخلافة هي من أنواع الحكم الخاص بالإسلام فقد أراد ابن خلدون أن يمدد نظريته في العصبية حتى تشمل الخلافة ذاتها منذ نشأتها حتى تلاشيها، وإن إثبات صواب وعموم نظريته في العصبية كان يتطلب منه إقامة الأدلة والبراهين على أن الخلافة قد نشأت وتطورت ثم انقلبت إلى ملك بمقتضى العصبية ذاتها[15].

ومن تلك البراهين حسب زعمه أن الشارع قد راعى هذه العصبية عندما بعث النبي محمد (ﷺ) من وسط قريش، كما راعاها حين اشترط النسب القرشي في الخلافة على لسان رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتأكيده في أن الخلافة في أول أمرها كانت من قبيل الخوارق والمعجزات، وذلك بهدف سد ثغرة في نظريته العصبية ذاتها والتي هي أن الرياسة و(الخلافة)نوع منها لا تكون إلا في أهل العصبية ولا تنتقل إلا للفروع الأقوى منها.

وهذا لا يصدق على ما تمَّ عليه الأمر بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا كانت قريش هي صاحبة العصبية الأقوى فكان من المنطلق الخلدوني أن تنتقل الخلافة إلى أقوى فروعها وهما الفرع الهاشمي والأموي، وبما أن الخلافة قد انتقلت بعد وفاة النبي(ﷺ) إلى أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)الذي لم يكن هاشمياً ولا أموياً، وهو من تميم التي كانت من أضعف فروع العصبية القرشية[16]، فهذا ما يضعف من رأيه ونظريته.

وهو الأمر الذي حتَّم على ابن خلدون الاجتهاد والعمل على توظيف بعض(الحيل الفقهية) كما سماها الجابري بهدف أولاً إيجاد حل أو مخرج لنظريته من بينها تأكيده في القول بأن معجزات النبي(ﷺ) وخوارقه قد بهرت العرب وأنستهم اعتبار العصبية، فكان أمر الخلافة والملك والعهد وولاية العهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في إطار المعجزات والخوارق. وأما الهدف الثاني من رأيه هذا فهو إضفاء نوع من الشرعية على ملوك وقته الذين لم يكونوا عرباً ولا قرشيين، وذلك بتقريره طـــرد العِّلة من اشتراط النسب القرشي في الخلافة وبذلك الإفتـــاء:« بأنه يكفي في القائم بأمر المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية، غالبة على من معها لعصرها »[17].

---

(15) الجابري، المرجع السابق، ص202.

(16) نفس المرجع، ص205.

(17) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص206./ الجابري، المرجع السابق، ص202.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

2- افتقار أمثلة دور العصبية في قيام الدول وأفولها للدعم التاريخي:

يقر ابن خلدون أن قيام الدولة؛ إنَّما يكون بالعصبية مثلما يكون زوالها كذلك بزوال العصبية، إلا أنه يعمد إلى الاستثناء ويقرِّر أنَّ الدولة إذا استقرت وتمهدت قد تستغني عن العصبية، وقد ضرب في ذلك مثالاً بالدولة العباسية في عهد المعتصم والواثق، فقد كانت العصبية العربية قد فسدت فاستظهروا بالموالي والخدم من الديلم والسلاجقة والترك، ويعلل استمرار الدولة العباسية وبقائها رغم فساد العصبية بكون أن صبغة الرئاسة كانت قد استحكمت، وأن الانقياد والتسليم كان قد رسخاً في النفوس[18].

فصحيح أن الدولة العباسية قد قامت على عصبية عربية، وأن العباسيين ينتسبون إلى جديهما العظيمين العباس عم النبي(ﷺ) وولده عبد الله حبر الأمة، ولكن الحقائق التاريخية تُقرِّر أن الدعوة العباسية قامت على عصبية فارسية من الموالي، وقد كان مستشاروا الدولة ووزرائها من الفرس، ثمَّ انتقل النفوذ بعدها في عهد المعتصم إلى أخواله الترك، وهنا ترد الإشارة إلى الخطأ الذي وقع فيه ابن خلدون، حين اعتقد أن الدولة العباسية قد قامت على العصبية العربية، وأنها استمرت إلى أن جاء المعتصم والواثق ففسدت، وإلا كيف لم يتسنَّ لهذه العصبية العربية أن تحمي خلافة الأمين الذي يُقرِّر المؤرخون أنه الوحيد من خلفاء بني العباس، المولود من أبوين هاشميين وهما الرشيد وزبيدة[19].

والمؤكد هو أن العصبية ساعدت على الملك، لكنها لم تكن الأصل في نشأته، وقد تنبه ابن خلدون لذلك الاستثناء حين قال:« قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية»[20]. وهو في هذا الاستثناء يشير إلى دولتي الأدارسة بالمغرب والفاطميين بإفريقيا ومصر. ويعزز ابن خلدون رأيه هذا بطرح فكرة أخرى وهي أن منصب القضاء قد أدى إلى الملك في أكثر من مرة في الأندلس، وذكر بأنه كان لا يتولاه إلا صاحب عصبية وضرب عن ذلك مثالين وهما: المنصور بن أبي عامر، والمعتضد بن عباد، ومن ثمَّ تكون العصبية هي الأصل، وأن منصب القضاء هو مرحلة تؤدي إلى الملك[21].

وسارع ابن خلدون إلى الإجابة مؤكداً أن العصبية وليس القضاء هي التي أوصلت كلاً من

(18) مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص151.150.

(19) نفس المرجع، ص151.

(20) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص157.156.

(21) مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص153.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المنصور بن أبي عامر والمعتضد ابن عباد إلى سُدَّة الحكم؛ حيث يقول:« إن ابن عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها، وكان مكانهم فيها معلوماً و لم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطة القضاء كما لهذا العهد؛ بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب»[22].

والحقيقة هي أن العصبية لم تكن هي التي دفعت الكثير من القضاة المسلمين في المشرق والمغرب إلى الحكم، والأمثلة كثيرة في هذا الصدد أكبر من أن تحصى وتعد[23].وأن قيام الدولة لا يقوم في الواقع على العصبية التي جعلها ابن خلدون هي الأصل وجعل غيرها هو الاستثناء، فالعكس هو الصحيح؛ لأن قيام الدولة يرتبط بعناصر كثيرة مرتبطة بالزمان والمكان، واعتبارات اجتماعية، اقتصادية، دينية وثقافية وتحالفيه متعددة، وهناك أمثلة كثيرة عن ذلك، كالدولة الطولونية والأيوبية والإخشيدية، ودول المماليك البحرية والبرجية وغيرها، ولفظ المماليك يعني العبيد الأرقاء المشترين بالمال، فكيف يكون لمثلهم عصبية؟!.

وكذلك الدول الحديثة كالدولة التي أقامتها أسرة محمد علي في مصر مدة القرن ونصف؛ بل ونتساءل عن العصبية التي كانت للقياصرة في روسيا، وعصبية الأسرة الحاكمة حالياً في إنجلترا، إضافة إلى العدد الكبير من المَلَكِياتْ التي قامت في إفريقيا وآسيا من غير العصبية التي عناها ابن خلدون، والأكيد هو أن ابن خلدون حينما وضع نظريته حول العصبية كان يمتثل أمامه البيئة المغربية والأندلسية التي كانت فيها الدول تقوم على أساس العصبية مثل بني زيري والمرابطين والموحدين والمرينين والزيانيين، ومثل بعض ملوك الطوائف في الأندلس، واستثنى من ذلك ما تَمَثَل له من دولة الأدارسة والعبيديين[24].

4– نماذج لدول قامت على شرط انعدام عصبية أصحابها:

فكما تطرقنا إليه سالفاً فإن قيام الدول لا يخضع للعصبية التي تبناها ابن خلدون؛ إنما يخضع لعناصر مختلفة واعتبارات عديدة، وبين أيدينا نماذج كثيرة لدول لم تقم على العصبية مثل الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية والدولة الفاطمية والدولة الأيوبية؛ بل إن هناك المماليك البحرية

(22) ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ص31./ مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص154.

(23) مصطفى الشكعة، نفس المرجع، ص155.

(24) نفس المرجع، ص152.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والمماليك الشراكسة، وقد عاش ابن خلدون في مصر نحو ربع قرن من الزمان في ظِّل هذه الدولة الأخيرة وتولى المناصب الرسمية تحت إمرتها، فكان من العجب أن تغيب عن فكره هذه الحقائق، وبالتالي فلم يكن كما قال ابن خلدون قيام دولتي الأدارسة والعبيديين في المغرب استثناءً؛ بل الاستثناء فيما ذكره على أنه القاعدة والأصل، ونعني بذلك الدول التي ذكرها وربط بين قيامها والعصبية، وهي دولة بني زيري ودولة المرابطين والموحدين والمرينيين ودول ملوك الطوائف.

والأمر الآخر الذي ينفي شرط العصبية المطلق في قيام الدول هو أن دولة قامت في المغرب العربي في صلب الأقاليم التي عاش فيها ابن خلدون و لم تقم على عصبية أصحابها، وهي الدولة الرستمية الإباضية برئاسة عبد الرحمن بن رستم الفارسي الأصل المنعدم العصبية، والذي قد تمَّ اختياره لمنصب الإمامة تفادياً للتزاع عليها لعدم وجود عصبية له، ليتحقق الاستقرار والعدل في هذه الدولة التي عاشت أكثر من القرن وثلث من الزمان بين سنتي(292.160هـ/777. 904م)، وامتَّد سلطانها من طرابلس غرباً إلى تونس شرقاً، وكانت تاهرت عاصمة ملكها.

فهل غابت هذه الدولة عن ذهن ابن خلدون وهو يضع نظريته في حتمية ارتباط العصبية بقيام الدول وظهور الملك؟[25]. وقد تمكن هذا الإمام الفارسي الأصل المجرد من أي عصبية تسانده من أن ينشأ ملكاً واسع الأطراف في بلاد ليس له فيها مساندون من أقرباء أو أبناء قبيلة، وقد استمر هذا الملك مدة مائة وثلاثين عاماً أي أكثر من العمر الذي حدده ابن خلدون لأعمار الدول وهو ثلاثة أجيال، وهو ما يقارب مائة وعشرون عاماً.

ومن ثمَّ يكون مثال هذا الإمام أو الدولة قد حطَّم نظرية ابن خلدون في العصبية، ولعلَّ ذلك الذي يؤكد أن العصبية ظاهرة جاهلية قضى عليها الإسلام واستبدلها بالأخوة بين الناس، وهو الذي غاب عن ذهن ابن خلدون رغم أنه يشهد له بأنه كان فقيهاً متمسكاً، وأنه كان يملك أدوات الاجتهاد، فهو لم يجتهد اجتهاداً يصادم نصاً شرعياً فيما يعتقد، ولكنه لم يوفق في فهم النص وطبق الفرع على الأصل، وقنَّنَّ قانوناً يخضع فيه الكل للجزء، فما يسري على الجزء ينصرف إلى الكل، فلم يصله اجتهاده إلى جادة الصواب[26].

---

(25) مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص163.162.

(26) نفس المرجع، ص164.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

5 – نماذج معاصرة عن العصبية:

يدور الفكر الخلدوني في الدولة والحضارة على قانون العصبية التي يعني بها الالتحام الذي يكون بين الأقارب أو القبائل والعشائر، والذي يدفع للمناصرة والمطالبة بالملك والمغالبة في سبيله، ويدخل ضمنه الحلف والولاء وغير ذلك من صنوف التكتل والتحالف المفضي للمغالبة [27]. فابن خلدون يدرس كيف تتمكن جماعةٍ ما من إسقاط نظام ما، ثمَّ ماذا يحدث لها بعد أن تصل إلى الحكم ويشتد عودها، ثمَّ ماذا يحدث بعد أن تنهار، وهو في نظريته يؤكد على دور العصبية القائمة على الدم أو الدين، وبالرغم أنَّ هذا النموذج الذي تحدث عنه ابن خلدون هو متعلق بدول المغرب التي شاهدها والمماليك التي أقام فيها، فنظرية العصبية عنده نظرية صحيحة غالباً في جوهرها، وتنطبق على أماكن كثيرة[28].

كما أنها تنطبق أيضاً على أكثر من مجرد القبيلة التي كانت تتحرك برابطة الدم، فهي تنطبق على الحزب السياسي إذا توفرت في أتباعه هذه الصفة، وتنطبق على الجيش إذا تحول إلى حزب يمتلك هذه الرابطة، فوجود رابطة تجمع بين مجموعة من الناس تدفعهم إلى التكتل والتضامن والإحساس بالخطر المشترك، والتحرك في مواجهة الآخرين هو المقصود بالعصبية. وفي ذلك يقول الجابري:« يمكن اعتبار التكتلات الحديثة بجميع صورها عصبية متى ما سعى منتسبُوها لتحقيق أهداف معينة واضحة، وجسد انتماؤهم للتكتل شعوراً قوياً بالتضامن للإنجاز، يشتد وقت الخطر وينمو باطراد»[29].

فالعصبية تحتاج إلى رابطة وتحتاج إلى دين أو فكرة، ونزع هذين الأمرين وتحييد عمل العصبية يحتاج إلى إدخال منظومة تؤدي إلى الخضوع والانقياد، ومنظومة تؤدي إلى الترف والنعيم والانغماس في الدنيا، وعندها لا يعود للعصبية أية فائدة أو أهمية.

ويقول الجابري كذلك:« وأنظر إلى هذا المعنى الكبير الذي يشير إليه ابن خلدون وتداعياته في واقعنا المعاصر، فإذا أرادت الدول والتجمعات النجاة فلابد أن تتعدى عصبية النسب إلى الالتحام الروحي أو الاجتماعي، فالدول العظيمة تحتاج إلى عصبية عامة، بينما الدول الصغيرة لا تحتاج في قيامها إلى الدين؛ بل تقوم بالعصبية وحدها مع توفر ظروف معينة ومن أهمها

(27) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص34.

(28) نفس المرجع، ص34.35.

(29) الجابري، نقلاً عن: جاسم سلطان، المرجع السابق، ص35.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المصلحة الاقتصادية المشتركة التي تجمع بينها»[30].

فإذا أردنا تعزيز العصبية وتوثيق روابطها في مجتمعات كبيرة نحتاج إلى أكثر من عصبية النسب، وهذا ما تفعله الدول الكبرى حالياً مثل- الولايات المتحدة الأمريكية- حين تتكلم عن المواطنة والقومية لتشكيل لُحمة قوية بين الأجناس الكثيرة المختلفة الموجودة بها التي لا تربطها رابطة الدم، وقد يكون الشيء هو نفسه الذي قام به كل من هتلر في ألمانيا حين رفع شعار النازية، وموسوليني في إيطاليا الذي وظَّف شعار الفاشية، لتعبئة الجماهير وراء أحزابهما الوطنية والقومية الساعية إلى إسقاط حكومات بلدانهما الضعيفة المستسلمة للفرنسيين والبريطانيين عقب الحرب العالمية الأولى، وإقامة حكومات قوية بدلاً منها، وتَمَكُنِهما عبر تلك الروابط من الوصول إلى السلطة في بلديهما، وتكوين دولاً قوية منسجمة بين أفرادها، متحدة ضد أعدائها بفضل قوة تأثير تلك الرابطة الوطنية.

والأمر ذاته كان يحدث مع دول الكتلة الغربية ممثلةً في أمريكا وأوروبا وأستراليا واليابان وغيرها في صراعها المذهبي(الفكري الإيديولوجي) مع دول الكتلة الشرقية التي كان يقودها الإتحاد السوفياتي سابقاً بالإضافة إلى الصين ودول أوروبا الشرقية وكوبا والفيتنام وغيرها، تحت مسميات سياسية ومذهبية متضادة فيما بينها وهي الشيوعية والديمقراطية، وهذه الأخيرة التي كتب لها القدر والظروف أن تعُم في النهاية وتستمر بمثابة الرابطة الأوحد التي تسعى كل دول العالم إلى الالتزام والتشدق بها، وجعلها الشِّعار(الرابطة) الأنسب والأقوم في حكم شعوبها، وفي بناء مؤسساتها وترقية مجتمعاتها.

وعلى العكس من ذلك نجد أن العصبية في الإسلام قوية إذ أنها تجمع بين عدة أجناس وأعراق على اختلاف ألوانهم ولغاتهم، وأن الإسلام به من المقومات التي تعطي قوةً هائلة لأي عصبية تتبناه، فهو أمر ضروري لتقوية العصبية، ويطمس أي عصبية قائمة على الجنس أو العرق أو اللَّون مما يمنع حدوث التنازع والفشل[31].

وإن ما يقال على الدول يقال أيضاً على المؤسسات والأحزاب السياسية والجماعات، فكما أن الدولة تهرم كالأشخاص؛ فإن التنظيم أيضاً يهرم خاصةً عندما لا تتمكن من تحقيق أهدافها، يضاف إلى ذلك بعد الأتباع عن الحركة وانغماسهم في أمور الدنيا مما يضعف من قوة الرابطة

(30) الجابري، المرجع السابق، ص190.

(31) جاسم سلطان، المرجع السابق، ص ص48.40. بتصرف.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

العصبية ويحد من شوكتها[32].

فابن خلدون نجده يركز في بحثه هذا على الدول، فهو لا ينظر إلى منظومات كبيرة لكنه ينظر إلى الدول في أحوالها المختلفة، فهو يرى في نموذج القبيلة أنها حينما لا تكون في السلطة فإنها تمتلك الخشونة وتمتلك لُحمة الدَّم وإذا غذتها رابطة دينية فإنها تنطلق ولا يوقفها شيء في إسقاط وضع قائم، كما يرى أن هذه القبيلة حينما تصل إلى الملك ويستأثر أفراد منها بالترف والنعيم، يدب في أوساطها الضعف وتنخر فيها عوامل الهرم وتنحل الرابطة التي قامت عليها، ويدخل عليها من ليس في عصبتها، وتبدأ شيئاً فشيئاً في الانهيار.

فابن خلدون ينظر من هذه الزاوية إلى الدول الصغيرة التي رآها كدول المماليك، ولكن فكرة العصبية وفكرة الخضوع والانقياد، وفكرة الترف والنعيم كلها أفكاراً صالحة تستخدمها أمم كثيرة في مجالات الصراع المختلفة[33].

---

(32) نفس المرجع، ص41.

(33) نفس المرجع، ص46.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

خـــاتمـــة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وهي عبارة عن استنتاجات عامة مستخلصة من البحث حول العصبية والدعوة الدينية، وحول مسيرة عبد الله بن ياسين والمرابطين الدعوية، وهي كما يلي:

- إن المتتبع للأبحاث التي استهدفت دراسة وتحليل أحداث التاريخ الإسلامي، وعلى الأخص ما تعلق بالعصر الأموي والعباسي، والكيانات المنفصلة عنهما مشرقاً ومغرباً، يجد أن هناك تركيزاً كبيراً على مسألة العصبية، وعلى ما شهدته هذه العصور من صراعات بين الجماعات العربية القبلية حول الحكم أو الملك، ومن بين المهتمين بهذه المسألة العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي بنى على ذلك فلسفته التاريخية كما ورد في المقدمة.

- لقد كان الشغل الشاغل عند ابن خلدون وهو يضع نظريته حول العصبية ودورها في نشوء الدول واستقرارها وتحللها واندثارها؛ أن يؤكد على دور العصبية القائمة على الدم أو الدين أو أي رابطة اجتماعية أخرى في جميع مراحل الدولة، وقد حاول أن يبين كيف تتمكن عصبية ما أو جماعة من إسقاط نظام ما والوصول إلى الحكم، ثم ماذا يحدث لها عندما تصل إلى الحكم ويشتد عودها، وكيف تنهار دولتهم بعدها عندما تضعف هذه الرابطة العصبية، فتؤدي إلى انهيار الدولة وتقوم مكانها دولة أخرى، وبالرغم أن نظرة ابن خلدون هذه هي متعلقة بدول المغرب الإسلامي التي شاهدها والممالك التي أقام بها، إلا أن نظريته في العصبية قد تنطبق على أماكن كثيرة[24].

- يقرر ابن خلدون في مقدمته أن قيام الدول في العصر الوسيط هو رهين بثلاثة أسس هي العصبية والدعوة الدينية والمال، فالعصبية هي القوة البشرية الضرورية لنشر الدعوة والدفاع عنها، والمال هو الذي يمكن من توفير العتاد والمُؤَن وتأدية رواتب الجند والموظفين، والدعوة الدينية هي الهدف الأسمى المتوخى بلوغه وتطبيقه على أرض الواقع، فالملك لا يحصل إلا بالتغلب والتغلب؛ إنَّما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنَّما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه، كما أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، وبهذه العبارات الوجيزة والمركزة شرح ابن خلدون أهمية الدين في تأليف العصبيات من أجل الوصول إلى الملك وتأسيس الدول.

- بعد دراستنا للنظرية الخلدونية والتعريف بأسسها، وإبراز أهمية هذه الأسس في تكوين أي كيان سياسي خلال الفترة الوسيطة، حاولنا إسقاط هذه النظرية على كيان تأسس في نفس الفترة وهو الدولة المرابطية؛ لاختبار مدى قابلية هذه النظرية للتطبيق والتعميم، وإلى أي مدى

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وافق قيام الدولة المرابطية ما حدده ابن خلدون في نظريته على غرار باقي الدول التي تأسست بالمغرب الوسيط والتي اعتمدت على الدعوة الدينية كمنطلق لنشر مبادئها وتعاليمها مثل الدولة الزيانية والفاطمية والموحدية، على عكس الدول التي لم ترتكز على أي عامل مذهبي وعقائدي، وبالتالي لا تنطبق عليها نظرية ابن خلدون التي تقِّر بضرورة وجود دعوة دينية بالمفهوم الخلدوني للدعوة، وعصبية قوية تعتمد عليهما أي دولة في قيامها.

- قد تكون الدولة المرابطية استوفت الشروط العصبية الخلدونية، وهو ما سَيُؤكد صحة نظرية ابن خلدون إلى حدود الفترة التي حكمت فيها الدولة المرابطية، إلا أنه لا يمكن تعميم هذه النظرية وتطبيقها في كل زمان ومكان باعتبار أنَّ هناك دولاً قد قامت على شرط انعدام عصبية أمرائها؛ وإنما لاعتبارات أخرى دينية واقتصادية واجتماعية وأحلاف وفرص مواتية، مثل ما هو عليه حال الدول التي قامت في مصر كالدولة الطولونية والإخشيدية والأيوبية، ودول المماليك البحرية التي عاش ابن خلدون فيها قرابة الربع قرن وتولى بها المناصب الرسمية تحت أمرائها.

- هناك أمثلة أخرى من المغرب الوسيط نفسه الذي عاش فيه ابن خلدون واستخلص منه نظريته هذه حول العصبية وقيام الدول مثل الدولة الرستمية بالجزائر، ودولة الأدارسة بالمغرب، والدولة الفاطمية بالمغرب ومصر، ودولة بني مرين بالمغرب..الخ؛ وإنما الاستثناء كان مع دولتي المرابطين والموحدين، والدولة الزيانية، وملوك الطوائف، وهو ما يقلل من رأي ابن خلدون فيما يتعلق بنظرية العصبية ودورها في الملك والسلطان. هذا عن فكرة العصبية والدعوة الدينية.

أما فيما يخص نموذج الدراسة وهو الدولة المرابطية؛ فإننا سجلنا بعض الاستنتاجات أهمها:

- لقد عرف عبد الله بن ياسين بالتبحر في العلم والتفقه في الدين، وكان فوق ذلك كله شجاعاً ومقدامًا ومجاهدًا مخلصًا، مما أهله لإرساء أسس الدولة المرابطية التي خدمت الإسلام كثيراً، ونشرت أحكامه الصحيحة في الجنوب المغربي وفي السودان، ثم ولت وجهها شطر الشمال فجددت عزة الإسلام في الأندلس، وأعادت شوكته بعد أن قهرت الإسبان وأذلتهم هناك.

- كان الأثر الديني بارزًا في قيام دولة المرابطين أقوى من الأثر السياسي؛ إذ كانت سياسة الدولة تقوم على مبدأ الجهاد ونشر الإسلام، ولم يكن أمير المسلمين الذي تلقب به أمراء المرابطين غير ملك جهاد، وأن الفقهاء كانوا يمثلون الهيئة الاستشارية العليا في البلاد، والمجلس الاستشاري في الدولة يتألف منهم، والأمراء يشاورهم في غالب الأمور، وقد حرص المرابطون على التمسك بالكتاب والسنة وبتعاليم الإمـــام مالك(رضي الله عنه) في جميع أمور عباداتهم ومعاملاتهم ،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وكانت هذه الحياة الدينية قد ظهرت بدايةً في رباط السنغال الذي أنشأه عبد الله بن ياسين.

- نلاحظ بأنه قد كان هناك تنسيق وتشاور بين الفقهاء المالكيين في بلاد المغرب الإسلامي في وضع الخطط اللازمة لإحياء الإسلام السني في الشمال الإفريقي، وذلك حين نجد أن الفقيه أبا عمران الفاسي في القيروان هو الذي وضع الخطوط العريضة والتوجيهات الأولى لدولة المرابطين، عندما وجه الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي إلى موقع بلدة نفيس التي تعد موقعاً من مواقع حلقة الاتصال الواسعة بين العلماء؛ حيث يعلم ويربي وجاج بن زللو اللمطي طلبته على إتباع ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه الكريم، فكان اختياره لعبد الله بن ياسين رحمه الله لمرافقة الأمير يحي مناسباً لتعليم وتفقيه قبائل صنهاجة الملثمين في أمور دينهم في محلِّه، بأن اختار لهم من توسم فيه الذكاء والتقوى والصلاح والعزم والجلد والحماسة لنشر الدعوة الإسلامية بين تلك القبائل الموغلة في الجهل والانحراف.

- يعود الفضل الكبير في توجُّه المرابطين من الصحراء جنوباً نحو المغرب شمالاً للدور الذي لعبه فقهاء وعلماء سجلماسة في تشجيع المرابطين على فتح بلاد المغرب وتوحيدها تحت راية الدولة المرابطية السنية الجديدة؛ حيث وفقت حركة المرابطين بالتعاون والتنسيق مع العلماء والفقهاء بسجلماسة ودرعة في إسقاط دولة زناتة التي تفشى فيها الظلم والجور والعسف، وإخضاعهم لقبائل برغواطة وغمارة ذات المعتقدات الكفرية والانحرافات العقائدية، وذلك يعتبر من أعظم أعمالهم الجهادية عندما وفقهم الله في إزالة الدول الظَّالمة والشركية، وبدلوها بأصول سُنِّية مالكية شرعية، فطهروا بذلك البلاد من العابثين والظالمين، ونشروا العدل بين المسلمين، ورفعوا الضرائب والمكوس عن المظلومين، وذلك بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، ثم من القيادة الحكيمة لابن ياسين ومجلسه الشوري الرشيد من العلماء والفقهاء.

- كان لتزايد قوة المرابطين وتوسعاتهم في بلاد الصحراء والمغرب، وانتشار أخبار الانتصارات التي بات يحققها جنودهم في المعارك، وبأسهم الشديد في القتال وحبهم للشهادة، وسعيهم لرفع المظالم عن المسلمين والتي أخذت تتوارد إلى أهل الأندلس الذين أخذوا يتطلعون إلى هذا الشعب الشجاع، وإلى هذه الدولة المخلصة، ويستنجدون بحكامهما من ظلم حكامهم ويرحبون بهم، فعبر المرابطين البحر إليهم مخلصين لهم من ظلم ملوك الطوائف، ومنقذين لهم من اعتداءات الأسبان، رافعين بذلك رؤوسهم في الأندلس، ومثبتين للإسلام بها سنين أخرى.

- لقد كان من ســـوء حظ الإسلام أن ظهرت دعوة المـــوحدين بقيادة عبد الله بن تـــومرت،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والمرابطون في عنفوان جهادهم في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين بالأندلس، والذي قضى عليهم بقوات قبائل مصمودة، مما أضاع بذلك على الإسلام فرصة كبيرة للاستفادة من جهود هذه الجماعة المجاهدة الباسلة التي بذلت الكثير، وكانت تستطيع أن تبذل الأكثر من أجل نصرة الإسلام والمسلمين، وعليه فإننا لا نملك أن نقول في النهاية إلا: قدر الله وما شاء فعل.

- تمجيدًا لدور المرابطين فقد في جاء في كتاب- عارضة الأحوذي في شرح الترميذي- لأبي بكر بن عربي قوله:« المرابطون قاموا بدعوة الحق، ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين، الذابون والمجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا وقيعة الزلاقة التي أنسى ذكرها حروب الأوائل، وحروب داحس والغبراء مع بني وائل، لكان ذلك من أعظم فخرهم، وأربح تجارتهم، كانت مدتهم من أول ظهورهم تسعين سنة، وبالأندلس ستاً وخمسين سنة، فسبحان من لا يبدل ملكه ولا يفنى دوامه لا إله إلا هو العلي العظيم»[34].

- وقد نظم الفقيه- أبو طالب عبد الجبار الشقوري- في رجزه دولة المرابطين فقال:

وإذا أراد الله نصـــر الديـــن *** استصرخ الناس ابن تاشفـــين
فجاءهم كالصبح في أثر غسق *** مبتدر كالماء يبقى من رمـــق
أتى أبو يعقـــوب كالعقـــاب *** فجرد السيف على الرقـــاب
ووصـــل السيـــر إلى الـــزلاقة *** وســـاقه ليومـــها ما ساقـــه
لله درها يالهـــــا من وقعـــة *** قامت بنصر الدين يوم الجمعة
وكلٌّ للشـــرك هنـــاك عرشـــه *** لم يغـــن عنـــه فيـــه أدفنشه
واتصـــل الأمـــر على النظـــام *** وامتـــد ظل الله في الإســـلام
وانصرفت على العدو الكـــرة *** وأمـــن الجمـــع كأولى مـــدة
فالآن خيـــل الله في العـــــدو *** روح في السمـــاء والغـــــدو
ثم ولى علـــي بن يوســـــف *** مقتـــدياً حكم أبيه يقتفـــي
وبعـــد ذاك الليـــث تاشفين *** غُصـــب ظلماً ملكـــه المكين
وأتـــت الفتـــــن والأرزاء *** واستحكمت في أهلهـــا الأهواء
والله بالمرصـــاد من ورائهـــم *** وهو المرجـــى لدفاع دائهـــم[35].

(34) ابن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مصدر سابق، ص105.
(35) نفس المصدر، ص105.106.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الملاحق

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

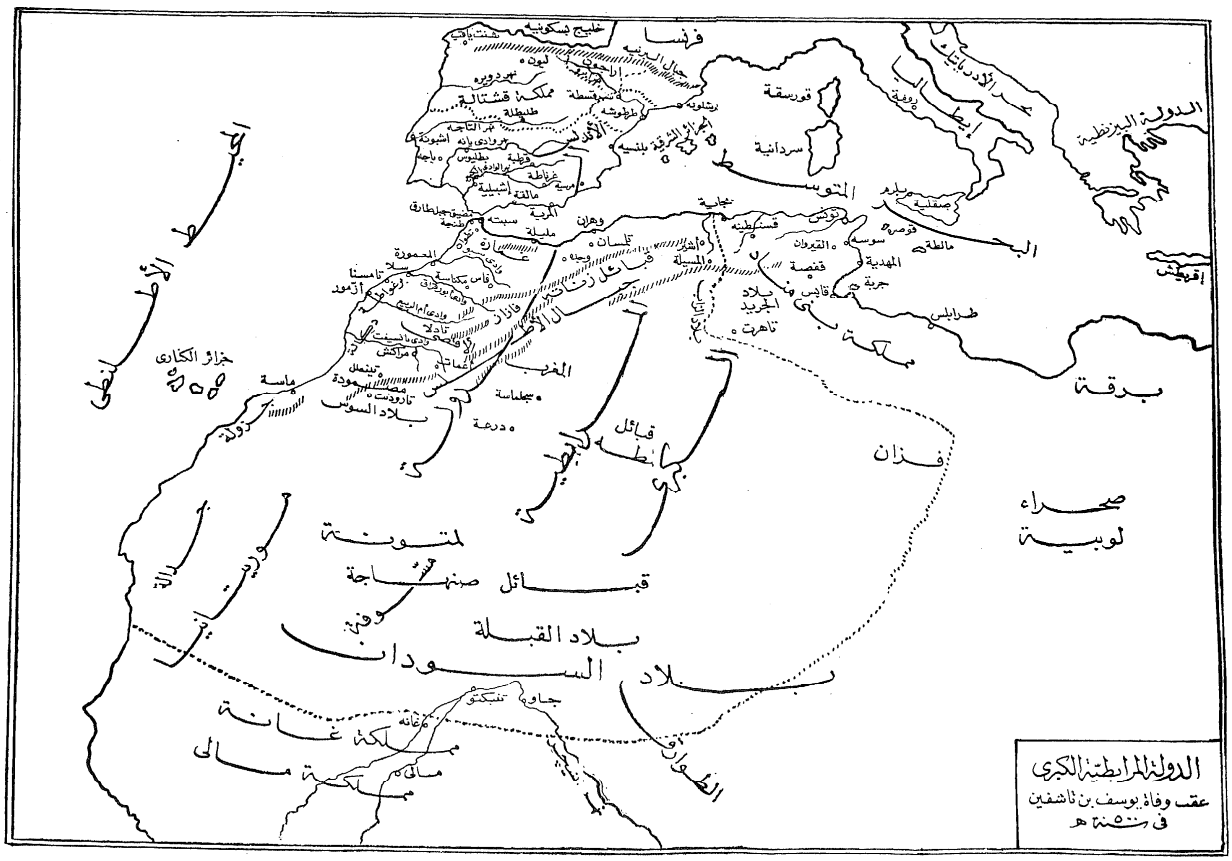

المصدر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، ص23.

الملحق رقم:02

– أسماء الزعماء والملوك المرابطين–

1- عبد الله بن ياسين: .....451هـ/1059م.

2- يحي بن عمر: .....448هـ/1056م.

3- أبو بكر بن عمر:ت(449هـ).....1058-1057/م.

4- يوسف بن تاشفين: أمير المسلمين:.....453-500هـ/1107-1061م.

5- علي بن يوسف: أمير المسلمين:.....500-537هـ/1142-1107م.

6- تاشفين بن علي: أميرالمسلمين:ت(540هـ).....537-539هـ/1142-1444م.

7- إبراهيم بن تاشفين : لم تدم إمـــارته إلا أســـابيع خلال سنة540هـ/1145م.

8-إسحاق بن علي:تولى سنة 540هـ، وقتل في مراكش سنة541 هـ/1146-1147م.

على يد الموحدين

9- يحي بن غانية آخر ولاة المرابطين بالأندلس توفي سنة543هـ./1149م

المصدر: عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص6.5./ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص455.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الملحق رقم:03

كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين
إلى واليه أبي محمد عبد الله بن فاطمةيبين فيها أسس حكمه

وكتب عنه — أي الكاتب أبو القاسم بن الجد — أيده الله ونصره إلى أبي محمد عبد الله بن فاطمة رحمه الله .كتابنا أطال الله في طاعته عمرك وأعز بتقواه قدرك وشد في ماتولاه أزرك وعضد بالتوفيق والتسديد أمرك من حضرة مراكش حرسها الله وقد رأينا والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق أن نحدد عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام أحكام الحق إيثار أسباب الرفق لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل والله تعالى ييسرنا لما يرضيه من قول وعمل بمنه وأنت أعزك الله ممن يستغني بإشارة التذكرة ويكتفي بلمحة التبصرة لما تأوي اليه من السياسة والتجربة فاتخذ الحق إمامك ،وملك يده زمامك وأجر عليه في القوي والضعف أحكامك ، وارفع لدعوة المظلوم حجابك ، ولاتسد في وجه المضطهد المهضوم بابك ، ووطئ للرعية حاطها الله اكنافك ، وابذل لها إنصافك واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها ، واطرح كل من يخيف عليها ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو حزق في أمرها عادة أو غير رسمها أوبدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهماظلما فاعزله عن عمله وعاقبه في بدنه والزمه رد ما أخذ متعديا إلى أهله واجعله نكالا لغيره حتى لا يقدم أحد على مثل فعله إن شاء الله وهو تعالى ولي تسديدك والملئ بعضدك وتأييدك لا إله غيره ولا خير إلا خيره .

المصدر: الفتح ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1، ص333.332.

الملحق رقم:04

تسلسل نسب المرابطين

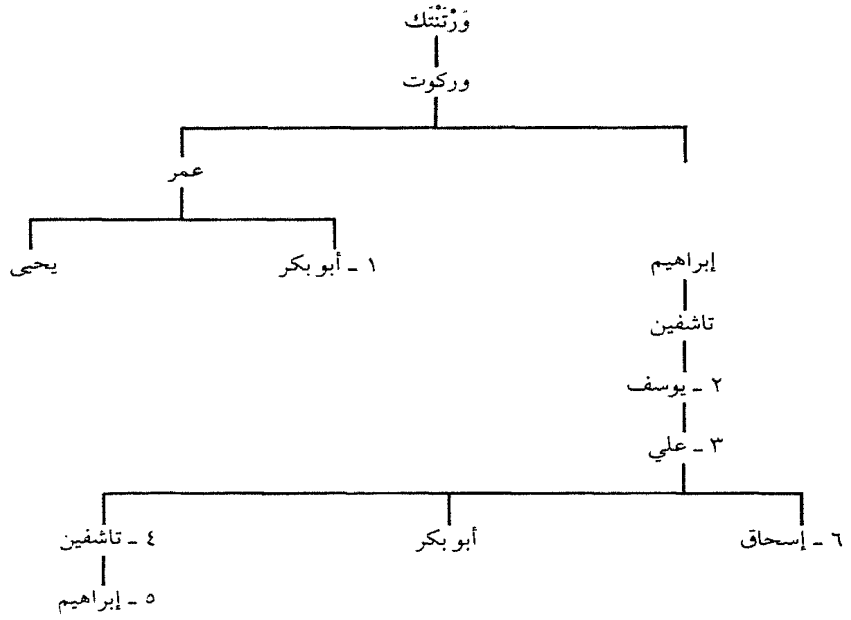

المصدر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج4، ص113.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

قائمة المصادر والمراجع

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- القرآن الكريم.

أولاً/ المعاجم والقواميس:

1- أبادي الفيروز، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي:ت(817هـ).القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004.د(ط).

2- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري:ت(711هـ).لسان العرب تح:علي عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د(ط ٨ س).

3- أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال:الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، سنة1989.

4- الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد:ت(370هـ). تهذيب اللغة، تح:محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، د(ط ٨ س).

5- ,, ,,، تهذيب اللغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، د(ط ٨ س).

6- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي:ت(626هـ). معجم البلدان، دار صادر، بيروت،1977.د(ط).

7- الزركلي،خير الدين:ت(1396هـ). الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، سنة1980.

8- مجمع اللغة العربية للمعجمات وإحياء التراث، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، سنة2004.

ثانياً/كتب الحديث :

1- أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني:سنن أبي داود، تع:محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض، د(ط٨ س).

2- أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري:ت(206هـ). صحيح مسلم، دار المغني، الرياض، السعودية، ط1. سنة1998.

3- البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل:ت(256هـ).صحيح البخاري، تح:عبد القادر شيبة الحمد، الرياض، ط1، سنة2008.

4- الطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد: ت(360هـ). المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الله رفقة عبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة، سنة1995.د(ط).

5- الترميذي، محمد بن عيسى بن سورة:ت(279هـ).سنن الترميذي، تعل: الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، د(س).

ثالثاً/المصـــادر:

1-ابن خلدون، عبد الرحمن:ت(808هـ). المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان،2007. د(ط).

2-,, ,,: تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، سنة 1999.

3- ابن هشام،أبي محمد عبد الملك:ت(183هـ).السيرة النبوية، تح:أحمد شمس الدين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، سنة1998.

4- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد:ت(776هـ). الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تص: البشير الفورتي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، د(س).

5- ,, ,,: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، سنة1964، د(ط).

6- ,, ,, : الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط1، سنة 1975م.

7-ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني:ت (630هـ).الكامل في التاريخ، مر:محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 1987 .

8- ابن القطان المراكشي،أبي محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد المالك الكتامي:ت(628هـ) .نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح:محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط1، سنة1990.

9-ابن عبدون، محمد بن أحمد التجي الأندلسي الاشبيلي:عاش أواخر القرن 5هـ، وأوائل القرن 6هـ،ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب،تح:ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ط1، سنة1955.

10- ,, ,, : رسالة الحسبة، تح: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثـــار

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الشرقية، القاهرة،سنة1955. د(ط).

11- ابن خاقان، أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي:ت(529هـ).مطمح الأنفس ومسرح الأنس في ملح أهل الأندلس، تح:محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، سنة1983.

12-,, ,,: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان. تح:حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الأردن ، ط1، سنة1989.

13- ابن حزم، أبي محمد علي بن أحمد الأندلسي الظاهري:ت(465).الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح:محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط2، سنة1996.

14- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي:ت(726هـ).الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تصحيح يوحنا تورنبرغ، طبعة أوبسالية، عام1917.د(ط).

15- ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر:ت(681هـ).وفيات الأعيان أنباء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة1984.د(ط).

16- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الأندلسي المالكي:ت(595هـ). الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، نقله من العبرية إلى العربية، أحمد شحلان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، سنة1998.

17- ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح الجعواري الأندلسي:ت(533هـ).ديوانه، تح:عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط1، سنة2006م.

18- الإدريسي الشريف، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إدريس:ت(559هـ). المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، طبع بمدينة إيدن، مطبعة بريل، عام1866.د(ط).

19- القاضي عياض، بن موسى بن عياض السبتي:ت(544هـ).ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط2، سنة1983.

20- التادلي، أبي يعقوب يوسف بن يحي المعروف بابن الزيات:ت(617هـ).التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس ألسبتي، تح: أحمد التوفيق، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، سنة1984.

21- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي:ت(555هـ). أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الموحدين، دار منصور للطباعة، الرباط، سنة1971.د(ط).
22-المقري، أحمد بن محمد التلمساني:ت(1041هـ).نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت،سنة1988.د(ط).
23- الزركشي، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي:ت(932هـ).تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، مطبعة الدولة التونسية، ط1، عام1289هـ.
24- المراكشي، ابن عذاري أبو العباس أحمد بن محمد:كان حيا سنة(712هـ).البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، سنة1983.
25- المراكشي، أبي محمد محي الدين عبد الواحد بن علي:ت(647هـ).المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة بريل، ليدن، سنة1881. د(ط).
26-,, ,,: وثائق المرابطين والموحدين، تح:حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1،سنة1997.
27- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:ت(733هـ). نهاية الإرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة2004.
28- الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب:ت(450هـ).الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح: أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، ط1،سنة1989.
29- الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي الدمشقي:ت(1089هـ).شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح:محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1،عام1979.
30-البكري، أبي عبيد:ت(487هـ).المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب.دار الكتاب الإسلامي القاهرة. د(ط٨ س).
31-الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي:ت(914هـ).المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب،تح:جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، ط1،سنة1981م .
32-المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد:ت(285هـ).الكامل في اللغة والأدب، تح:محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، عام1993م.
33- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد:الإستقصا لدول المغرب الأقصى،تح:ولدي المؤلف جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، طبعة1954.د(ط).
34- الفـــرابي أبو النصر محمد:ت(339هـ).السياسة المدنية، الملقب بمبادئ الموجـــودات ، تح:

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط1، سنة1964.

رابعاً/المراجـــع:

1- القادري، إبراهيم بوتشيش:المغرب والأندلس في عصر المرابطين(المجتمع، الذهنيات، الأولياء)، دار الطليعة، بيروت، ط1، سنة1993.

2- الأنصاري، محمد جابر:التأزم السياسي عند العرب وموقف الإسلام،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، سنة1995.

3 - النجار، حسين فوزي: الإسلام والسياسة، مطبوعات الشعب، القاهرة، د(ط ٨ س).

4- الجابري، محمد عابد: فكر ابن خلدون العصبية والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5،سنة1992.

5-الريس،محمد ضياء الدين: النظريات السياسية الإسلامية، دار التراث، القاهرة، ط7.سنة1976.

6- الدراجي،بوزياني:العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء الفكر الخلدوني، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، سنة2003.

7- الجريسي، خالد بن عبد الرحمن: العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، د(ط ٨ س).

8-النبهان، فاروق: الفكر الخلدوني من خلال المقدمة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1،سنة1998.

9- القبانجي، صدر الدين: المذاهب السياسية في الإسلام، دار الأضواء، بيروت، ط2، سنة1985.

10-الشكعة، مصطفى:الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، الدار اللبنانية المصرية، القاهرة، ط3، سنة1993.

11- الوردان، صالح:السيف والسياسة في الإسلام(صراع بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي)، دار الرأي، بيروت، ط1،سنة1999.

12- الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة ، طبعة سنة1990، د(ط).

13- الميلي، مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تص:محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د(ط٨ س).

14-الصلابي، علي محمد:صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي، دار ابن الجوزي، القاهرة ، ط1، سنة2007.

15-القطان، مناع: تاريخ التشريع الإسلامي(التشريع والفقه)، مكتبة المعارف، الرياض، ط2، سنة 1996.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

16- بوطالب، محمد نجيب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، سنة2002.

17- بيضون إبراهيم:تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول، دار إقرا، بيروت، لبنان، ط2 ،سنة1986. ص84.

18- جغلول، عبد القادر:الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، تر: فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط2، سنة1989.

19- حسين، طه: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تر: عبد الله عنان، مطبعة الاعتماد، مصر.ط1، سنة1925.

20- حسن، إبراهيم حسن:تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط14. سنة1996.

21-حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس(عصر المرابطين والموحدين). مكتبة الخانجي، مصر، ط1، سنة1980.

22-خليل، عماد الدين:مدخل إلى التاريخ الإسلامي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، سنة 2005.

23- دندش، عصمت عبد الطيف:دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة1988.

24- ,, ,, ، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة1988.

25-رأفت، الشيخ:تفسير مسار التاريخ، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، طبعة سنة2000. د(ط).

26- سلطان، جاسم محمد: فلسفة التاريخ.(الفكر الإستراتيجي في فهم التاريخ)، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، القاهرة، ط1، سنة2005.

27-سامر، حريفج وآخرون: في مناهج البحث العلمي وأساليبه، منشورات عبد اللاوي، الأردن، ط2، سنة1999.

28- شريف، عمر: نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، مركز الدراسات الإسلامية، القاهرة ،1991.د(ط).

29- طحطح، خاليد فؤاد: في فلسفة التاريخ، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، سنة2009.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

30- عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس(عصر دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي)، دار الكتاب العربي، القاهرة ، ط2، سنة1969.

31- ,, ,, ، دولة الاسلام في الأندلس(عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس) مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط2 ، سنة1990.

32- عباس، إحسان:تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين) دار الشروق، عمان، الأردن، سنة1997. د(ط).

33- عبد العزيز، سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر،1997. د(ط).

34- عويس، عبد الحليم: التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008.د(ط).

35- عبد القادر، بوعرفة: مقدمات في السياسة المدنية، رياض العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، سنة2005.

36- عبد المنعم حمدي محمد حسين:التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، مصر،1997.د(ط).

37- غليون برهان: نقد السياسة: الدولة والدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط7، سنة2007.

38- قباني، عبد العزيز: العصبية بنية المجتمع العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط1،سنة1997.

39-كنون، عبدالله: النبوغ المغربي في الأدب العربي،دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط2،سنة1961.

40- لابيكا جورج:السياسة والدين عند ابن خلدون، تع:موسى وهبي وشوقي دويهي، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، سنة1980.

41- محمود،حسن أحمد: قيام دولة المرابطين(صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى)، دار الفكر العربي، القاهرة. د(ط ٨ س).

42- مؤنس، حسين: نصوص سياسية عن فترة الإنتقال من المرابطين إلى الموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، سنة2000.

خامساً/الرسائل الجامعية:

1-الجيلالي سلطاني، رسالة ماجستير: إتجاهات الشعر في عصر المرابطين بالمغرب والأندلس، جامعة دمشق، كلية الأداب، قسم اللغة العربية وأدابها، دمشق(1407هـ/1987م).

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

2- سالم أبو القاسم محمد غومة:رسالة ماجستير: تطور المؤسسة العسكرية في دولتي المرابطين والموحدين من(451.668هـ/1059.1269م).جامعة ليبيا، سنة(2003/2004م).

3- عبد العالي بلامين:رسالة جامعية بعنوان:مواقف المرابطين في دفع بغي السلاطين، جامعة سيدي محمد بن عبد الله،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس،المملكة المغربية.(1426هـ/ 2005م).

4- هشام بن حسن العطار: رسالة ماجستير: أثر الإسلام في نظرة ابن خلدون للإنسان والأديان، جامعة محمد بن سعود، الرياض، السعودية. (1421هـ/2001م).

سادساً/المجـــلات:

1- حماه الله ولد السالم: مقال بعنوان: الأصول الفكرية لدولة المرابطين وآثارها الصحراوية، مجلة علوم إنسانية، العدد40، سنة2006، مجلة إلكترونية: www.ulum.nl

2- محمد القاضي:مقال بعنوان:البرتغال الإسلامية، مجلة التسامح، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، العدد20، السنة2007. www.altasamoh.net

سابعًا/الكتب الإلكترونية:

1- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد:ت(776هـ).معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423هـ، كتاب الكتروني من موقع مكتبة الشاملة، ص106. http://shamela.ws

2- أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن القضاعي البلنسي المعروف بـ: ابن الآبار :ت (658هـ)، المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، المصدر: موقع مكتبة: .www.al-mostafa.com

ثامناً/المراجع الأجنبية:

1- Abdelghani Megherbi, La pensée sociologique d'Ibn Khaldoun, enal, 3eme edition, Alger, 1983.

2- Nassif nassar, la pensée réaliste d'ibnkhaldoun, presses universitaires de France, 1ere edition .1967. Paris, p197.

3- Yves lacoste, ibn khaldoun. Naissance de l'histoire passè de tiers monde, edition la découverte, Paris.1998.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فهرس الموضوعات

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الموضوع.....الصفحة

المقدمة.....أ. ك

مدخل.....2.1

الفصل الأول:الدولة والعصبية، المفهوم والتاريخية.....38.3

المبحث الأول: المفهوم العام للدولة وتاريخيتها في الإسلام.....4

المفهوم العام للدولة.....4

المفهوم الإسلامي.....4

المفهوم الخلدوني.....5

المفهوم الغربي.....7

تاريخية الدولة في الإسلام.....8

دولة النبي(ﷺ).....8

دولة الخلفاء.....10

دولة الملك والسلطان.....11

العصبية وتحول نظام الحكم في الإسلام.....12

المبحث الثاني: العصبية بين المفهوم والوظيفة والأهمية.....15

تعريف العصبية لغة واصطلاحا.....15

أنواع العصبيات.....17

عوامل تعزيز العصبية.....21

عوامل إضعاف العصبية.....22

وظيفة العصبية وأهميتها.....25

المبحث الثالث:الدين والعصبية.....27

أثر الدين في العصبية.....27

التكامل بين الدعوة الدينية والعصبية القبلية.....29

العصبية الضارة والعصبية النافعة.....32

تشكل العصبية الدينية عبر التاريخ الإسلامي.....34

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

العصبية وتعويض النسب القرشي.....37
الفصل الثاني:العصبية الدينية ودورها في قيام الدول الإسلامية،المرابطية نموذجاً.....40.86
المبحث الأول: العصبية الدينية ودورها في قيام الدول الإسلامية.....41
دور العصبية الدينية في نشأة الدول المرابطية.....42
التعريف بالدولة المرابطية وتسمياتها المتعددة.....42
الأسس الدينية لدولة المرابطين.....46
البعد المالكي للدعوة المرابطية.....53
خصوصية حقل الدعوة المرابطية.....55
مراحل انتشار وتوسع الدعوة المرابطية.....57
المبحث الثاني: دور عبد الله بن ياسين في تكوين العصبية الدينية المرابطية.....61
التعريف بعبد الله بن ياسين وظروف اختياره لمهمة الدعوة.....61
شروعه في مهمة الدعوة للقبائل الصحراوية.....62
العقبات الأولى في طريق دعوته ولزومه الرباط.....64
تركه للمرابطة واستئناف الدعوة.....65
تخليه عن سياسة المسالمة واستعماله للسيف لحماية دعوته.....66
الأصول العلمية والفقهية التي ربى عليها أتباعه المرابطين.....68
السياسة التي اتبعها في سبيل تحقيق أهدافه.....70
المبحث الثالث: العصبية الدينية عند المرابطين، المظاهر والآثار.....73
مظاهر العصبية الدينية في دولة المرابطين.....73
من جانب الحكام.....73
من جانب الرعية.....76
مظاهر أخرى عامة.....77
أثار العصبية الدينية على الدولة والمجتمع المرابطي.....84

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الفصل الثالث: العصبية الدينية ودورها في أفول الدول الإسلامية، المرابطية نموذجاً.....
.....133.87
المبحث الأول: انحلال العصبية الدينية، العوامل والمظاهر.....88
انحلال عصبية المرابطين وأثرها في سقوط دولتهم.....89
الأسباب والعوامل.....89
الجوانب والمظاهر.....104
المبحث الثاني: الصراع بين العصبية المرابطية و العصبية الموحدية.....113
ظهور الدعوة الموحدية بقيادة المهدي بن تومرت.....113
إعلان ابن تومرت عن إمامته والدعوة ضد المرابطين.....115
دهاء ابن تومرت واستثماره في أخطاء المرابطين.....117
إحراق كتاب الإحياء لأبو حامد الغزالي.....118
تهم ابن تومرت للمرابطين.....120
الصراع بين المرابطين والموحدين ونهاية حكمهم في المغرب والأندلس.....122
المبحث الثالث: نظرية العصبية عند ابن خلدون، الأحكام و الانتقادات.....124
مناقشة نظرية العصبية.....124
العصبية والدعوة الدينية.....124
العصبية والخلافة(النسب القرشي).....127
افتقار أمثلة دور العصبية في قيام الدول وأفولها للدعم التاريخي.....128
نماذج لدول قامت على شرط انعدام عصبية أصحابها.....129
نماذج معاصرة عن العصبية.....131
الخاتمـــة.....134
الملاحق.....140
قائمة المصادر والمراجع.....142
فهرس الموضوعات..... 151

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أخو العلم حي خالد بعد موته

وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو ماشي على

الثرى يظن من الأحياء وهو عديم*.

* شعر أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي.

المصدر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس(عصر المرابطين والموحدين)، ص369.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الملخص
يتناول موضوع البحث دراسة العصبية الدينية ودورها في قيام وأفول الدول الإسلامية، مع الاعتماد على دولة المرابطين كنموذج للتوضيح والتعليل، والتحقق من ذلك حتم علينا العودة إلى تتبع أحداث التاريخ الإسلامي المتواكبة، السياسية منها على وجه الخصوص المتعلقة بالتطور الذي عرفته الدول الإسلامية عبر مسارها التاريخي، منذ ظهور أول دولة في الإسلام وهي دولة(إلى سقوط آخر خلافة إسلامية وهي الدولة العثمانية، وهو الشيء الذي أوصلنا _ الرسول) إلى بلورة مجموعًة من الأفكار والاعتقادات منها أن جل دول العالم الإسلامي وكغيرها من الدول، قد مرت في عملية بنائها بمجموعة المراحل التي يسميها المهتمون بدراسة نشأة الدول وتطورها ب-:قانون الدولة . -وهذه المراحل هي :مرحلة التأسيس ثم النمو والقوة وأخيرًا السقوط .وهو ما قال به ابن خلدون عندما قرر بأن للدول أعمارًا مثل الأشخاص، ولكل مرحلة يجب أن تتوفر مجموعة من العوامل والأسباب من بينها حسب ما ذكره ابن خلدون في المقدمة - الدعوة الدينية، والعصبية القبلية .-وسواءٌ تعلق الأمر بالدول التي قامت في المشرق أو التي كان قيامها في المغرب الإسلامي وبالتحديد في الفترة الوسيطة، فإن الملاحظ لها يرى أن العديد منها قد قام على أساس العصبية القبلية والدعوة الدينية مثل الدولة الأموية والدولة العباسية، أو الدول المنفصلة عنهما كالدولة الإدريسية والدولة الفاطمية والدولة الزيانية والموحدية، أو الدولة المرابطية التي هي محل دراستنا هذه . والتي كانت قد اعتمدت في تكوينها على الدعوة الدينية السنية المالكية التي قام الشيخ عبد الله بن ياسين، وعلى عصبية قبيلة لمتونة البربرية وفروعها الأخرى كجدالة ولمطة ومسوفة وغيرها، فتمكنت من أن تتحول من مجرد دعوة دينية على يد زعيمها الروحي عبد الله بن ياسين إلى ملك ودولة قائمة بذاتها بيد زعيمها السياسي يحي بن إبراهيم، وقائدها الكبير يوسف ابن تاشفين وأبنائه من بعده، ومن أن تؤسس ملكًا واسعًا شمل بلاد المغرب والأندلس ودول إفريقيا جنوب الصحراء، وأن تعمر ما يقارب القرن من الزمن، قدمت خلاله خدمات جليلة للإسلام ولأهله، معيدًة بذلك صورة الفتوحات الإسلامية أيام الخلافة الراشدة والأموية والعباسية إلى الأذهان.

الكلمات المفتاحية:

الدولة؛ العصبية؛ العصبية الدينية؛ انحلال العصبية الدينية؛ دولة المرابطين؛ عبد الله بن ياسين؛ ابن خلدون؛ دولة الموحدين؛ الدول الإسلامية؛ بن تومرت.